د. حسن البندارى
أستاذ البلاغة والنقد الأدبى
بكلية البنات ـ جامعة عين شمس

أساليب علم المعانى
بين
النظرية والتطبيق

الطبعة الثانية
٢٠٠٦

الناشر
مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا ـ القاهرة

عنوان الكتاب : أساليب علم المعانى بين النظرية والتطبيق
المؤلف : د. حسن البندارى.
الطبعة الثانية ٢٠٠٦م
الناشر : مكتبة الآداب، ٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
ت ٣٩٠٠٨٦٨ - ٣٩١٩٣٧٧
الكمبيوتر والتنسيق الفنى : مكتب النورت : ٧٤٢٠٤٧٨
لوحة الغلاف الفنانة : د. چيهان رءوف
الإشراف الفنى : المنار ديزاينز

رقم الإيداع	٢٠٠٣ / ٥٥٦٩
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977 - 241 - 481 - 2

أساليب علم المعانى
بين
النظرية والتطبيق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعقد هذا الكتاب حواراً مع عدد من الأساليب البلاغية التى تندرج تحت فنون أحد علوم البلاغة العربية، وهو «علم المعانى» الذى اصطلح البلاغيون منذ السكاكى (ـ٦٢٦هـ) حتى العصر الحديث على تسميته بهذا الاسم. ويمضي الكتاب في تمهيد وأحد عشر فصلاً.

أما التمهيد فيعرض لتحديد مفهوم فنون هذا العلم وأساليبه المختلفة، موضحًا علاقة هذه الأساليب بنحو التركيب، ومبينا وظيفتها الفنية وقيمتها النفسية المتعلقة بعملية التلقى لدى القارئ والسامع على السواء.

وأما الفصل الأول وهو (بلاغة الأسلوب الخبرى)، فيعتني ببيان مفهوم الأسلوب الخبرى فى ضوء أفكار البلاغيين والنقاد، ويشير إلى الأغراض البلاغية لأنواعه المتعددة، ويفصل القول فى مؤكدات الأسلوب، أو التعبير الخبرى من حيث دورها المؤثر فى عملية التلقى.

وأما الفصل الثانى وهو (بلاغة الأسلوب الإنشائى) فيحدد مفهوم هذا الأسلوب، ويكشف عن بلاغة ألوانه المتعددة وقيمتها الفنية، وأثرها فى نفسية المتلقى، وتوجيه مشاعره تجاه المعانى التى يثيرها هذا اللون الإنشائى أو ذاك.

وأما الفصل الثالث: وهو (بلاغة الحذف) فيعنى بتحديد مفهوم حذف

جزء من التعبير الأدبى، ويحدد مواضعه فى ضوء دراسة أحوال حذف كل من (المسند إليه) و(المسند) وبلاغة هذه الأحوال.

وأما الفصل الرابع وهو (بلاغة التعريف) فيتناول مفهوم تعريف الأسلوب الأدبى، ويقف بالتفصيل على وسائل تعريف كل من المسند إليه، والمسند، مبينا الأغراض الفنية لهذه الوسيلة أو تلك .

ويعمد الفصل الخامس إلى دراسة (بلاغة تنكير أساليب معينة) فى ضوء تحديد المصطلح، ومن خلال الكشف عن القيمة الفنية لأساليب تنكير المسند إليه، وأساليب تنكير المسند، ومدى تأثير ذلك فى عملية التلقّى.

ويمضى الفصل السادس (بلاغة التقديم) فى بحث عدد من الأساليب العربية التى مالت إلى تقديم المسند إليه وتقديم المعمول على العامل. وكيف أن «التقديم» هنا يثير أغراضا بلاغية مختلفة تسهم فى استجابة المتلقى لهذه الأساليب وتفاعله معها أثناء التلقى.

وأما الفصل السابع وهو (بلاغة القصر) فيهتم بالكشف عن بلاغة أساليب القصر، وطرقه المتعددة، ويقف علي اختلاف دلالات الطرق بعضها عن بعض، ويؤكد على إحكام أساليب القصر المختلفة التى وُظفت لها الطرق أو الأدوات النوعية الدالة على هذه المعانى أو تلك.

وأما الفصل الثامن (بلاغة الفصل والوصل) فيختص بتحديد معالم

مفهوم كل منهما، وبيان مواضعهما، والضرورة الفنية أو الأغراض البلاغية التي تنشأ عن مراعاة كل من الفصل والوصل فى تكوين الأسلوب الأدبى.

يفحص الفصل العاشر وهو (بلاغة الإطناب) مفهوم (الإطناب) أو التطويل الفنى، ويسوق أسباب الاحتياج إلى الإطناب، ويكشف عن قيمة وسائله التى تفيد فى توضيح الفكرة، أو تأكيدها، أو إقرارها فى ذهن المتلقى.

وأما الفصل الحادى عشر والأخير وهو (بلاغة الالتفات) فيعرض لتحديد مفهوم الالتفات، وأراء اللغويين والنقاد والبلاغيين في قيمته الأدبية والنفسية وأسبقيته لمصطلح (تيار الوعى) الذى وظفه بعض الأدباء الأوربيين فى القصة الحديثة.

وقد حرص هذا الكتاب عبر فصوله على معالجة هذه الأساليب البلاغية النوعية فى ضوء آيات من القرآن، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة، ونصوص من النثر والشعر العربى القديم والحديث ليسهم ذلك فى تكوين ذائقة المتلقى، وتشكيل رؤية نقدية لديه تساعده على إدراك أو تذوق الأساليب الأدبية المختلفة.

والله الموفق

حسن البندارى

تمهيد :

١ ـ مفهوم علم المعانى :

عنى البلاغيون خلال رحلة البلاغة العربية ـ بالجمال المعنوى الذى ينطوى عليه «التركيب الأدبى»، ورأوا أن تحقق هذا الجمال مرتبط بنظام بلاغى يختص بإبراز العلاقة الإيجابية بين الوضع النحوى للتركيب ومقامه، بمعنى ـ كما يرى بعض الدارسين المحدثين ـ «أن تكون الأوضاع النحوية للألفاظ ملائمة لما يقتضيه المقام من التعبير عن المعانى المختلفة» (١)، كما يختص هذا النظام بالكشف عن المعانى الإضافية التى تتضمنها التراكيب الأدبية التى تتجاوز المعانى الأصلية لتلك التراكيب.

وفى ضوء هذا النظام البلاغى يمكن القول إن الجمال المعنوى هو محور دراسة الموضوعات أو الفنون التى يتألف منها علم المعانى أو علم التراكيب، أو علم الأسلوب كما يسميه الدارسون المحدثون.

---

(١) د. درويش الجندي : علم المعانى . مكتبة نهضة مصر صـ١١ .

٢- البلاغيون ونحو التركيب

استثمر البلاغيون جهود سيبويه (ـ ١٨٠هـ) والسيرافي (ـ٣٦٨هـ)، وابن جني (ـ ٣٦٠هـ) وغيرهم من النحاة القدامى في توصيف العلاقة بين علم النحو وعلم المعاني. فقد قال عبد القاهر الجرجاني (ـ ٤٧١هـ): «واعلم أن النظم ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، فتنظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك (زيد منطلق) (ينطلق زيد) و(منطلق زيد)، و(زيد المنطلق)، و(المنطلق زيد)، و(زيد هو المنطلق) و (زيد هو منطلق) وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: (إن تخرج أخرج)، و(إن خرجت خرجت)، و(إن تخرج فأنا خارج)، و(أنا خارج إن خرجت)، و(أنا إن خرجت خارج)، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: (جاءني زيد مسرعا)، و(جاءني يسرع)، و(جاءني وهو مسرع)، و(جاءني وقد أسرع). فيعرف لكل مواضعه، ويجيء به كل واحد منها بخصوصه في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، نحو أن يجيء بما في نفي الحال، وبلا إذا أراد نفي الاستقبال. وينظر في الجمل التي ترد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع الواو من موضع الفاء، وثم ، ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير، وفي الحذف والتكرار، والإظهار والإضمار فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله علي

الصحة وعلى ما ينبغى له»(١).

ويقول عبد القاهر أيضاً [illegible] شيئاً يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ويدخل تحت هذا الاسم ــ إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه واستعمل فى غير ما ينبغى له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل - إلى معانى النحو وإحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله ويتصل بباب من أبوابه»(٢).

فمن البين فى هذا النص أن النحو ليس مجرد قواعد منطقية. بل أنه فى ضوء التحويلات والتصريفات الأسلوبية التى عمد إليها عبد القادر صار جزءاً من علم البلاغة أو أساس علم المعانى، فالإعراب وبيان سلامة الكلام وصحته أمر شكلى إذا قيس بما تقدمه اللغة إلى متذوقيها قارئًا أو سامعًا من دلالات وتفاعلات، إذ هى خرجت من يد أديب أو فنان(٣). وبعبارة أخرى إن وضع الكلام أو التركيب الوضع الذى يقتضيه علم النحو فى أدق مفاهيمه، يدعونا إلى تحديد نوع المطلوب من التركيب، فإذا كان المطلوب مثلا هو «الاخبار عن زيد باستمرار الانطلاق» قيل (زيد منطلق).

(١) دلائل الإعجاز . تصحيح السيد رشيد رضا . ط . دار المعرفة. بيروت ١٩٧٨م.

(٢) السابق : ص ٦٥ .

(٣) د. أحمد عبد السيد الصاوى. النقد التحليلى عند عبد القاهر الجرجانى الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٩ ص ١٦٧.

أما إذا كان الغرض «الاخبار عنه بحدوث الانطلاق» - قيل (زيد ينطلق)، فإذا أريد «الدلالة على مجرد أحداث الانطلاق من زيد» قيل (انطلق زيد). وهكذا باختيار البديل الأصوب والأوفق للمعنى المطلوب ، كما فى اختيار أداة الشرط المناسبة والفعل المناسب معها من حيث المضى والمضارعة. كذلك الكلام فى الحال واختيار الأوفق فى صورة للتعبير عما فى النفس باقة هل فى إيراده (الحال) مفردا، أو جملة، أو شبه جملة. وهل تكون الجملة فعلية أو اسمية. وكذلك فى حال الجمل بعضها مع بعض «من حيث الوصل أو الفصل وإذا كان الأفضل الوصل، فأي حروف الوصل أنسب للمعنى المراد، هل هى الواو أو الفاء أو ثم»(١).

ويترتب على هذا أن «قواعد النحو» أو أبوابه لم تعد جامدة جافة، حيث امتلكت الأفكار والمعانى، وتضمنت مشاعر وصورا وألوانا نفسية، مما جعل هذه الأبواب تمتزج بما سماه البلاغيون «علم المعانى» كما أن عبد القاهر فى قوله «هذا هو السبيل...» لا يقف عند حدود الصحة والخطأ فى الكلام، وإنما يجاوز ذلك إلى تعليل الجودة والرداءة، ويرجع ذلك إلى معانى النحو، وإلى وجود فروق وخاصيات فى الاستخدام والاستعمال من شأنها أن تجعل بين الكتاب والشعراء تفاوتا ملحوظًا(٢).

---

(١) د . بسيونى عرفة : فكرة النظم فى تطورها وأهدافها - دار الرسالة ، القاهرة ١٩٨٢ ص ١٤٧.

(٢) النقد التحليلى صـ ١١.

وقد عمد ابن الأثير (ـ ٦٣٢هـ) إلى تحديد العلاقة بين علم المعانى وعلم النحو فى موطن تفريقه بين وجهة نظر صاحب علم «البيان» (الذى قصد به ما يشمل العلوم الثلاثة: المعانى، والبيان والبديع) ووجة نظر النحوى، فذكر أن البيانى (البلاغى) والنحوى يشتركان فى أن النحو ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى، وتلك دلالة عامة، وصاحب البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة، وهى دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب، ألا ترى أن النحو يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور، ويعلم مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة، ومن هنا غلط مفسرو الأشعار فى اقتصارهم على شرح المعنى، وما فيها (أى الأشعار) من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تضمنته من أسرار الفصاحة والبلاغة»(١).

يعنى ابن الأثير فى هذا النص بتوضيح أن «البيانى أو البلاغى» يحتكم إلى ذوقة فى بحث فنية الأسلوب أو التعبير اللغوى، كى يضع يد المتلقى على مواطن حسنه وأسرار جماله. وهذا فى حد ذاته عمل ذوقى يتجاوز دائرة «سلامة القاعدة النحوية» أو صحتها اللغوية وهى دائرة انحصر فيها «النحاة» و«شراح الشعر» فلم يعن النحاه ـ بفصاحة النص وبلاغته القائمة

---

(١) ابن الأثير: المثل وسائر. تحقيق د./ بدوى طبانه، ود./ أحمد الحوفى ط. نهضة مصر ١٩٧٣م.

على مبادئ جمالية أو فنية ، على حين اكتفى «الشراح» بالشرح اللغوى للمفردات ومواضع إعرابها دون الكشف عما تشتمل عليه من حسن وجمال. أو ما تحتويه من أسرار الفصاحة والبلاغة.

وقد قوى ابن الأثير هذه الفكرة بمزيد من النصوص فقال متسائلاً: «هل علم البيان (المراد به العلوم الثلاثة) من الفصاحة والبلاغة جار مجرى علم النحو أم لا؟» ويقدم الإجابة على هذا التساؤل فيقول إن «الفرق بينهما ظاهر، وذلك أن أقسام النحو أخذت من واضعها بالتقليد، حتى لو عكس القضية فيها لجاز له ذلك، ولما كان العقل يأباه ولا ينكره، فإنه لو جعل الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعًا ـ قلد فى ذلك كما قلد فى رفع الفاعل ونصب المفعول. وأما علم البيان من الفصاحة والبلاغة، فليس كذلك لأنه استنبط بالنظر وقضية العقل من غير واضع اللغة، ولم يفتقر فيه إلى التوقيف منه. بل أخذت ألفاظ ومعان على هيئة مخصوصة، وحكم لها العقل بمزية من الحسن لا يشاركها فيها غيرها، فإن كل عارف بأسرار الكلام من أى لغة من اللغات، يعلم أن إخراج المعانى فى ألفاظ حسنة رائقة يلذها السمع ولا ينبو عنها الطبع ـ خير من إخراجها فى ألفاظ قبيحة مستكرهة ينبو عنها السمع. ولو أراد واضع اللغة خلاف ذلك لما قلدناه. فإن قيل: لو أخذت أقسام النحو بالتقليد من واضعها لما أقيمت الأدلة عليها وعلم بقضية النظر أن الفاعل يكون مرفوعًا والمفعول منصوبا، فالجواب عن ذلك أنا نقول: هذه الأدلة واهية لا تثبت على محك الجدل، فإن هؤلاء الذين

تصدوا لإقامتها سمعوا عن واضع اللغة رفع الفاعل ونصب المفعول من غير دليل أبداه لهم، فاستخرجوا لذلك أدلة وعللا، وإلا فمن أين علم هؤلاء أن الحكمة التى دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هى التى ذكروها»(١).

فمحور هذه التقوية هو «ثنائية العقل والذوق». فما نصيب كل من النحاة وعلماء البلاغة من هذه الثنائية؟ إن النظرة فى جهود النحاة سوف تثمر عن أن مدار علم النحو هو «التقليد». أو الأخذ بالمقررات «اللغوية التى تواضع عليها العلماء فصارت تقاليد ثابتة. إذ إن النحو قد أرسى «القاعدة» التى لا يجب الخروج عليها، فمثلا كل من «رفع الفاعل» و«نصب المفعول» ـ قاعدة، ثم صارت تقليداً لا يصح تجاوزه أو نقضه، لأن هذه القاعدة قد أخذت أصلا من «واضع اللغة». فهكذا سمع العلماء والرواة ودونوا، وعلى المعاصرين ومن أتى بعدهم فى العصور اللاحقة ـ الالتزام بما دونه العلماء من قواعد والقيام بتقليدها.

ولا يدفع هذه الحقيقة ـ حقيقة التقليد ـ وجود الشواهد على صحة القاعدة (الرفع للفاعل، والنصب للمفعول مثلا) لأن هذه الشواهد مجرد أدلة على ما سمعه العلماء تؤكد ما دونوه، فالقاعدة على هذا ليست نتيجة «الاستنباط» ولا وليدة النظر العقلى. ومن ثم فإن طبيعة البحث فى علم النحو غير مؤسسة على ثنائية العقل والذوق.

---

(١) المثل السائر ١/ ١١٩ ـ ١٢٠.

على حين أن هذه «الثنائية» تمثل جوهر (علوم البلاغة) ومنها علم المعانى، لأن هذا العلم قائم على الاستنباط العقلى التأملى من حيث فحص «ألفاظ ومعان» على هيئة مخصوصة بطريق العقل، الذى يحكم لها بالمزية والفضيلة. فى مقابل ألفاظ ومعان أخرى لا يحكم لها بذلك، لكنها أقل فنية منها.

ومن هنا يتأكد للفاحص ضرورة تحكيم (عقله وذوقه) فى نصوص اللغة، ومنها نصوص القاعدة النحوية - حتى يدرك الفرق بين صياغة المعانى الأدبية بألفاظ حسنة يميل إليها الطبع ويتأثر بها السمع، وصياغة نفس المعانى بألفاظ قبيحة مستكرهة ينفران منها.

ويمكن القول - بناء على هذا - أن (علم المعانى) يعتمد على (مقررات) علم النحو وإنجازاته فى فحص النصوص الأدبية، ولكنه ينطلق من هذه الانجازات إلى عوالم التراكيب التى بدت نحوية، للكشف عن أسرارها، معتمدا فى ذلك على عقل فاحص محلل، وذوق مزود بالدربة والثقافة.

وعلى الرغم من هذا التفريق الحاسم بين وظيفتى علم النحو وعلم البلاغة (المعانى) . فإن كلا من السكاكى والخطيب القزوينى قد أغفل هذا التفريق بأن أدخلا كثيرا من المعانى النحوية فى مباحث علم المعانى، مثل حديثهما الخاص بأحوال التعريف، ذلك أن التعريف بالإضمار يكون لأن المقام للتكلم أو الخطاب أو الغيبة كقول بشار.

أنا المرعث لا أخفى على أحـد   ذرت بى الشمس للقاصى وللدانى

وقول أمامة الخثعمية صاحبة ابن الدمينة:

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى   وأشمت بـى من كان فيك يلـوم

وقلو القاسم بن حنبل المرى:

من البيض الوجوه بنـى سنــان   لـو أنـك تستضىء بهـم أضـاؤا

هم حلـوا من الشــرف المعلــى   ومن كـرم العشيـرة حيث شـاءوا

فكل هذه وأشباهها معان نحوية، وليست فى شىء من وجوه الفصاحة والبلاغة(١)

٣ـ المسائل المشتركة بين علم النحو وعلم المعانى:

ولكن ما طبيعة فحص كل من (علم النحو) و (علم المعانى) للمسائل التى تعتبر موضع بحث مشترك. مثل: الذكر والحذف والتقديم والتأخير وغيرها؟. يقال بالنسبة لعلم النحو، أنه ينظر فى هذه المسائل من زاوية (وجوه صحتها وامتناعها أو عدم صحتها) بناء على التقاليد التى اقرها واضع اللغة. وأما علم المعانى، فإنه ينظر فيها من جهة بيان الوجوه التى نرجح بعضها على بعض. ذلك أنه «إذا كان بينا فى الشىء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذى هو عليه.. فلا مزية، وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل

---

(١) عبد المتعال الصعيدى : البلاغة العالية . المطبعة السلفية ـ القاهرة ١٣٥٥ ص ٤٠، ٤١.

فى الكلام غير الوجه الذى جاء عليه ـ وجها آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذى جاء عليه حسنا وقبولا يعدمهما إذا أنت تركته إلى الثانى، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ ــ ليس يخاف أن لتقديم (الشركاء) حسنا وروعة ومأخذا من القلوب أنت لا تجد شيئًا منه إذا أنت أخرت فقلت (وجعلوا الجن شركاء لله). فمع التأخير يستفاد أنهم (جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى﴾. والتقديم يفيد هذا المعنى، ولكن (التقديم) يفيد معنى آخر وهو: أنه ما كان ينبغى أن يكون لله شريك لا من الجن ولا غير الجن»(١) أى أن التأخير (تأخير شركاء بعد الجن) يحقق معنى واحد وهو مجرد الاخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله، على حين أن التقديم يحقق أو يوسع المعنى كما تبين.

وظيفة فنون علم المعانى:

لكى نتبين أثر علم المعانى وقيمته البلاغية فى التعبير الأدبى، يتعين علينا أن نعرض لأفكار البلاغيين عن أهمية دراسة البلاغة بوجه عام. ذلك أنهم قد رأوا أن الوعى بفنون البلاغة يحقق طائفة من الأهداف الضرورية منها:

١ ــ أنها تتيح للقارئ أن يتعرف على أسرار الإعجاز القرآنى من جهة ما يختص به ــ كما يقول أبو هلال العسكرى ـ «من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٢١.

الحلاوة، وجماله من رونق الطلاوة، مع سهولة كلمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنه وتحيرت عقولهم فيها»(١) ولذلك عمد البلاغيون والنقاد القدامى إلى التأكيد على هذا الغرض الدينى مثل عبد القاهر الجرجانى الذى بين أن أعجاز القرآن يكمن فى أنه «على حد من الفصاحة تقصر عنه قوى البشر، ومنتهيا إلى غاية لا يطمح إليها بالفكر، وكان محالا أن يعرف كونه كذلك إلا من عرف الشعر الذى هو ديوان العرب وعنوان الأدب، والذى لا يشك أنه كان ميدان القوم إذا تحاوروا فى الفصاحة والبيان، وتنازعوا فيها قصب الرهان، ثم بحث عن العلل التى بها كان التباين فى الفضل، وزاد بعض الشعر على بعض»(٢).

٢ ــ أن هذه الفنون تمنح متذوق الأدب القدرة على التمييز بين الجيد والردىء من النصوص الأدبية. وهذه خاصة لازمة له، وذلك أنه «إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله وظهر نقصه(٣).

٣ ــ أن هذه الفنون تجعل الأديب (الشاعر أو الناثر) يحقق بشعره أو نثره سلامة التعبير وحسن الصياغة، كما تجنبه الوقوع فى دائرة الخلط

---

(١) أبو هلال العسكرى: كتاب الصناعتين تحقيق: على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ــ دار الفكر العربى ص ٧.

(٢) عبد القاهر الجرجانى : دلائل الاعجاز ، ص ٧ .

(٣) كتاب الصناعتين ص ٨.

والاضطراب، «فإذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشىء رسالة وقد فاته هذا العلم ـــ مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر، واستعمل الوحشى العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل»(١).

ويتفق البلاغيون فى القديم والحديث على أن مهمة علم المعانى تكاد تنحصر فى أمرين: الأول هو : الكشف عن مطابقة الكلام، أو التعبير المعين عن حال المتلقين لهذا التعبير، ومناسبته لمستوياتهم الفكرية والمعرفية. والثانى هو: الكشف عن المعانى الخاصة أو الإضافية التى تستخلص من هذ التعبير.

وبالنسبة للأمر الأول، فهو كما نرى يتضمن عنصرين هما «الملاءمة»، و«المناسبة». أما الملاءمة فهى تعنى أن يتلاءم التعبير ويتوافق مع المقام الذى قيل فيه. ومعنى هذا أن الشهادة بفنية التعبير متوقفة على هذا العنصر. وأما المناسبة فهى تعنى أن يناسب التعبير حال المتلقى الذى وجه إليه، أو الذى يخبر به. ذلك أن هذا المتلقى واحد من ثلاثة. أى أن الأديب ينبغى عليه أن يكون على وعى بأن أحوال المتلقين متفاوته. فمنهم نوع (خالى الذهن) من الحكم المتضمن فى القول الخبرى، وهذا يناسبه أن يكون القول مجردا عن أى تأكيد، ونوع (عالم) بالحكم مع شىء من الشك، وهو بسبب ذلك يتشوق إلى الوقوف على الحقيقة. وهذا يناسبه أن يكون القول مؤكدًا

(١) السابق ص ٩ وكتاب فى البلاغة العربية: علم البيان للدكتور حسن البندارى ـ ط. الأنجلو المصرية ٨٨ ص ١٠ ـــ ١٢.

لإزالة الشك وتمكين الحكم من نفسه. ونوع ثالث هو أنه (على علم ومعرفة تامة بمضمون القول) ولكنه منكر مكابر جاحد له. وتدعو هذه الحالة إلى ضرورة تقديم القول بمؤكد أو أكثر، تبعًا لدرجة الإنكار والعناد.

ويهتم علم المعانى بتنويع الأداء اللغوى تبعًا لمستويات المتلقين وتباين استعداداتهم. واختلاف ثقافاتهم، إذ ينبغى للأدب أن يوظف لأدبه لغة تلائم العامة، وأن يوظف للمثقف لغة تناسب ثقافته، وهكذا بالنسبة لمن يقفون فى منزلة بين العامة والمثقفين، فبلاغة المعنى رهن الملاءمة بين التعبير ومقامه.

وقد نص على ضرورة تحقيق (بلاغة المعنى) بهذا المفهوم أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى براويته التى تضمنت قولا لبشار بن برد عندما سأله أحمد بن جلاد قائلا: «إنك لتجىء بالشىء الهجين (المعيب) المتفاوت، وتقول شعرا يثير النقع (الغبار) وتخلع به القلوب» وأتى له بمثالين على ذلك من شعره:

أولهما هو :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية ... هتكنا حجاب الشمس أو نمطر الدما

وثانيهما هو :

ربابة ربة البيت ... تصب الخل فى الزيت

لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت

وقد برر بشار هذا التفاوت فى الأداء الشعرى تبريرًا يتوافق مع مفهوم بلاغة المعنى المتمثلة فى (ملاءمة التعبير أو الكلام للحال أو المقام) ـ قال: «لكل وجه وموضع، فالقول الأول جد، وهذا (أى الثانى) قلته فى ربابة جاريتى، وأنا آكل البيض من السوق، وربابة لها عشر دجاجات وديك، فهى تجمع لى البيض، فهذا عندها من قولى أحسن من قول امرئ القيس:

(قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ـــ عندك»(١)

وفى ضوء فكرة ضرورة تنويع الأداء اللغوى، أمكن للأدب أن «يوجز» كلامه وأن «يطنبه»، فإذا كان المتلقى ذكيا ناسبه «الإيجاز» اعتمادًا على سرعة فهمه وقدرته على استيعاب ما تحمله الألفاظ القليلة من المعانى الكثيرة»(٢).

وإذا كان غبيا أو مكابرًا أو معاندا ـ عمد الأديب إلى «الإطناب» أو التطويل بهدف «تمكين هذا المخاطب من الفهم، ولتنزيله منزلة قصار العقول إذا كان قد تجاوز الحد فى المكابرة والعناد»(٣).

وفيما يتعلق بالأمر الثانى وهو «الكشف عن المعانى الخاصة أو الإضافية المتضمنة فى التعبير بمساعدة القرائن والأدلة» ـ فإن التعبيره المعين قد وضع فى الأصل ليدل على معنى يسمى: المعنى الحقيقى أو الأصلى، وقد يفيد

(١) الأغانى : ٣: ٦٠.

(٢) د / عبد العزيز عتيق ـــ علم المعانى: دار النهضة العربية ـــ بيروت ١٩٧٤ ص٣٩.

(٣) السابق : ص ٣٩.

هذا التعبير معنى جديدا يفرضه السياق أو تدل الحال عليه.

ولتوضيح ذلك ننظر فى النماذج الخبرية الآتية:

١ ــ «اشتهر عمر بن الخطاب بالعدل» (خبر استهدف متلقيا جاهلاً بمضمونه).

هذا النموذج خبر، الغرض منه: إفادة المتلقى بأمر يجهله عن عمر، فالمعنى المراد هو: إفادته الحكم الذى تضمنه الخبر. وهو اشتهار عمر بالعدل.

٢ ــ لقد حصلت على تقدير ممتاز فى مادة البلاغة (خبر استهدف متلقيا عالمًا به).

هذا النموذج خبر. الغرض منه: إخبار المتكلم مخاطبه بأمر يعرفه، أى أن المتكلم لا يقصد إفادة المتلقى بمضمون هذا الخبر وهو تفوقه فى مادة البلاغة؛ لأن هذا التفوق معلوم للمخاطب قبل أن يعلمه المتكلم، فالمتلقى (المخاطب) فى هذه الحالة لم يستفد علما بالخبر نفسه، وإنما استفاد أن المتكلم عالم به.

ويتبين من ذلك «أن الغرض من إلقاء الخبر فى أصل الوضع أحد أمرين، إما إفادة المخاطب بالحكم، وإما إفادته أن المتكلم عالم به»(١).

ولكن الخبر قد يخرج عن هذين الآمرين ليؤدى معنى جديدًا يفهم من

(١) السابق : ص ٤١.

السياق العام للتعبير، على نحو ما يتبين فى النموذجين الآتيين:

١ ــ قال أبو العلاء المعرى:

وأطربنى الشاب غداة ولى فليت سنينه صوت يستعاد

٢ ــ قال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام:

﴿رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبًا﴾.

فالشاعر فى النموذج الأول، وزكريا فى النموذج الثانى، لا يقصدان إفادة المتلقى (المخاطب) بالحكم، ولا إفادته أن المتكلم عالم به، وبعبارة أخرى، لا يقصد كل منهما فائدة الخبر ولا لازم الفائدة. وإنما قصدا معنى آخر يؤخذ من السياق. فأبو العلاء يقصد إظهار (التحسر والتألم) لمضى الشباب، وزكريا يهدف إلى إظهار (الضعف ونفاد قوته).

وعلى هذا تجرى ألوان أو فنون علم المعانى أو أساليبه وهى (الأمر والنهى والاستفهام والتمنى والنداء...) فقد يخرج كل أسلوب من هذه الأساليب عن معناه الأصلى لغرض بلاغى بديع، إراده المتكلم حين خرج عن الأمر الذى يقتضيه ظاهر التعبير، مثل «الخروج بالأمر عن أصل وضعه مثلا لإ فادة التعجيز، وبالخروج بالنهى عن أصل وضعه لإفادة الدعاء، وبالخروج بالاستفهام لإفادة التعجب، وهكذا على نحو ما سنبين.

ويتضح مما سبق أثر علم المعانى فى بلاغة التعبير، وهذا الأثر يمثل دعوة للمتلقى ليتعامل مع أساليب هذا العلم المتعددة المختلفة، وهذا التعامل

يحقق فائدتين:

الأولى: تتعلق «بعملية الإبداع لديه» حيث تؤثر هذه الأساليب وغيرها ـ فى أسلوبه فترقى به وتنميه.

والثانية: تتصل بقدرته على الحكم من جهة إنها تعد «مخزونا» ثقافيا يجعله قادرا على التمييز بين الجيد والردئ. وهذا التمييز خاصية أساسية فى المتذوق.

ومن الثابت أن النقاد والبلاغيين قبل عصر السكاكى، قد تناولوا بالبحث بدرجات متفاوته عددا من موضوعات (علم المعانى). مثل عبد القاهر الجرجانى فى كتابه دلائل الإعجاز، والزمخشرى فى الكشاف، وابن الأثير المثل السائر، وغيرهم.

ولكن ميل الاتجاه الفكرى العام فى القرن السابع الهجرى ـ إلى (التقعيد والتبويب) ـ قد جعل السكاكى (٦٢٦هـ) ومعاصريه وتلاميذه يحصرون مباحث هذا العلم ويحددونها، ويعرفون هذه المباحث استنادا إلى شواهد من القرآن والشعر والكلام البليغ.

وقد التقوا جميعا على تقسيم الكلام أو التركيب إلى قسمين هما: «الخبر والإنشاء» إذ الكلام كما قالوا: إما خبر أو إنشاء، وإن اختلفوا فى التسمية؛ فالسكاكى يستعمل صيغتى (قانون الخبر)، و(قانون الطلب) ويدرج تحت القانون الأول وهو الخبر ستة مباحث، أطلق على أربعة منها: وصف (فنون) وأطلق على اثنين وصف (فصل) على النحو التالى:

الفن الأول: اعتبارات الإسناد الخبرى. الفن الثانى اعتبارات المسند إليه. الفن الثالث: اعتبارات المسند فصل الفعل وما يتعلق به من اعتبارات. الفن الرابع: اعتبارات الفصل والوصل والإيجاز والإطناب. فصل: بيان القصر.

وتناول تحت القانون الثانى وهو الطلب خمسة أبواب:

الباب الأول: فى التمنى، والثانى: فى الاستفهام، والثالث: فى الأمر. والرابع: فى النهى. والخامس: فى النداء(١).

ولكن الخطيب القزوينى (٧٣٩هـ) رأى أن يحصر مباحث هذا العلم فى ثمانية أبواب:

أولها : أحوال الإسناد الخبرى.

ثانيها : أحوال المسند إليه.

ثالثها : أحوال المسند.

رابعها : أحوال متعلقات الفعل.

خامسها: القصر.

سادسها : الإنشاء.

(١) مفتاح العلوم ـ الطبعة الأول ١٩٣٧ ـ مصطفى البابى الحلبى ص ٧٧، وما بعدها

سابعها الفصل الوصل

ثامنها الإيجاز والاطناب والمساواة(١).

وقد اعتمد سعد الدين التفتازانى (ـ٧٩١) فى كتابه مختصر المعانى على هذا الحصر اعتمادا تاما دون أى تغيير (٢).

وإذا كان السكاكى لم يذكر سبب تقسيمه أو حصر مباحث علم المعانى على النحو المتقدم، فإن كلا من الخطيب القزوينى والتفتازانى قد حرص على تعليل هذا الحصر بعبارات متقاربة. يقول الخطيب: «ووجه الحصر: أن الكلام إما خبر أو إنشاء لأنه (أى الكلام) أما أن يكون لنسبته خارج تطابقه (هذه النسبة) أولا تطابقه، أو لا يكون لها (لهذه النسبة) خارج. الأول: الخبر. والثانى: الإنشاء. ثم الخبر: لابد له من إسناد، ومسند إليه، ومسند. وأحوال هذه الثلاثة هى الأبواب الثلاثة الأولى. ثم المسند قد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو متصلا به، أو فى معناه (كاسم الفاعل ونحوه). وهذا هو الباب الرابع. ثم الإسناد والتعلق كل واحد منهما يكون إما بقصر أو بغير قصر. وهذا هو الباب الخامس. والإنشاء هو الباب السادس. ثم الجملة إذا قرنت بأخرى فتكون الثانية إما معطوفة على الأولى (أى موصولة بها) وغير معطوفة (أى مفصولة عنها)، وهذا هو الباب السابع.

(١) الإيضاح فى علوم البلاغة : تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى. دار الكتاب اللبنانى ص٨٥.

(٢) شرح السعد مختصر المعانى فى علوم البلاغة ط صبيح ـ القاهرة ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ص ٧١ .

ولفظ الكلام البليغ إما زائد على أصل المراد لفائدة، أو غير زائد عليه. وهذا هو الباب الثامن»(١).

ومن البين أن هذا التقسيم يتناول نوعى الكلام وهما الخبر والإنشاء. ويفصل ما يتعلق بالخبر من أحوال، وما يتصل به من متعلقات. والأمران: الأحوال والتعلق، يشكلان أغلب البحوث. وظهر من هذا التقسيم أيضا أنه عرض للإنشاء من غير تفصيل أو إشارة إلى محتواه. وأنه قد تناول الجملة فصلا ووصلا أو معطوفة أو غير معطوفة. كما أنه عمد إلى تناول التركيب من حيث الزيادة فى المعنى ومن حيث عدمها.

(١) الإيضاح ص ٨٥. ويرى د/ تمام حسان فى الأصول ص ٣٤٨ ــ ٣٥٠ أن «القزوينى يضع مباحث علم المعانى فى نطاق إسناد الجملة وعلاقاتها الداخلية والخارجية، وهو كلام لا يبعد بالمعانى عن النحو غير أن الفارق بينهما لا يقتصر على اختلافهما فى التحليل والتركيب وإنما يمتد كذلك إلى منطق كل منهما وغايته. الأصول، دراسة ابستمولوجية. الهيئة المصرية ١٩٨٧

الفصل الأول

بلاغة الأسلوب الخبري

الفصـــل الأول

بلاغة الأسلوب الخبرى

مفهوم الأسلوب الخبرى:

الخبر هو الكلام يستفيد منه المتلقى معلومات لم يكن يعرفها من قبل أو عند إلقائه إليه. ويرى البلاغيون أنه تعبير يلقى أو يقدم إلى المخاطب يشتمل على معنى قابل للتصديق والتكذيب. أو هو الذى «يحتمل الصدق والكذب لذاته»(١)، وقد تحدد هذا المفهوم بكلمة (لذاته) لسبب هو أن يعطى الفرصة ليدخل فيه نوعان من الأخبار.

النوع الأول: هو الأخبار الواجبة الصدق أو المقطوع بصحتها ولا يحتمل الكذب على جهة التأكيد، وهو: أخبار الله تعالى التى يخبر بها البشر، وأخبار رسله عليهم السلام، والبديهيات المنظورة مثل (السماء فوقنا)، و(الأرض تحتنا)، و(ماء البحر ملح)، و(ماء النهر عذب)، و(تشرق الشمس صباحًا)، و(يطلع القمر ليلا).

(١) مصطفى المراغى تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها من ٤٢.

والنوع الثانى: هو الأخبار الواجبة الكذب،أو المقطوع بخطئها، وهى: الأخبار المناقضة للبديهيات المعلومة بالضرورة. مثل الشمس تشرق ليلاً - الجزء أكبر من الكل - الأرض فوقنا.. وكذلك الأخبار المتضمنة للحقائق المعكوسة مثل: العلم ضار. الغدر فضيلة. الصدق رزيلة.

ومن البين - كما رأى البلاغيون - أن «احتمال الخبر للصدق والكذب» - إنما يكون بمراعاة مفهوم الكلام الخبرى دون النظر إلى المخبر أو الواقع. بمعنى أننا إذا نظرنا إلى ذات الأخبار الواجبة الصدق، والأخبار الواجبة الكذب - من غير نظر إلى قائلها أو إلى كونها مرتبطة بالواقع - كانت محتملة للصدق والكذب شأنها فى ذلك شأن سائر الأخبار(١).

وقد حلل البلاغيون «صدق الخبر» الملقى إلى المخاطب. وخلاصة رأى الجمهور فيه فى ضوء عبارات المراغى - هى أن أى خبر يمتلك نسبتين، الأولى: تفهم من الخبر ويدل عليها الكلام. وهى «النسبة الكلامية» والثانية: تعرف من الخارج والواقع بقطع النظر عن الخبر - وهى «النسبة الخارجية». فإن طابقت النسبة الكلامية النسبة الخارجية (فى الإيجاب أو فى النفى) - كان الكلام صدقا، وأن لم تطابق النسبة الكلامية النسبة الخارجية - كان الكلام كذبا مثل قولنا: (الشمس طالعة) وكانت هى فى الواقع والخارج كذلك أى طالعة - فى هذه الحالة سمى الكلام صدقا، وأن

(١) السابق ص ٤٢، ود / عبد العزيز عتيق : علم المعانى ص ٤٩.

لم تكن الشمس طالعة، سمى كذبا. وعلى هذا فإن «صدق الخبر» هو مطابقته الواقع والخارج، و«كذب الخبر» هو عدم مطابقته الواقع والخارج»(١).

وإذا كان رأى الجمهور من البلاغيين ـ كما سبق ـ قد استند فى تحديد صدق الخبر وكذبه إلى مطابقة الواقع وعدمها ـ فإن إبراهيم النظام (أستاذ الجاحظ) ومن تابعوه ـ قد اقتصروا على مطابقته «الاعتقاد» ذلك أن النظام قال: «صدق الخبر هو مطابقته لاعتقاد المخبر، ولو كان لذلك الاعتقاد خطأ غير مطابق للواقع. وكذب الخبر هو عدم مطابقته لاعتقاد المخبر ولو كان صوابًا فى الواقع ونفس الأمر. فقول القائل: (السماء تحتنا) إذا كان معتقدا ذلك ـ صدق . وقوله (السماء فوقنا) إذا كان غير معتقد ذلك ـ كذب(٢).

٢ـ أغـراض الأسلـوب الخبـرى:

عرض البلاغيون لأغراض الخبر المتضمنة فى الجمل الخبرية التى يلقيها الأديب أو الناثر. وقد كان محور كلامهم فى هذه الأغراض هو «اتجاه قصد المخبر». يقول سعد الدين التفتازانى: «لا شك أن قصد المخبر (هو) إفادة المخاطب أحد أمرين، أولهما: الحكم، وثانيهما: كون المخبر عالما بالحكم.

(١) تاريخ علوم البلاغة : ٤٢.

(٢) شرح السعد ١/ ٧٦.

وذلك بحسب اختلاف حال المخاطب، فإن المخاطب قد لا يكون عالمًا بمضمون الكلام، وقد يكون عالمًا به. ولكنه غير عالم بأن المتكلم يعدمه أيضًا... ويسمى الأول ـ أى الحكم الذى يقصد بالخبر إفادته ـ (فائدة الخبر)، ويسمى الثانى أى كون المخبر عالما به (لازم فائدة الخبر)»(١).

ويدل هذا النص على أن للخبر غرضين فى الأصل. هما: «فائدة الخبر»، و«لازم الفائدة» ففائدة الخبر تعنى: أن يفيد الأديب أو المتكلم بجملته الخبرية ـ المخاطب أو المتلقى ـ حكما معينا تضمنته هذه الجملة، على أساس أنه جاهل بهذا الحكم أو بمضمونه، ومن الضرورى إعلامه وتعريفه به. مثل: قولنا لمن لم يعرف بدء تأسيس الدولة الإسلامية: أسس الرسول (ﷺ) الدولة الإسلامية بعد الهجرة إلى المدينة. ولمن لم يعرف الجيش الذى هزم المغول فى عين جالوت هزم الجيش المصرى المغول فى معركة عين جالوت. وهكذا.. وإما لازم الفائدة فهو أن يفيد المتكلم أو الأديب ـ بجملته الخبرية ـ المخاطب المتلقى ـ أن المتكلم الأديب عالم بمضمون هذا الحكم الذى احتوت عليه الجملة . مثل: (إنك قادر على العطاء مادمت تشعر بحاجة الآخرين إليك). و(أنت نصير المظلومين).

هذان الغرضان أو القصدان هما الأصل عند الإدلاء بالجمل الخبرية. ولكن قد يخرج الخبر عن هذين الغرضين، لينتظم أغراضا ومقاصد أخرى

(١) شرح السعد (مختصر المعانى) ٧٨ ــ ٧٩ .

بلاغية، وصفه البلاغيون حينئذ بوصف «خروج الخبر على مقتضى الظاهر». حيث يمكن للمتذوق أن يقف على حالتى «الأديب ـ والمتلقى» النفسية، وهو يفحص العبارة الأدبية.

وفى ضوء وقفات البلاغيين القدامى على «العبارة الأدبية» يمكن أن يستخلص المتذوق من التعبر الأدبى طائفة من الأغراض البلاغية التى تفهم من سياقه. ومن هذه الأغراض:

١ ـ إظهار الأسف والحسرة والإحساس بالمرارة مثل قوله تعالى حكاية عن مريم:

(رب إنى وضعتها أنثى، وليس الذكر كالأنثى).

وقول الشاعر:

ذهب الصبا فما له من عودة   وأتى المشيب فأين منه المهرب؟

وقول الشاعر:

أصيبت بسادة كانوا عيونا

بهم نسقى إذا انقطع الغمام

٢ ـ إبداء الإحساس بالضعف: مثل قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام:

(رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا)

وقول الشاعر :

إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقول الشاعر:

قد كنت عدتي التي أسطو بها

ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي

وكقول حميد بن ثور في الكبر:

أرى بصري قد رابني بعد صحة

وحسبك داء أن تصح وتسلما

٣ - إبداء الاسترحام والاستعطاف. مثل قول أبي العتاهية يناشد الرشيد من سجنه:

إنما أنت رحمة وسلامه

زادك الله غبطة وكرامه

قيل لي قد رضيت عني فمن لي

أن أرى على رضاك علامه

وقول المتنبي يستعطف من حبسه:

دعوتك عند انقطاع الرجاء

والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلاء

وأوهن رجلي ثقل الحديد

٤ ــ وقد يفهم من سياق التعبير: الفخر والشجاعة والحمية. ومن ذلك قول عنترة:

أثني علي بما علمت فإنني

سمح مخالقتي إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل

مر مذاقته كطعم العلقم

وقوله:

وأنا المنية في المواطن كلها

والطعن مني سابق الآجال

وقول عمرو بن كلثوم: (١).

ونشرب إن وردنا الماء صفوا

ويشرب غيرنا كدرا وطينا

إذا بلغ الفطام لنا رضيع

تخر له الجبابر ساجدينا

(١) الزوزني شرح المعلقات السبع - دار الجيل - بيروت ١٩٧٢.

٥ ــ وقد يفهم من سياقه إظهار الحلم والقدرة على التحمل. مثل قول الشريف الرضى:

ملكت بحلمى فرصة ما استرقها
من الدهر مفتول الذراعين أغلب

فإن تك سنى ما تطاول باعها
فلى من وراء المجد قلب مذرب

فحسبى أنى من الأعادى مبغض
وأنى إلى غر المعالى محبب

يرون احتمالى غصة ويزيدهم
لواعج ضغن أننى لست أغضب

٦ ــ وقد يفهم المتذوق من سياق التعبير الخبرى معنى التنشيط وتحريك الهمة لنيل مايلزم تحصيله. مثل قوله تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾، ومثل: «قيمة كل امرىء ما يحسنه»، و(من جد وجد ومن زرع حصد)، ومثل قول الشاعر أحمد شوقى(١).

وما نيل المطالب بالتمنى
ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

(١) ديوانه ١/ ٧١.

ومـا استعصـى علـى قـوم منـال

إذا الإقـدام كـان لهـم ركابـا

٧ ـ وقد يفهم من السياق معنى الرثاء والتعزية فى فقيد عزيز. مثل قول أوس بن حجر(١).

أيتهـا النفـس أجملـى جزعـا

إن الـذي تحذريـن قـد وقعـا

وقول أبى العلاء المعرى يخاطب الدهر:

أرى ذوى الفضـل وأضـدادهـم

يجمعهـم سيلك فـى مـده

لـو عـرف الإنسـان مقـداره

لـم يفخـر المولـى على عبـده

وقول جرير يرثى زوجته خالدة بن سعد(٢).

لـولا الحيـاء لهـاجنى استعبـار

ولـزرت قبـرك والحبيـب يـزار

ولهـت قلبـى إذ علتنـى كبـرة

وذوو التمائـم مـن بنيـك صغـار

(١) ديوانه ١/ ٧١.

(١) ديوانه بشرح محمد بن حبيب. تحقيق: الدكتور نعمان محمد أمين طه، دار المعارف ط الثالثة ١٩٨٦جـ٢/ ٣٧. ١٩٨٤، ص ٣١٥.

٨ ـــ وقد يفهم منه معنى المدح: مثل قول كعب بن زهير:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

وقول عبيد الله بن قيس الرقيات(١).

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء

وقول الشاعر الحطيئة (٢):

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى

وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

٩ ـــ وقد يفهم منه التوبيخ والتهكم مثل قولك لمن لا يهتم بالنظافة: (النظافة من الإيمان) ولمن لا يسأل عنك: (أنت تغرقنى بالسؤال)، ولمن يخون العهد (أنت وفى جدا).

وقد رصد البلاغيون معانى أخرى تفهم من سياق التعبير مثل: الشكوى، والتحذير، والهجاء، والنصح والإرشاد، وإظهار الفرح، وغير ذلك.

---

(١) ديوانه : ص ٥٣.

(٢) ديوانه : ص ٤١.

فمن البين أن النصوص الخبرية قد وظفت لأهداف عديدة أخرجت النص الخبرى عن أصل وضعه وهو - كما سبق - إخبار المتلقى بأمر يجهله، أو إخباره بأن المتكلم عارف بما يعرفه.

٣ - أنـــواع الأسلـــوب الخبـــرى:

يرى البلاغيون أن الأديب قد ينوع ويعدد فى أساليب التعبير الخبرى، أو طريقة أدائه. وذلك إذا راعى حالة المتلقى لهذا التعبير. وقد أدرك ذلك علماء القرن الثالث الهجرى، فلفتوا أنظار العامة، بل أنظار عدد من الخاصة إلى ضرورة مراعاة حال المخاطب عند إلقاء الخبر إليه على نحو ما تبين فى نظرات المبرد. إذ جاء المتفلسف الكندى إلى أبى العباس وقال له: أنى لأجد فى كلام العرب حشوا، فقال المبرد: فى أى موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: (عبد الله قائم)، ثم يقولون (إن عبد الله قائم) ثم يقولون(إن عبد الله لقائم)، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس المبرد بل أن المعانى مختلفة لاختلاف الألفاظ، فالأول: أخبار عن قيامه، والثانى: جواب عن سؤال سائل، والثالث: جواب عن إنكار منكر قيامه. فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى. فما أحار المتفلسف جوابا(١).

ويتبين من النص أن المبرد ينبه إلى ضرورة مراعاة حال المخاطب أو المتلقى للتعبير الخبرى، لأنه أمام المضمون الخبرى - واحد من ثلاثة: فقد

(١) دلائل الأعجاز : تحقيق محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجى ١٩٨٤ ص ٣١٥.

يكون خالى الذهن تماما من المضمون فلا يعرف عنه شيئًا، وقد يكون بين المعرفة والجهل به، وقد يكون منكراً له. وعلى هذا عمد البلاغيون إلى تنويع الخبر إلى الأنواع الآتية :

النــوع الأول : هو «الخبر الإبتدائى»وقصدوا به أن المخاطب، أو المتلقى إذا كان خالى الذهن من حكم أو مضمون التعبير الخبرى - الذى يوجهه إليه المتكلم أو المخبر - فإن هذه الحالة تتطلب أن يكون التعبير مجرداً عن التأكيد أو التقوية. مثل قولنا: (أشعة الشمس مفيدة للجسم)، وغير ذلك من الأمثلة المشابهة.

النــوع الثانى: هو «الخبر الطلبى» وأرادوا به : أن المخاطب المتلقى) إذا كان مترددا فى قبول حكم أو مضمون التعبير، أو مترددا فى ثبوته أو عدمه، حيث لم يترجح عنده بثوته أو نفيه. فإن هذه الحالة تقتضى تقوية التعبير وتأكيده فنقول: (إن أشعة الشمس مفيدة للجسم) وهو حينئذ خبر طلبى، لأن المخاطب فى حالة من التردد والشك فى مضمون هذا الخبر، ويرغب فى بلوغ «يقين» يحل محل الشك.

النــوع الثالث : هو «الخبر الإنكارى» وعنوا به أن المخاطب(المتلقى) إذا كان منكرا لحكم أو مضمون التعبير الخبرى - فإن هذه الحالة تقضى بتعزيز التعبير بمؤكد أو أكثر تبعًا لدرجة إنكاره قوة وضعفا مثل (أن أشعة الشمس لمفيدة للجسم)(١).

(١) تاريخ علوم البلاغة ص ٤٩.

وقد عالج البلاغيون هذه الأنواع الثلاثة تحت مصطلح (الخبر الجارى على مقتضى الظاهر) يقول سعد الدين التفتازانى فى ذلك: «ويسمى إخراج الكلام على الوجوه المذكورة، وهى الخلو من التأكيد (فى الأول) ــ والتقوية بمؤكد استحسانًا (فى الثانى) ووجوب التأكيد بحسب الإنكار (فى الثالث) - إخراجا للكلام على مقتضى الظاهر. ومقتضى الظاهر هو مقتضى الحال، لأن معناه مقتضى ظاهر الحال»(١).

وقد يلاحظ المتكلم أو الأديب المخبر ــ اعتبارات أخرى خفية، فيخرج كلامه على اعتبارها فى عدة صور:

الصــورة الأولــى : تنزيل خالى الذهن منزلة المتردد. وفى ذلك يقول سعد الدين التفتازانى: «وكثيراً ما يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، فيجعل غير السائل ــ وهو خالى الذهن ــ كالسائل، وذلك إذا قدم إليه أى إلى غير السائل - ما يلوح له بالخبر ويومئ به إليه. فحينئذ يتطلع غير السائل إلى الخبر وينظر إليه ويستشرفه استشراف الطالب المتردد. وتأمل فى قوله تعالى: ﴿ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا﴾ - ومعناه: ولا تدعنى يا نوح فى شأن قومك، واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك، فهذا كلام يلوح بالخبر تلويحًا ما ويشعر بأنه قد حق عليهم العذاب، فصار المقام - بعد هذا التلويح - مقام أن يتردد المخاطب فى أنهم: هل صاروا محكوما عليهم بالإغراق أم لا؟ فقيل (إنهم مغرقون) مؤكدًا بإن، أى محكوم عليهم بالإغراق»(٢).

---

(١) شرح السعد ١/ ٨١ .

(٢) السابق : ٨٢.

الصورة الثانية : تنزيل غير المنكر (وهو يشمل خالى الذهن والمتردد فى الحكم) منزلة المنكر. وذلك إذا لاح عليه ـ أى على غير المنكر ـ شىء من أمارات الإنكار. نحو قول حجل بن نضلة:

جـــاء شقيـــق عارضـــا رمحـــه

إن بنـــى عمـــك فيهـــم رمـــاح

فهو لا ينكر أن فى بنى عمه رماحا، لكن مجيئه واضعا الرمح على العرض من غير التفات وتهيؤ ـ أمارة أنه يعتقد أن لا رمح فيهم، بل كلهم عزل لا سلاح معهم، فنزل منزلة المنكر، وخوطب خطاب التفات بقوله: «إن بنى عمك فيهم رماح، مؤكدا بإن. وفى البيت تهكم واستهزاء، كأنه يرميه بأن فيه من الضعف والجبن بحيث لو علم أن فيهم رماحا لما التفت لفت الكفاح، ولم تقو يده على حمل الرماح»(١).

الصـورة الثالثـة : تنزيل المنكر كغير المنكر. أى يجعل القائل المنكر فى منزلة خالى الذهن، إذا كان معه، أى مع المنكر شىء من الدلائل والشواهد، وكان المنكر بحيث لو تأمل ذلك الشىء ارتدع عن إنكاره.(٢). والمراد بكون (الدلائل والشواهد مع المنكر) أن يكون معلوما ومشاهدا عنده. وعلى هذا لا تؤكد الصيغة للمنكر، فنقول مثلاً: (الإسلام حق) من غير

(١) السابق ص ٨٢. شقيق: اسم رجل . عارضا رمحه : واضعا الرمح على العرض.
(٢) السابق ص ٨٢ ، ٨٣ .

تأكيد «لأن مع ذلك المنكر دلائل دالة على حقية الإسلام»(١) وعلى هذا جاء قول الله تعالى لمنكرى وحدانيته: ﴿وإلهكم إله واحد﴾. وقياسا عليه يقال لمنكر أهمية الثقافة مثلاً: (الثقافة ضرورية لنهضة الإنسان).

الصورة الرابعة: تنزيل المتردد منزلة خالى الذهن. وذلك إذا لم يكن هناك داع لتردده، فلا تؤكد له الخبر بأى مؤكد. نقول للطالب المتفوق. لكنه برغم ذلك يترقب بقلق نتيجة الامتحان (أنت ناجح) أى ستنجح.

الصورة الخامسة: تنزيل المتردد منزلة المنكر. وذلك إذا كانت درجة تردده عاليه، فنؤكد له الخبر بأكثر من مؤكد. نقول للطالب الذى لم يرض عن أجابته وتوقع أنها لا تحقق له النجاح. نقول له وقد نجح (إنك قد نجحت).

الصورة السادسة: تنزيل المنكر منزلة المتردد إذا كانت درجة إنكاره عاليه، وعلى هذا يقلل القائل التأكيد. كقوله تعالى: ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ وقولنا للمنكرة حب زوجها (إن زوجك يحبك) وقولنا للمنكر نفع الاجتهاد (إن الاجتهاد مفيد).

الصورة السابعة: تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة الجاهل لعدم عمله بعلمه. فقد ينزل المخاطب أو المتلقى ـ العالم بفائدة الخبر ومضمونه ولازم الفائدة ـ منزلة الجاهل، فيلقى إليه الخبر، وإن كان عالمًا بالفائدتين، وذلك لعدم جريه على موجب العلم، فإن من لا يجرى على مقتضى علمه هو والجاهل سواء، مثل قولنا لتارك الصلاة (الصلاة واجبة)(٢).

---

(١) السابق : ٨٣.
(١) السابق ص ٧٩.

٤ ـ مؤكدات الأسلوب الخبرى:

قد يحتاج المضمون أو الحكم الناشىء عن «التركيب الخبرى» إلى وسيلة تقويه وتدعمه، وذلك فى حالتين تختصان بالمتلقى، فإذا كانت نفس المتلقى عند إخباره بهذا التركيب مترددة فى قبوله والتسليم به «حسن» أن يؤكد التركيب لازالة التردد والشك، وأما إذا كانت نفسه منكرة له ورافضة على جهة القطع «وجب» أن يؤكد التركيب فى مقابل الرفض والانكار. وثمة مؤكدات عديدة للتركيب الخبرى.

المؤكـــد الأول: الجملة الإسمية أو إسمية الجملة عند أرادة التأكيد بها. وهى تكون مؤكدة إذا اشتمل التركيب على مؤكدها. فإذا لم يوجد هذا المؤكد، لم تعتبر الجملة مؤكدا. ومعنى هذا أن «الجملة الإسمية» هنا ليست مؤكدة على جهة الاستقلال، بل على جهة التبعية. ومثال ذلك قوله تعالى حكاية عن رسل عيسى عليه السلام حين أرسلهم إلى أهل انطاكية قال: ﴿واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا أنا إليكم مرسلون. قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا، وما أنزل الرحمن من شىء، أن أنتم إلا تكذبون، قالوا: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون﴾.

فقولهم :«إنا إليكم مرسلون» هو نتيجة تكذيب الرسل فى المرة الأولى، وفى هذا القول ـ كما ترى ـ مؤكدان هما (إن) و(إسمية الجملة) وقولهم

«ربنا يعلم إنا اليكم لمرسلون» نتيجة تكذيب الرسل فى المرة الثانية. وفى هذا القول مؤكدات أربع هى (القسم) و(إن) و(اللام) و(إسمية الجملة) - وقد ناسبت هذه المؤكدات حالة انكار المخاطبين العنيفة وشدة رفضهم.

ويرى الباحثون أن امتلاك الجملة الإسمية لخاصية التوكيد راجع إلى أنها «تفيد بأصل وضعها ثبوت شىء لشىء، وتفيد بالقرائن الدوام والاستمرار، وهاتان الإفادتان مشروطتان بأن يكون خبرها مفردا أو جملة اسمية، فإذا كان خبرها جملة فعلية أفادت التجدد، وهذا يعنى أن الجملة الإسمية فى جميع حالاتها أفضل من الجملة الفعلية التى تقتصر بأصل وضعها على إفادة حدوث شىء ما فى زمن معين»(١).

المؤكد الثانى: هو (إن) وهى حرف ناسخ، وظيفتها عند دخولها على الجملة الاسمية هى أنها: تنصب المبتدأ وترفع الخبر مثل (إن القراءة المتنوعة مفيدة).

وهذا المؤكد (إن) له عدة فوائد:

الفائدة الأولى هى إنها تؤكد مضمون الجملة. فهذا المثال (القراءة المتنوعة مفيدة) ينوب عن تكرير الجملة مرتين، إذ هو بدل من قولك: «القراءة المتنوعة مفيدة، القراءة المتنوعة مفيدة» فنكون بذلك قد حققنا

(١) د. / عبده عبد العزيز قلقيلة . البلاغية الاصطلاحية دار الفكر ١٩٨٥، ص١٣٦.

للأسلوب (الإيجاز) الذى هو أحد صفات (بلاغة الأسلوب) وبناء على هذا فإننا يمكن أن نقول: «إن القراءة المتنوعة لمفيدة» حيث يفيد هذا التعبير اختصارا وإيجازا آخر بدلا من تكرير الجملة ثلاث مرات، أى أن دخول اللام على الخبر أفاد الاستغناء عن تكرير الجملة ثلاث مرات، وحينئذ يكون الأسلوب موصوفا بالإيجاز البلاغى.

والفائدة الثانية لـ (إن) هى : تربط الجملة بما قبلها(١). وذلك مثل قول الشاعر:

فغنهـــا وهـــى لك الفـــداء

إن غنـــاء الإبـــل الحـــداء

وقول الشاعر:

بكـــرا صاحبـــى قبـــل الهجيـــر

إن ذاك النجـــاح فـــى التبكيـــر

والفائدة الثالثة هى: تهيئة الفكرة وصلاحيتها لأن تكون مسندا إليه(٢)، وذلك كقول الشاعر:

إن دهـــرا يلـــف شملـــى بسعـــدى

لزمـــان يهـــم بالإحســـان

---

(١) دلائل الإعجاز : ص ٣١٦.
(٢) السابق : ص ٣٢٠.

والفائدة الرابعة: غناؤها أو استغناؤها عن الخبر فى بعض المواضع(١) مثل (إن مالا، وأن ولدا، وإن عددا)، يريدون أن لهم مالا، وأن لهم ولدا، وأن لهم عددا. وعليه قول الأعشى.

إن محـــــلا، وإن مرتحـــــلا

وإن فى السفـــر إذ مضوا مهـــلا

الفائدة الخامسة : الدلالة على أن الظن كان من المتكلم فى الذى كان أنه لا يكون. كقولك للشيء وهو بمرأى ومسمع من المخاطب (أنه كان من الأمر كما ترى)، و(أحسنت إلى فلان ثم جعل جزائى كما ترى)، وعليه قوله تعالى: ﴿رب أنى وضعتها أنثى﴾، ﴿رب أن قومى كذبون﴾(٢).

الفائدة السادسة : هى (أن) لضمير الشأن معها ـ حسنا لا يكون بدونها، نحو: ﴿إنه من يتق ويصبر﴾، و﴿أنه من يعمل سوءا يجز به﴾، و﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾(٣).

المؤكد الثالث: (أما الشرطية بفتح الهمزة وتشديد الميم) وقد عينوا وظيفتها، فذكروا أنها: حرف شرط وتفصيل وتوكيد. ومثلوا لها من

---

(١) السابق : ٣٢١.

(٢) المراغى: علوم البلاغة ص٥٢، وانظر رأى عبد القاهر فى دلائل الاعجاز فى هذا الموضع . ص ٣٢٧.

(٣) انظر علوم البلاغة ص٥٢، ٥٣ للتوسع فى الأمثلة على هذا الموضع.

القرآن، بقوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾.

ومثل قول الشاعر:

ولـــم أر كالمعــــروف أمـــا مذاقـــه

فحلـــو وأمـــا وجهـــه فجميـــل

وقد عينوا فائدتها فى أنها: تمد مضمون الكلام أو التركيب الخبرى بالقوة نقول مثلا (خالد شاعر) فإذا أردت تأكيد مضمون هذا الخبر، أى شاعرية خالد قلت (أما خالد فشاعر).

المؤكد الرابع: لام الابتداء. هذا المؤكد إذا دخل على التركيب الخبرى، أفاد تأكيد مضمونه أو محتواه. وقد تتبع العلماء أساليب العربية، فوجدوا أنها تدخل على عدد من الصيغ. فتدخل على المبتدأ مثل قولنا لشاعر «لأنت أفضل شاعر» وعلى خبر إن مثل (إن الله لغفور تواب)، وعلى المضارع الذى يقع خبرا لأن وذلك لشبهه فى هذه الحالة بالاسم. مثل (إن وعى الفرد بقيمة العمل ليدفع المجتمع إلى التطور) وعلى شبه الجملة مثل (إنك لعلى ثقة بقول المعلم).

المؤكد الخامس: السين ــ ولهذا الحرف وظيفة نحوية وهى أنه يختص بالفعل المضارع ويخلصه للزمن المستقبل. وتتمثل فائدته فى أنه إذا دخل

على (فعل محبوب، أو فعل مكروه) ـ ضمن التركيب الخبرى أفاد أن هذا الفعل واقع حتما، وهذا يؤدى إلى تثبيت محتوى التركيب أو تقوية معناه. فقول الشخص القادر على التنفيذ: (سأرحم هذا الإنسان)، أو (سأعفو عن هذا الإنسان) ـ يفيد أن الرحمة أو العفو واقع لا محالة ـ ما دام صادرا عن القوة القادرة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أولئك سيرحمهم الله﴾ حيث أكدت السين هنا ـ حصول فعل الوعد. كما تؤكد السين فعل الوعيد فى الصيغة الخبرية فى قولنا مثلا: «سيلقى السجين فى الحبس عذاب الانتظار الطويل» ـ وفى قوله تعالى: ﴿تبت يدا أبى لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارا ذات لهب﴾ فالسين فى المثال وفى الآية الكريمة ـ قد أكدت حصول فعل الوعيد وتثبيت مضمونه بأن العذاب كائن وواقع حتما وإن تأخر إلى حين.

المؤكد السادس: ومن الحروف التى تقوى مضمون التركيب الخبرى الحرف (قد) التى تفيد التحقيق. مثل قوله تعالى: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، و﴿وقد أفلح من تذكى﴾، و﴿قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾، و﴿قد جاءكم الحق من ربكم﴾.

ومن البين ـ فى ضوء نظرات البلاغيين ـ أن هذا الحرف قد أفاد فى هذه التراكيب الخبرية تؤكيد مضامينها، من جهة أن «الفلاح» فى الآيات حق وحاصل حتما، وأن «الخيبة» أمر واقع لن يدس، وأن «الحق» قادم علي جهة الحصول المؤكد.

المؤكد السابع : ضمير الفصل: الذى هو ضمير الرفع المنفصل وفائدته هنا مزدوجة، فهو يفصل بين الخبر والصفة، ويقطع الشك ويبدد الحيرة، ففى قولنا مثلا: (محمد الرسول)، و(خالد الشجاع) يحتمل أن يكون (الرسول) خبرا عن محمد. (والشجاع) خبرا عن خالد، وأن يكون (الرسول) صفة، و(الشجاع) صفة أيضًا. فلو حدث فصل بين الاسمين فى هذين المثالين ــ بضمير الفصل (هو) لتعين أن يكون (الرسول) خبرا عن المبتدأ (محمد) وليس صفة له، وأن يكون (الشجاع) خبرا عن المبتدأ (خالد)، وليس صفة له. وعلى هذا فإن ضمير الفصل قد أزال الاحتمال وبدد الغموض والإبهام من هذين التركيبين ومما يماثلهما، وأفاد فى نفس الوقت نوعا من التأكيد.

المؤكد الثامن، القسم. والمراد أن ثمة أدوات هى الأصل فى القسم. وقد صنفها اللغويون فى مجموعتين:

المجموعة الأولى : وصفوها بأنها «حروف تدخل على الأمر المقسم به» وهى (الباء ـ الواو ــ التاء) سواء أكان هذا الأمر اسما ظاهرا مثل (اقسم بالله أنى صادق)، و(والله أنى صادق)، و(بالله أنى صادق)، أم ضميرا مثل (اقسم به). وذكروا أن لكل حرف من هذه الحروف ـ اختصاص، (فالواو) تختص بالدخول علي الاسم الظاهر مثل (والله إنى صادق)، و(لعمرى أنك صادق). ويشاركها هذا الاختصاص (التاء). لكن الاسم الظاهر يجب أن يكون لفظ الجلالة مثل ﴿تالله لأكيدن أصنامكم﴾.

المجموعة الثانية : وصفوها بأنها حروف تدخل على المقسم عليه وهى:(اللام ـ إن ـ ما ـ لا) ويستعملها المخبر أو القائل على حسب الغرض الذى يفيد جواب القسم أو المقسم عليه، أو على حسب نوع المقسم عليه، أو ما يفيده، من حيث الإثبات أو النفى، أو الإيجاب أو السلب. فإذا كان المقسم عليه (جواب القسم) مثبتا، فإن الحرف الذى يناسبه هو (اللام)، و(إن) مثل (والله لعمل شاق من أجل رفعة الإنسان خير من حياة رغدة بلا عمل)، و(إن الكسول لفى تدهور شديد)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفى خسر﴾. وإذا كان المقسم عليه (جواب القسم) منفيا، فإن الحرف الملائم للدخول عليه هو (ما)، و(لا) مثل (والله ما الخدمة العامة مهانة للمواطن)، و(والله لاقصرت فى أداء واجبى نحو طنى).

ونستخلص من هذه الصور للقسم أن القسم نوع من التأكيد لمضمون التركيب الخبرى، لأن فيه إشعارا من جانب المقسم بأن ما يقسم عليه هو أمر مؤكد عنده لاشك فيه، وإلا لما أقسم عليه قاصدا متعمدا، ولهذا عد البلاغيون القسم من مؤكدات الخبر.

المؤكد التاسع: نونا التوكيد: الثقيلة أى المشددة، والخفيفة أى غير المشددة. فكل منهما تؤكد مضمون التركيب الخبرى، وهما يدخلان على المضارع، وعلى الأمر. مثل قوله تعالى ـ وقد اجتمعا هنا ـ حكاية عن امرأة عزيز مصر فى سورة يوسف﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنَنّ وليكونا من الصاغرين﴾.

المؤكد العاشر: «الحروف الزائدة» «التى تدخل على التركيب الخبرى فتمد مضمونه بالتقوية والتأكيد، رغم إشارة الاصطلاح النحوى واللغوى إلى تسميتها بالحروف الزائدة، وهى: إن: المكسورة الهمزة الساكنة النون، وأن : المفتوحة الهمزة الساكنة النون. و(ما) و(لا)، و(من)، و(الباء).

فمثال (إن) المكسورة الهمزة: «ما إن تخليت عن واجبى» والأصل: ما تخليت عن واجبى. فدخول أن قد أكد معنى حرف النفى (ما) وبالتالى: أفادت تأكيدا بعدم تخلى المتكلم عن واجبه على جهة القطع.

ومثال (أن) وهى تزاد فى التركيب لتؤكد مضمونه، وذلك بعد الحرف (لما) بتشديد الميم. مثل قولك (ولما أن سكنت العاصفة سارت السفينة فى سلام)، والمراد (ولما سكنت) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا﴾، والمراد:فلما جاء البشير.

ومثال (ما) وهى تزاد فى التركيب لمجرد التأكيد، أو لتدل على تأكيد ارتباط جملتين معينتين، حيث تقوى مضمون التركيب ومحتواه. مثل قوله تعالى: ﴿فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون﴾. وأصل تركيب (فإما تثقفنهم﴾ فإن ما تثقفنهم فإن حرف شرط يدل على ارتباط جملتين بعضهما ببعض، و(ما) حرف زائد للدلالة على تأكيد هذا الارتباط فى كل حال من الأحوال، ومن ذلك قول البحترى(١).

وإذا مـــا جفيـــت كنـــت حريـــــا

أن أرى غيـــر مصبـــح حيـــث أمســـى

(١) ديوانه : ٢/ ١١٥٤.

ومثاله من شعر البارودى فى وصف بعض مظاهر شيخوخته من ضعف بصره وثقل سمعه، فالشيب والكبر ينالان من قوة الإنسان(١).

لا أرى الشـــىء حين يسنـــح إلا

كخيال كأننـــى فـــى ضبـــاب

وإذا مـا دعيـــت صــرت كأنـــى

أسمع الصــوت مـــن وراء حجـــاب

فـ (ما) زيدت فى التركيبين السابقين لتدل على تأكيد الارتباط بين الجملتين، أى أنها زيدت بعد (إذا) فى المثالين لتأكيد معنى هذا الظرف. ومن ذلك قولك (أنفق فلان جهدا فى غير ما هدف) أى من غير هدف.

والحرف (لا) يزاد بغرض التأكيد أيضا، وهى ملغاة لا تؤثر فى بناء التركيب، وفائدتها فقط فى تأكيد المعنى نحو قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾، أى أقسم، وقوله: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ المراد ليعلم أهل الكتاب.

والحرف (من) يزيدها القائل فى تركيبه المعين، ولتؤدى فائدتها وتظهر فاعليتها حينئذ لو تحقق شرط وهو: أن يتقدمها نفى أو نهى أو استفهام بـ هل. فإذا تقدمها واحد من الثلاثة أفادت التأكيد لعموم الصيغة بعدها. فمن مع ا لنفى نحو قوله تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾، وقوله :﴿ما

(١) د. على الحديدى: محمود سامى البارودى (شاعر النهضة) مكتبة الأنجلو المصرية طبعة ١٩٩٠ ص ٢٩٨.

ترى فى خلق الرحمن من تفاوت﴾، ومن مع النهى نحو قولك (لا تهمل من أداء واجبك)، و(لا تقلل من تغذية عقلك)، ومن مع الاستفهام بهل نحو ﴿هل ترى من فطور﴾، (هل من بطل أنازله)، و(هل من منصف يسمعنى). من هذه يكون الاسم الواقع بعدها إما فاعلا أو مفعولا أو مبتدأ. كما تبين.

والحرف (الباء): تزاد لتؤكيد ما بعدها، ويكثر زيادتها فى الخبر الواقع بعد (ليس وما) النافيتين. وفى هذه الحالة تؤكد نفى ما بعدها. مثل قوله تعالى: ﴿فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر﴾، وقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعلمون﴾.

وقول معن بن أوس:

ولست بماش ما حييت لمنكر

من الأمر لا يمشى لمثله مثلى

فزيادة الباء هنا لتأكيد معنى النفى. أى بتأكيد ما بعدها.

ويوجد فى العربية حرفان أطلق عليهما البلاغيون وصف (التنبيه) وهما (ألا) و(أما). بفتح الهمزة والتخفيف.

فـ (إلا) يزيديها القائل فى التركيب الخبرى لتنبيه المتلقى، وحينئذ تدل على تحقيق ما بعدها. وعلى هذا فهى تأتى لتدل على معنى تأكيد المضمون. مثل قوله تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

و(أما) حرف استفتاح وهى بمنزلة ألا فى دلالتها على تحقيق ما بعدها على سبيل التأكيد . ويكثر مجيئها قبل القسم لتنبه المخاطب على استماع القسم وتحقيق المقسم عليه(١). مثل قول أبى صخر الهذلى:

أمـــا والـــذى أبكـــى والـــذى

أمات وأحيـا والـذى أمـره الأمــــر

لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى

أليفـين منهـــا لا يروعهمـــا فقـــر

* * *

(١) ينظر د./ عبد العزيز عتيق. علم المعانى ص٦٤، البلاغة الاصطلاحية ص٦٠.

الفصل الثاني

بلاغة الأسلوب الإنشائي

الفصل الثانى

بلاغة الأسلوب الإنشائـــى

١ - مفهوم الأسلوب الإنشائى:

جعل البلاغيون - ابتداء من القرن السابع هـ - الإنشاء قسيم الخبر، حيث قالوا: «الكلام خبر أو إنشاء» كما ذكرنا - وقالوا: إن الذى يحتمل التصديق والتكذيب هو الخبر، وإن الذى لا يحتمل التصديق والتكذيب هو الإنشاء. وبعبارة أخرى - فى ضوء ما ذكره السكاكى والخطيب وسعد الدين التفتازانى - إذا وجد للتعبير وجودقبل النطق به، فإن هذا التعبير يسمى خبراً، وإذا لم يوجد للتعبير وجود خارجى قبل النطق به فإنه يسمى إنشاء. فقول المتنبى:

أنـا الـذى نظـر الأعمـى إلـى أدبـى
وأسمعـت كلماتـى مـن بـه صمـم

- يفيد أنه فخور بأدبه الرفيع الذى يؤثر فى الناس جميعًا، حتى الأعمى فينظر إلى أدبه ويراه، والأصم فيصغى إلى بيانه ويسمعه. ومن البين أن

المتنبى لم يعتز بشعره هذا الاعتزاز إلا بعد أن نظم قصائد كثيرة عرفها الناس، وسحرتهم. ومعنى هذا أن أدب المتنبى وشعره وكلماته يمتلك «الوجود الخارجى» قبل أن ينظم هذا البيت، وهذا الوجود هو الذى فرز قوله إلى حيز الخبر البلاغى(١).

وأما قول أبى فراس الحمدانى وهو يخاطب حمامة تهدل على شجرة أمام سجنه فى بلاد الروم:

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا

تعالى أقاسمك الهموم تعالى

تعالى ترى روحا لدى ضعيفة

تردد فى جسم يعذب بالى

ـ فيفيد أنه ينادى جارته ليبثها همه الشديد، ويطلب منها الاقتراب لتقاسمه الأتراح والأشجان، ويدعوها أن تنزل لترى روحه الضعيفة فى بدنه البالى الحزين. إن «النداء»، و«الأفعال الآمرة» المذكورة، القصد منها أن تستمع الحمامة لندائه ثم تلبى طلبه. ومن البين أن الحمامة قبل النداء لم تكن تدرى من أمره شيئًا، وإذا لبت طلبه فى المجىء أو النزول إليه ـ فإن التلبية تتم بعد الانتهاء من كلامه.

(١) الدكتور بكرى شيخ أمين: البلاغة العربية جـ١ فى ثوبها الجديد دار المعلم للملايين/ بيروت ط ١ سنة ١٩٧٩ ص٧٦. وديوان المتنبى ٣/ ٣٦٧.

وواضح أن ثمة اختلافا بين هذا الأسلوب وأسلوب المتنبي بما يشتمل عليه من خواص النداء والأمر ـ كما أن هذه الخواص لا تملك وجودا خارجيًا قبل النطق بها. فهي توجد بعد التحدث بها وهذا ما فرزها إلى حيز الإنشاء البلاغي.

وفي ضوء ما ذكره البلاغيون، يمكن القول إن المتنبي في بيته صادق في فخره أو كاذب. ولكن بالنسبة لقول أبي فراس لا يمكن تكذيبه في ندائه للحمامة، وفي دعوتها للمجيء. «لأن التصديق والتكذيب لا يكون في كلام ليس له وجود قبل النطق به»(١).

ويعزز هذا قول سعد الدين التفتازاني عند تفريقه بين الخبر والإنشاء: وذلك بقوله: «الكلام إما أن تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ، ويكون اللفظ موجداً لها من غير قصد إلى كونه دالا على نسبة حاصلة في الواقع بين الشيئين وهو (الإنشاء)، أو تكون نسبته بحيث يقصد أن لها نسبة خارجية تطابقه أو لا تطابقه وهو (الخبر)، لأن النسبة المفهومة من الكلام الحاصلة في الذهن لابد أن تكون بين الشيئين»(٢).

ويمكن توضيح الفرق بين هذين المصطلحين من خلال فحص كل من الجملة الخبرية، والجملة الإنشائية: فالجملة الخبرية: يكون قصد المخبر أو الأديب منها هو أن يفيد المتلقي أن مضمونها ومحتواها ـ سواء كان نفيا أو

(١) السابق: ٧٦، ٧٧.

(٢) مختصر المعاني في شرح السعد: ٢/ ٧٢.

إثباتًا ـ له واقع خارج الجملة، يطابق هذا المحتوى أو هذا المضمون. ومن ثم «نصف الكلام بالصدق، أو لا يكون لهذا المضمون واقع خارج الجملة يطابقه، وحينئذ نصف الكلام بالكذب»(١).

وتطبيقا على ذلك ننظر فى هذين القولين (حضر خالد)، و(لم يحضر خالد): فالقول الأول. خبر يراد به: «أن هذه النسبة الكلامية لها نسبة فى الخارج، أى أنه وقع حضور من خالد. والقول الثانى، يراد به نفس الأمر، أى أنه لم يقع حضور من خالد.

أما الجملة الإنشائية: فليس القصد منها إفادة أن محتواها يطابق نسبتها الخارجية. وإنما القصد إلى إنشائها. فقولك (ليت خالدا يحضر)، فيه نسبة كلامية هى تمنى حضور خالد. وله نسبة خارجية هى قيام هذا التمنى فى النفس، ويحتمل أن يكون هذا التمنى القلبى غير قائم، وأن يكون قد ادعى ذلك فى اللفظ فقط. ويوصف الكلام حينئذ بالكذب. ولكن ليس المقصود من الجملة هو الأخبار بمطابقة هذه النسبة لتلك، وإنما المقصود هو: «إنشاء هذا المعنى»(٢).

---

(١) د. محمد أبو موسى: دلالات التركيب : مكتبة وهبة . القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٩٢ .
(٢) السابق ص ١٩٢ .

٢ - أنـواع الأسلـوب الإنشائـي:

عرفنا مما سبق أن الإنشاء الطلبى هو: صيغة تركيبية يطلب بها حصول شىء ليس موجودًا عند الطلب. وقد بحث البلاغيون هذه الصيغة . ونوعوها إلى عدة أنواع:

النوع الأول: أسلوب الأمـر:

وقد حدد مفهومه بأنه: طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام. وفسروا الاستعلاء بأنه: طلب العلو، وعد الآمر نفسه عاليًا، سواء أكان عاليا فى الحقيقة ونفس الأمر أم لا. لتبادر الفهم عند سماع الصيغة - إلى ذلك المعنى، أعنى الطلب استعلاء ، «والتبادر إلى الذهن من أقوى أمارات الحقيقة»(١).

وفى ضوء هذا التحديد تناول البلاغيون أربع صيغ أطلقوا عليها وصف «الأمر الحقيقى»، ثم استخلصوا من هذه الصيغ الواقعة ضمن التركيب عدة معان: فوصفوا الأمر حينئذ «بالأمر البلاغى».

أما الأمر الحقيقى: أو الأمر ذو المعنى الأصلى فصيغه أربع وهى:

١ - فعل الأمر: مثل قوله تعالى: ﴿ادفع بالتى هى أحسن﴾، وقوله (ﷺ) «اذهبوا فأنتم الطلقاء». وقوله تعالى: ﴿فكلى واشربى وقرى عينا﴾.

(١) شرح السعد : ص ١٠٧.

٢ ــ المضارع المقترن بلام الأمر: مثل قوله تعالى: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ وقول أبي تمام:

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر

فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

٣ ــ اسم فعل الأمر: وصيغه هي: «عليكم» بمعنى الزموا مثل (عليكم أنفسكم)، ومثل: (عليك بالأستاذ لتفيد منه). وصيغة (بله) بمعنى (دع) مثل:

تذر الجماجم ضاحيا هاماتها

بله الأكف كأنها لم تخلق

وصيغة (رويده) بمعنى أمهله. مثل قول الشاعر:

رويد الذى محضته الود صافيا

إذا ما هفا حتى يظل أخالكا

وصيغ (آمين) بمعنى: استجب كقول مجنول ليلى: (ويرحم الله عبدا قال امينا). و (صه) بمعنى: اسكت. و (مه) بمعنى : اكفف(١).

٤ ــ المصدر النائب عن فعل الأمر: كقوله تعالى: ﴿وبالوالدين أحسانًا﴾، وقوله: ﴿وإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب﴾، وقول

(١) د. عبد العزيز عتيق: علم المعانى ص ٨٢.

قطرى بن الفجاءة:

فصبرا فــى مجــال المــوت صبـــرا

فمـــا نيـــل الخلـــود بمستطـــاع

وقول الرسول (ﷺ): «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

وأما الأمر البلاغى: فقد عالجه البلاغيون تحت مصطلح «خروج الأمر عن معناه الأصلى». حيث ذكر البلاغيون أن هناك عدداً من صيغ الأمر الكائنة فى العربية، خرجت عن معناها الأصلى الحقيقى وهو: «طلب الفعل عن جهة الاستعلاء والوجوب والإلزام» كما تبين لتدل على معان أخرى إضافية تدرك من سياق التعبير أو التركيب وبمعونه قرائن الأحوال، ويحتملها لفظ الأمر. وقد حصر البلاغيون طائفة من هذه المعانى وهى:

١ ـ معنى الدعاء: وهو الطلب على سبيل التضرع والاستغاثة والعفو والرحمة. ويسميه بعض اللغويين (مسألة)، ويكون صادراً من الأدنى إلى الأعلى منزلة وشأنا. مثل قوله تعالى: ﴿رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى﴾، و (رب أغفر لى)، و(رب أعن عبدك الفقير). ومن ذلك قول المتنبى يخاطب سيف الدولة:

أخـــا الجـــود أعط الناس مـــا أنت مالـك

ولا تعطـــين الناس مـــا أنـــا مـــالك

٢ ـ معنى الالتماس: وذلك إذا صدرت صيغة الأمر من شخص إلى شخص مساوله فى المنزلة أو من ند إلى نده. أو هو: طلب الفعل الصادر عن الأنداد والنظراء المتساوين قدرًا ومنزلة. مثل قولك لصديق لك: (أعطنى قلمك). ومثل قول الشاعر حامد طاهر يخاطب محبوبته(١).

اذكرينـــى كلمـــا طافـــت علـــى الـــدرب سحابـــة

فالأمر ـ فى هذين المثالين وفى ما يماثلهما: قد خرج عن معناه الحقيقى إلى الالتماس لأنك وصديقك تستويان فى المنزلة، ولأن الشاعر ومحبوبته يستويان أيضا فى المنزلة والقدر.

٣ ـ معنى التمنى: وذلك إذا كان الأمر المطلوب محبوبًا ولا أمل فى حصوله، أو هو طلب الأمر المحبوب الذى لا يرجى وقوعه، أما لكونه مستحيلا، وأما لكونه ممكنا غير مطموع فى نيله. مثل قول عنترة:

يـــا دار عبلـــة بالجـــواء تكلمـــى
وعمى صباحا دار عبلـــة واسلمـــى

وقول أمرىء القيس:

ألا أيهـــا الليـــل الطويـــل ألا انجـــل
بصبح وما الإصبـــاح منـــك بأمثـــل

«إذا ليس الغرض طلب الإنجلاء من الليل، إذ ليس ذلك فى وسعه.

(١) ديوان حامد طاهر ص ١٦٧ ط القاهرة، ١٩٨٤.

لكنه يتمنى ذلك تخلصا مما عرض له فى الليل من تباريح الجوى، ولاستطالته تلك الليلة. كأنه لا طماعية له فى انجلائها، فلهذا يحمل على التمنى دون الترجى»(١). وقول أبى العلاء المعرى:

فيا موت زر إن الحياة ذميمة

ويا نفس جدى إن دهرك هازل

٤ - معنى النصح والإرشاد . وهو: الطلب الذى لاتكليف ولا ألزام فيه. وإنما هو طلب يتضمن معانى النصيحة والإرشاد والمواعظة. مثل قول البارودى(٢):

وكن على حذر تسلم فرب فتى

ألقى به الأمن بين اليأس والوجل

وقوله:

وأخش النميمة واعلم أن صاحبها

يصليك من حرها نارا بلا شعل

وقوله(٣).

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسان إحسان

---

(١) مختصر المعانى ٢/١٠٩.
(٢) ديوان الباوردى: ٣/ ١١ دار المعارف ط ١٩٧٢.
(٣) السابق : ٣/ ١٢.

٥ـ معنى التخيير: هوأن يطلب القائل من المتلقى المخاطب أن يحكم عقله ليختار بين أمرين ـ موضوعين أو شخصين ـ أو أكثر مع لفت نظره بأنه ممنوع من الجمع بين الأمرين أو الأمور التى هى موضع اختياره مثل: (تزوج ليلى أو أختها)، فالمتلقى مخير بين زواجه من ليلى أو أختها، وليس له أن يجمع بين الاثنين. ومثل: (عش وحيدا أو شارك فى خدمة المجتمع)، ومثله قول بشار بن برد(١).

فعش واحدا أو صل أخاك فإنه
مقارف ذنب مرة ومجانبه

٦ـ معنى الإباحة: وهى تتحق فى التركيب إذا توهم المتلقى المخاطب أن الفعل أو الشىء المأمور به محظور عليه، فيكون الأمر إذنًا له بالفعل، ولا حرج عليه فى الترك. وذلك نحو قوله تعالى:﴿كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾. ومن ذلك قول أبى فراس يعاتب سيف الدولة(٢).

فقل ما شئت فى فلى لسان
ملىء بالثناء عليك رطب

وعاملنى بإنصاف وظلم
تجدنى فى الجميع كما تحب

(١) ديوانه : ص ٩٥ .
(٢) ديوانه : شرح وتقديم عباس عبد الساتر. دار الكتب العلمية ـ بيروت ص٢٢.

٧ - معنى التعجيز، وهو أن يأمر القائل المتلقى المخاطب بعمل شىء لا يقدر على القيام به، وذلك ليظهر عجزه وعدم قدرته على القيام به بغرض التحدى مثل قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض، فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾. وقوله ﴿وأن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا، فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله أن كنتم صادقين﴾، ومثل قول الشاعر:

أرونى بخيلا طال عمرا ببخله

وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

٨ - معنى التسوية عندما يكون المتلقى فى حال أو مقام يتوهم فيه أن أحد الشيئين مرجح على الآخر. أو أرجح من الآخر. فيوظف القائل صيغة فى التركيب ذات معنى يمنع توهمه أو ترجيحه. مثل قول المتنبى(١).

عش عزيزا أو مت وأنت كريم

بين طعن القنا وخفق البنود

فالمعيشة العزيزة والموت الكريم كلاهما سواء. ولا أحد من الأمرين يرجح الآخر. وقوله تعالى: ﴿انفقوا طوعا أو كرها فلن يتقبل منكم﴾، فقد يظن أو يتوهم المخاطبون أن الإنفاق طوعا أرجح فى القبول من الإنفاق كرها، ولذلك سوى بينهما فى عدم القبول. ومثل ﴿اصبروا أولا تصبروا﴾

---

(١) ديوانه : ١/ ٣٢١.

وليس المراد بالأمر أن الصبر نافع، فدفع ذلك التوهم بالتسوية بين الصبر وغيره.

٩ـ **معنى الإهانة والتحقير:** يفهم معنى الإهانة من الصيغة الآمرة عندما يكون القائل فى حالة عدم مبالاة أو عدم اعتداد بالمأمور أو المتلقى المخاطب، أيا كان موقعه ومستواه. ويتمثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الحكيم﴾. وأما معنى التحقير، أو الاحتقار المفهوم من صيغة الأمر، فهو قريب من الإهانة، ومنه قوله تعالى على لسان موسى مخاطبا السحرة: ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾. يقصد تحقير ما جاء به السحرة من السحر.

ويمكن تحديد الفرق بين (الإهانة ـ والتحقير) على أساس: مدى توافر ثنائية القول والشعور القلبى. فى كل منهما، «فالإهانة: تكون بالقول والفعل المقترن بالاحساس وبالشعور. والاحتقار قد يكون بالقول أو الفعل فقط وقد يكون الشعور فقط...»(١): والفرق بين الإهانة والاحتقار أن الإهانة لابد أن تظهر بالقول أو بالفعل، ولا يكفى فيها الاعتقاد والشعور النفسى. أما الاحتقار فكما أنه قد يظهر بالقول أو الفعل ـ يكون كذلك بالشعور القلبى فحسب. وكثيرا ما يقع الاحتقار بمجرد الشعور القلبى بحقارة المحتقر دون أن يصحب ذلك تحقيره بقول أو فعل . وعلى ذلك تكون الإهانة أخص من الاحتقار لاشتراط القول أو الفعل فيها، وقيل لا

---
(١) الدكتور درويش الجندى علم المعانى ص ٣٩، ٤٠

يشترط ذلك فى الإهانة، وعلى هذا تكون الأهانة والاحتقار بمعنى واحد»(١).

١٠ ـ معنى التهديد: يفهم من الصيغة التى تكون من القائل الآمر، الذى يأمر المخاطب بعمل شىء معين وهو غير راض عنه، وإنما أمر به على جهة التخويف والتحذير مثل قوله تعالى: ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾. فالأمر ﴿اعملوا..﴾ موجه لمن يلحدون فى آيات القرآن، ولا يقصد إنجاز العمل، بل يقصد التخويف والتحذير أو التهديد. وقوله: ﴿قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾. وقول الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالى
ولم تستحى فاصنع ما تشاء

النوع الثانى: أسلوب النهى:

حدد اللغويون معنى النهى الأصلى أو الحقيقى بأنه (طلب الكف عن الفعل ـ أو الامتناع عنه ـ على سبيل الاستعلاء والإلزام والواجب)(١). وحصروا النهى فى صيغة واحدة هى: «الفعل المضارع المقترن بالحرف(لا) التى تدل على النهى والجزم». مثل (لا تفعل) ويتمثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾. وقوله: ﴿لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن﴾.

---

(١) السابق : ص ٢٠.
(١) شرح السعد: ٢/ ١١٠.

ولكن البلاغيين رأوا أن هذه الصيغة قد تخرج عن معناها الأصلى الحقيقى وهو: (طلب الكف عن الفعل استعلاء) - لتفيد معانى أخرى يفهمها المتلقى من سياق التركيب الذى وردت فيه، بواسطة قرائن الأحوال وإشاراتها.

وقد حصروا عددا من المعانى التى تستفاد من صيغة النهى وأطلقوا عليها «خروج النهى عن معناه الأصلى» وهى:

١- معنى الدعاء: يفهم من صيغة النهى الواردة فى التعبير، وذلك إذا اتجه النهى أو صعد من الأدنى أو الأقل منزلة ومرتبة إلى أعلى منزلة ومرتبة. ومثل قوله تعالى على لسان المؤمنين: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾، و﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾، ومن ذلك قول كعب بن زهير يخاطب الرسول (ﷺ):

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
أذنب ولو كثرت فى الأقاويل

وقول النابغة يخاطب النغمان بن المنذر(١).

فلا تتركنى بالوعيد كأننى
إلى الناس مطلى به القر أجرب

٢- معنى الالتماس: وذلك إذا صدرت صيغة النهى من شخص إلى آخر

(١) ديوانه ص ٧٣.

يساويه فى القدر والمنزلة. كقوله تعالى على لسان هارون يخاطب موسى عليهما السلام ﴿يا بن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي﴾ - وقول أبى العلاء يخاطب رفيقيه المتخيلين على عادة الشعراء القدامى:

لا تطويا السر عني يوم نائبة

فإن ذلك ذنب غير مغتفر

٣ - معنى التمنى، يفهم من الصيغة الواردة فى تركيب موجه إلى غير العاقل: (الحيوان ـــ الجماد) ومثاله: (لا تغب يا قمر فإنى آنس بك)، و(لا تهبى يا عاصفة فأعزاؤنا فى الطريق سائرون)، وقول الخنساء ترثى أخاها صخرا(١).

أعيني جودا ولا تبخلا

ألا تبكيان لصخر الندا؟

٤ - معنى النصح والارشاد، مثل قولك: (لا تصاحب اللئيم)، و(لا تصادق الأشرار)، ومثل قول المتنبى(٢).

إذا غامرت فى شرف مروم

فلا تقنع بما دون النجوم

وقول أبى العلاء المعرى:

(١) ديوانها ص: ٦٠.
(٢) ديوانه : ٤/ ١١٩.

ولا تجلس إلى أهل الدنايا

فإن خلائق السفهاء تعدى

وقول الشاعر:

إذا نطق السفيه فلا تجبه

فخير من إجابته السكوت

٥ ـ معنى التوبيخ والتقريع: في مقام النهى عن أمر لا يشرف الإنسان ولا يليق به ولا يصح أن يصدر عنه. كقول تعالى: ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم﴾.

وقول الشاعر (أبي الأسود الدؤلي):

لا تنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك إذا فعلت عظيم

وقول المتنبي:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

٦ ـ معنى التحقير: في مقام التقليل من شأن المخاطب مثل قول الحطيئة يهجو الزبرقان(١):

(١) ديوانه ص: ١٠٨.

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغيتهـــا

واقعـد فإنك أنت الطاعم الكاســى

وقول المتنبى يهجو كافور الأخشيدى(١).

لا تشتـــر العبيـــد إلا والعصـا معـــه

إن العبيـــــد لأنجـــاس مناكيـــــد

ومثل قول الشاعر يحقر الكسول الذى لا يميل إلى العمل وتحمل الشدائد والمسئوليات:

لا تطلب المجـــد إن المجـــد سلمـــه

صعب، وعــش مستريحا ناعــم البـــال

٧ - معنى التينيس والتعجيز: ويستخلص من صيغة نهى موجهة إلى مخاطب يزمع القيام بعمل ما، ويعلم الناهى أن هذه العمل فوق قدرته العقلية أو البدنية. ومثال ذلك قول المتنبى(٢):

لا تطلبـــن كريمـــا بعـــد رؤيتـــه

إن الكـرام بأسخاهـــم يـــدا ختمـــوا

وقولك لمن يريد الجواب عن سؤال معجز وأنت تدرك قدرته المتواضعة:

(١) ديوانه ٢ / ٤٣.

(٢) المراغى : علوم البلاغة ص ٦٢.

(لا تحاول يا فتى: فقد عجز عن الجواب الموقنون)، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لا تعتذروا فقد كفرتم بعد إيمانكم﴾.

٨ ـ معنى التهديد، ويفهم من صيغة نهى قصد بها الناهى تخويف شخص ما أقل منه منزلة وأدنى منه مرتبة من القيام بعمل شيء لا يرضى عنه الناهى. مثل قولك لشخص يواصل الانحراف رغم نصائحك المتكررة: (لا تكف عن انحرافك، وسوف ترى النتيجة). أو قولك لمن يعاند ولا ينفذ تعليماتك (لا تطع أمرى، ولا تقلع عن عنادك، وسترى).

النوع الثالث: أسلوب الاستفهام:

وهو طلب فهم شيء لم يتقدم للسامع علم به، وذلك بأداة من إحدى أدواته(١)، أو هو: طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل(٢)، وهذا الشيء المطلوب العلم به واحد من أمرين:

(أ) أما أن يكون المطلوب ثبوت نسبة بين أمرين أو نفيهما مثل: (هل يصدأ الذهب؟) فالشيء المطلوب العلم به هنا هو ثبوت نسبة بين المسند إليه وهو يصدأ، وبين المسند وهو الذهب، أو نفى هذه النسبة، فالمتكلم متردد بين ثبوت نسبة الصدأ للذهب ونفيه عنه فيكون الجواب بنعم إن أريد به الإثبات، وبلا أن أريد النفى ويسمى إدراك النسبة ومعرفتها تصديقا.

---

(١) المراغى : علوم البلاغة ص ٦٢ .

(٢) د. درويش الجندى: علم المعانى ص٤٢، د. عبد العزيز عتيق: علم المعانى ص٩٦، د. عبده عبد العزيز قلقيلة: البلاغة الإصلاحية ص١٦٣ .

(ب) وأما أن يكون أحد شيئين أو أكثر مثل: (أأنت المسافر أم أخوك؟)، أو (أأنت المسافر أم أخوك أم أبوك؟). المستفهم هنا يعلم أن السفر واقع فعلا، وأنه منسوب إلي واحد من اثنين هما: المخاطب وأخوه أو إلى واحد من ثلاثة هم: المخاطب وأخوه وأبوه. فهو لذلك لا يطلب معرفة النسبة وإنما يطلب معرفة (المفرد)، وينتظر من المسئول أن يعين له ذلك المفرد ويدل عليه. ولذلك يكون جوابه بالتعيين، فيقول له: أخي مثلا. وتسمى معرفة المفرد (تصورا).

وهذا التحديد التفصيلي لحقيقة الأمر المطلوب العلم به ـ هو تفسير لعبارة البلاغي سعد الدين التفتازاني وهي: (فإن كان المطلوب وقوع نسبة بين أمرين أولا وقوعها، فحصولها هو التصديق ، وإلا فهو (أي الحصول) التصور»(١).

والمتتبع لأساليب العربية يجد أن أدوات الاستفهام كثيرة. وقد أمكن تقسيمها على أساس «الطلب» إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يطلب به التصور تارة والتصديق تارة أخرى وهو «الهمزة».

القسم الثاني: ما يطلب به التصديق فقط وهو: «هل».

القسم الثالث: ما يطلب به التصور فقط وهو: باقي الأدوات: من ـ ما ـ متى ـ أيان ـ أين ـ أنى ـ كيف ـ كم ـ أي.

(١) شرح السعد : ٢/ ٩٤.

أما القسم الأول وهو «الهمزة»، فقد بين العلماء أن وظيفتها هى: «طلب التصور أو إدراك المفرد». فمثلا نقول: أحامد تفوق أم أحمد؟ وأشاعر أنت أم قصاص؟ وأشهرا قضيت فى الأسكندرية أم أكثر من شهر؟.

إن الجمل الأولى - وما يماثلها - تفيد الاستفهام أى طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل، والأداة التى استفهم بها المتكلم هنا هى الهمزة. والمتكلم السائل أو المستفهم يعرف النسبة التى تضمنتها كل جملة.. ولكنه يتردد بين شيئين ويطلب تعيين أحدهما:

ففى الجملة الأولى: يعرف المستفهم أن التفوق قد حدث فعلا، وأنه منسوب إلى واحد من شخصين (حامد أو أحمد)، ولذلك فهو لا يطلب معرفة النسبة لأنها معروفة, وإنما يطلب معرفة مفرد. وعلى المسئول أن يحدده ويدله عليه، ومن أجل هذا يجب أن تكون إجابته على السؤال محددة. فيقول (حامد) مثلا.

وفى الجملة الثانية: يعلم المستفهم أن واحدا من الوصفين (شاعر أو قصاص) قد نسب وأسند إلى المخاطب، ولكنه فى حالة تردد بين الوصفين، فلا يدرك أهو الشعر أم القصة، إنه لا يطلب النسبة، لأنها معروفة لديه، ولكنه يسأل عن مفرد ويطلب تعيينه، ولهذا يجب التعيين والتحديد، فيجيب المتلقى المسئول بـ (قصاص) مثلا. وهكذا يقال فى الجملة الثالثة..

ويمكن للمتأمل أن يلاحظ أمرين:

الأول: أن همزة التصور يجئ بعدها المسئول عنه أو المستفهم عنه دائما، ويذكر له فى الغالب: «معادل» بعد (أم).

الثانى: أن المسئول أو المستفهم عنه أنواع:

١ ــ المسند إليه: مثل: ا خالد تفوق أم أحمد. وأأنت فعلت هذا أم يوسف؟.

٢ ــ المسند: مثل: أمحب أنت أم كاره؟. أم مشتر أنت أم بائع؟.

٣ ــ المفعول به: مثل: أتفاحا أكلت أم موزًا؟ أقصيدة كتبت أم قصة؟.

٤ ــ الحال : مثل: أراكبا جئت أم ماشيا. أهادئًا تكلمت أم متوترا؟.

٥ ــ ظرف الزمان: أمساء السبت تزورنى أم مساء الاثنين؟ ـ ظرف المكان : أعند خالد نلتقى أم عند محمد؟.

٦ ــ الجار والمجرور : أفى قاعة المحاضرات زميلك أم فى المكتبة؟.

وأما القسم الثانى وهو (هل): فقد عين العلماء وظيفتها فى أنها يسأل به السائل عن محتوى التركيب ومعناه، أو عند الإسناد الحاصل لطرفى الجملة، مثال ذلك: يسأل الأستاذ طالبا: هل أعددت البحث؟ فيجيب الطالب بنعم. أى أعددته. أو بـ لا. أى لم أعده.

وهل: لطلب التصديق فقط. مثل هل قام خالد؟ وهل صلاح جالس؟. وإذا وقعت (أم) بعدها، كانت منقطعة كما فى قول الشاعر:

ألا ليت شعرى هل تغيرت الرحى

رحى الحرب أم أضحت بفلج كما هيا؟

وقد نوع اللغوين (هل) إلى نوعين:

الأول: هل البسيطة وهى التى يستفهم بها عن وجود الشيء أو عدمه، مثل (هل الإنسان الكامل موجود؟).

الثاني: هل المركبة، وهى التى يستفهم بها عن وجود شيء لشيء أو عدمه. مثل: (هل النبات حساس؟) فقد استفهم عن وجود الحساسية للنبات أو عدمها. ومن الجدير بالذكر أن هذا التنويع إلى (بسيطة ومركبة) لا يختص بـ (هل) وحدها، وإنما تشترك معها فيه (الهمزة التى للتصور).

وأما القسم الثالث: وهو باقى أدوات الاستفهام. فقد ذكر اللغويون أنها لطلب التصور فقط. «وهى تختلف من جهة أن المطلوب بكل منها هو تصور شيء يخالف الشيء المطلوب تصوره بأداة أخرى»(١) وهذه الأدوات هى:

١ — من : ويسأل بها عن العاقل، أو الأمر الذى يعرض للعاقل. فيفيد المسؤول بمن حينئذ تشخص هذا الأمر وتعيينه، سواء أكان هذا العارض وصفا مثل: من بالطريق؟ فيكون الجواب: الرجل الضخم الذى رأيته أمس - أو كان هذا العارض علَما مثل: من بالباب ؟ فيكون الجواب: خالد. ومن

---

(١) د. درويش الجندى: علم المعانى. ص ٤٨.

الواضح أن الجواب في المثالين - قد أفاد حصول التعين بحصول الوصف في المثال الأول. وحصول العلم في المثال الثاني.

وقد ذكر السكاكي، أن (من) يسأل بها عن الجنس من ذوى العلم.. نقول: من جبريل؟. أى أبشر هو أم ملك، أم جنى؟. وكذلك من أبليس؟. ومن فلان(١).

٢ - ما: ويستفهم بها عن غير العاقل، ووظيفتها: إما شرح الاسم. مثل: (ما الأسد؟)، وإما شرح حقيقة المسمى. مثل: ما الإنسان أو ما الحرب؟ - وإما السؤال عن الجنس، مثل: (ما عندك؟). والمراد: أى أجناس الأشياء عندك، والجواب: كتاب مثلا. وإما السؤال عن الحقائق مثل: ما الكلمة؟ أو ما اللغة؟ وإما السؤال عن الوصف. نقول: (ما وصف خالد؟) فيكون الجواب: هو الكريم. مثلا.

٣ - أى: ويستفهم بها عن الأمر الذى يميز أحد المشتركين في شيء يشملهما: مثل قوله تعالى: ﴿أى الفريقين خير مقاما﴾ أى أنحن أم أصحاب محمد (ﷺ). فالمؤمنون والكافرون قد اشتركا في (الفريقية). وفريق الكافرين يسألون عما يميز أحد الفريقين عن الآخر كالاتصاف بالكفر، وكالاتصاف بصحبة محمد (ﷺ)(٢).

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٩ - ١٥٠.
(٢) د. درويش الجندى: علم المعانى ص ٥١.

ويستفهم بأى أيضا عن: الزمان ــ والمكان ــ الحال ــ العدد ــ وغير ذلك، على حسب ما تضاف إليه، فإن أضيفت إلى ما تفيده (ما) أخذ حكمها، وإن أضيفت إلى ما تفيده (متى أو كيف)، أو غيرهما من الأدوات السابقة والآتية أخذت معانيها(١).

٤ ــ كم : يستفهم بها عن العدد مثل: كم يومًا قضيت فى الإسكندرية؟.

٥ ــ كيف: يستفهم بها عن الحال مثل: كيف سافرت؟. كيف استمعت إلى المحاضرة؟.

٦ ــ أين: يستفهم بها عن المكان مثل: أين كتابك؟ أين منزلك؟

٧ ــ متى: يستفهم بها عن الزمان الماضى أو المستقبل: متى عدت؟ ومتى تسافر؟.

٨ ـ أيان: يستفهم بها عن الزمان المستقبل، وتستعمل فى مواضع التفخيم والتهويل. مثل: يسأل أيان يوم القيامة؟.

٩ ــ أنى : بفتح الهمزة وفتح النون المشددة. وتستعمل بمعنى كيف مثل: أنّى يحيى الناس بعد موتهم؟. وبمعنى، أين. مثل: يا مريم أنى لك هذا؟. وبمعنى متى: مثل: أنى يفيض النيل؟ مثل: أنى يحضر المعلم؟.

---

(١) السابق : ص ٥١.

ومن البين أن محور وظائف هذه الأدوات هو: «معنى الاستفهام الأصلى أو الحقيقى» أو السؤال عما يجهله السائل الذى ينتظر الجواب. ولكن البلاغيين رأوا أن هذه الأدوات قد تخرج عن معانيها الأصلية لتؤدى معانى أخرى ـ غير السؤال ـ تفهم من سياق التركيب، ومن القرائن والأدلة والاشارات الواردة فيه. فقد تفيد صيغ الاستفهام الواردة فى التراكيب المعانى الآتية:

١ ــ معنى الإثبات: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟﴾ أى ما جزاء الإحسان إلا الإحسان. ومثل: هل القراءة الحرة إلا لتثقيف العقل وتنمية الوعى. أى ما القراءة الحرة إلا لتثقيف العقل.. ومثل قول أبى تمام(١).

هل اجتمعت أحياء عدنان كلها

بملتحم إلا وأنت أميرها؟

٢ ــ معنى التسوية وهى أما صريحة مثل قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾، أو غير صريحة كقوله تعالى: ﴿وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون﴾، ومثل قول المتنبى(٢).

---

(١) ديوانه ٤/ ٥٧٩ .

(٢) ديوانه ١/ ٦٠ .

ولست أبالي بعد ادراكي العلا

أكان تراثا ما تناولت أم كسبا

٣ ـ معنى الإنكار : وهو عدم رضا الإنسان عن أمر ما فيستفهم عنه منكرا له. وهو نوعان:

الأول : الإنكار على سبيل التكذيب، ويكون ذلك:

(أ) فى الماضى بمعنى (لم يكن) مثل قوله تعالى لمن اعتقد أن الملائكة بنات الله ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا﴾. أى أخصكم ربكم بالذكور وخص نفسه بالأثاث؟ (أى لم يفعل ذلك).

(ب) أو فى المستقبل بمعنى (لا يكون) مثل قوله تعالى: ﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾، أى« أنلزمكم تلك الحجة، أى أنكرهكم على قبولها ونقسركم على الاقتداء بها، والحال أنكم لها كارهون؟ يعنى لا يكون هذا الإلزام.

النوع الثانى هو: الإنكار على سبيل التوبيخ على أمر. وقع فى الماضى بمعنى (ما كان ينبغى أن يكون ذلك الأمر) مثل قولك لابنك: (أسافرت دون علمى؟) أى ما كان ينبغى أن يحصل ذلك، ومنه: (أعصيت ربك؟) ـ لمن هو واقع فى المنكر، أو لمن هو همّ أن يقع فيه، على معنى لا ينبغى أن يحدث منك أو يصدر عنك فى المستقبل. ومن ذلك قولك لشخص مغامر يريد الخروج أثناء غارة جوية: (أتخرج فى هذا الوقت؟) قاصداً توبيخه

لكى يراجع نفسه فيتراجع عن فعل ما هم به. وقد نبه البلاغيون على ضرورة أن يأتى المنكر بعد الهمزة كالفعل فى قوله تعالى: ﴿أتعبدون ما تنحتون؟﴾ وقول امرىء القيس(١).

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى

ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقول المتنبى يمدح كافورا، وينكر على الأعداء ارتيابهم فى عظمة كافور، حيث أخذوا يلتمسون البراهين على ما كتبه الله من النصر واختصه به من المجد السعيد(٢).

أتلتمس الاعداء بعد الذى رأت

قيام دليل أو وضوح بيان؟

٤ ــ معنى التقرير: وهو حمل المخاطب على الاقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده ثبوته أو نفيه، وقد اشترط الخطيب القزوينى هنا أن يأتى بعد الهمزة المقربة(٣). مثل قولك: (أفعلت؟)، أو (أكتبت قصة؟). وإذا أردت أن تقرر المخاطب بالفعل. قلت: (أقصة كتبت؟) فى تقرير المخاطب المفعول. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾، وقوله: ﴿أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله﴾. وقول جرير:(٤).

(١) ديوانه ص ٣٣.
(٢) ديوانه : ص ٤/ ٢٤٢.
(٣) الإيضاح : ص ٢٣٥.
(٤) ديوانه : ص ٨٩.

الستم خير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح؟

٥ ــ معنى الاستبطاء: والمراد به: توقع المستبطىء ما يتعلق به. ويتحقق فى مقام قولك لمن ناديته لكنه أبطأ فى الإقبال عليك: (كم دعوتك؟)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿متى نصر الله؟﴾. ومنه قول المتنبى(١).

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم؟

وما سراه على خف ولا قدم

وقوله:

حتى متى أنت فى لهو وفى لعب؟

والموت نحوك يهوى فاتحا فاه

٦ ــ معنى التمنى: مثل قوله تعالى: ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾، ومثل (فهل لى من منصف ينصفنى؟). ومن ذلك قول الشاعر:

هل بالطلول لسائل رد

أم هل لها بتكلم عهد؟

ومثل قول الشاعر:

أسرب القطا هل من يعير جناحه

لعلى إلى من قد هويت أطير؟

---

(١) ديوانه ٤/ ١٥٥.

٧ ــ معنى التعجب: كقوله تعالى: ﴿مالى لا أرى الهدهد؟﴾ وقوله: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟﴾ وقول أبى تمام(١).

ما للخطـــوب طغــت علـــى كأنهـــا
جهلـــت بأن نـــــداك بالمرصــــاد؟

٨ - معنى الوعيد: مثل قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد؟﴾ وكقولك لمن يسىء الأدب: (ألم أؤدب فلانا؟) - إذا علم المخاطب ذلك وهو أنك أدبت فلانا، فيفهم معنى الوعيد والتخويف، فلا يحمل كلامك على الاستفهام الحقيقى. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ألم نهلك الأولين؟﴾.

٩ ــ معنى الاستبعاد: والمراد به: عدم توقع المستبعد ما يتعلق به مثل: (أين فكرى من فكرك؟). وقال تعالى: ﴿أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه؟﴾. وقول أبى تمام(٢).

مـــن لـــى بإنســـان إذا أغضبتـــه
وجهلـــت كـــان الحلـــم ردّ جوابـــه

وقول المتنبى(٣):

ومـا قتـل الأحـــرار كالعفـــو عنهـــم
ومن لك بالحر الـــذى يحفـــظ اليـــدا

(١) ديوانه : ص/ ٢/ ١٣٠.
(٢) ديوانه : ص ١/ ٥٤.
(٣) ديوانه : ص ١/ ٢٨٨.

١٠ ـــ معنى التشويق: وهو أن تفيد الصيغة إثارة اهتمام المتلقين. مثل قوله تعالى: ﴿هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟﴾. وقوله على لسان إبليس: ﴿ يا أدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟﴾. وقولك لصغيرك: (أأروى لك قصة بعد أن أديت واجبك اليوم؟).

١١ ـــ معنى التنبيه على الضلال ومجانبة الطريق السليم: مثل قولك (أين يأخذك غضبك العنيف؟)، و(أين يذهب بك فكرك الشرير؟).

١٢ ـــ معنى التعظيم: وهو أن تفيد الصيغة معنى الإجلال والإكبار. ويأتى التعظيم مع الأمر المرغوب فيه مثل قول المتنبى فى الرثاء(١).

من للمحافل والجحافل والسرى

فقدت بفقدك نيرا لا يطلع

وقول طرفة(٢).

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى

عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وقول أبى فواس:

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

١٣ ـــ معنى التحقير، وهو : أن تفيد صيغة القائل التقليل والتهوين من

(١) ديوانه المتنبى : ص ٢/ ٢٧٥.
(٢) ديوانه طرفة : ص ٤٥.

شأن شخص ما أو أمر معين. مثل قولك مشيرا إلى حقارة شخص وانخفاض منزلته. (من هذا؟)، ومن ذلك قوله تعالى على لسان كفار قريش (أهذا الذى بعث الله رسولا؟). وقول قريش للرسول (ﷺ): (ألهذا دعوتنا؟).

١٤ ــ معنى التهويل: والمراد به أن تفيد أمرا مخوفا منه، مثل قوله تعالى: ﴿الحاقة ما الحاقة؟ وما أدراك من الحاقة؟﴾. ومثل قراءة عبد الله بن عباس لقوله تعالى: ﴿ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون؟﴾ حيث فتح ميم (من) أى هل تعرفون من هو فى شدة قوته؟. فما ظنكم بعذاب يصدر من مثله؟ ولكى يهول من شأن فرعون قال تعالى بعد ذلك: ﴿إنه كان عاليا من المسرفين﴾. أى عاليا فى ظلمه مسرفا فى عتوه وجبروته(١).

١٥ ــ معنى التهكم، والمراد به: عدم المبالاة أو عدم الاكتراث بالمتهكم منه. مثل قوله تعالى: ﴿أهذا الذى يذكر آلهتكم؟﴾ أو هو نوع من توجيه اللوم إلى شخص ارتكب عملا غير سليم فتقول له: (أعقلك سوغ لك أن تفعل كذا؟). وقد يتساءل المرء: هل معنى التهكم هنا ـ قريب من معنى التحقير؟ أو هل هما بمعنى واحد؟، وقد فرق بينهما بعض الدارسين فذكر أن الفرق بينهما يرجع إلى نوع اعتقاد المتكلم. فالمتكم فى مجال التحقير «يعبر عما يراه ويعتقده»، أما فى مجال التهكم: «فإنه يعوم على سطح

(١) الإيضاح: ص ٢٤٠.

الكلام، ويتهكم بما لا يعتقد أكثر مما يتهكم بما يعتقد»(١).

١٦ ـ معنى الأمر: فقد تخرج صيغة الاستفهام الواردة ضمن التركيب عن أصل وضعها لتفيد معنى الأمر، كما فى قوله تعالى: ﴿فهل أنتم منتهون؟﴾ أى: انتهوا، وقوله: ﴿فهل أنتم مسلمون؟﴾ أى: اسلموا. وقد يستفاد الأمر بمعنى: أخبرنى أو أخبرونى»، من صيغتى (أرأيت - أو أرأيتم). فتقول لصديقك: (أرأيت هذا الكلام المفيد؟) أى أخبرنى به. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أفرأيت الذى تولى، وأعطى قليلا وأكدى؟﴾ أى: أخبرنى عن هذا الذى تولى وأعطى ومنع، وقوله: ﴿ أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى؟﴾ أى: أخبرونى عن هذه الأصنام.

١٧ ـ معنى النهى: فقد تخرج صيغة الاستفهام عن أصل وضعها إلى معنى آخر هو معنى (النهى) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أتخشونهم والله أحق أن تخشوه﴾ أى: لا تخشوهم. وقول الشاعر:

أتخالنى أرضى الهوان فحاذر
وأسلم بنفسك من أبى قادر

بمعنى لا تظن أننى أرضى الهوان فاحذر.

١٨ ـ معنى العرض أو الطلب بلين ورفق. كما فى قوله تعالى: ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ وقولك لمن تراه لا يزورك: (ألا تزورنا فتصيب خيرا).

---

(١) البلاغة الإصطلاحية : ص ١٧٨.

١٩ ـ معنى التحسر: فقد تخرج الصيغة الاستفهامية إلى هذا المعنى كقول البارودى فى رثاء زوجته(١).

يا دهـــر فيـــم فجعتنـــــى بحليلـــة

كانت خلاصـــة عدتـــــى وعتــــادى؟

إن كنت لم ترحـــم ضنـــــاى لبعدهـــــا

أفلا رحمـــت مـــن الأســـى أولادى؟

فقد عبر الشاعر بالاستفهام مريداً به التحسر للإثارة، ودعوة الناس إلى مشاركته الحزن والأسى(٢). ومن ذلك قول شمس الدين الكوفى فى نكبة بغداد:

مـــا للمنـــــازل؟ أصبحـــت لا أهلهـــا

أهلـــى ولا جيرانهـــا جيرانـــى

٢٠ ـ معنى التحضيض: ويراد به الحث والتشجيع على القيام بعمل ما. مثل قولك للكسول: (ألا تجتهد؟)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم؟﴾.

وقد تفيد صيغ الاستفهام معانى أخرى غير ما سبق، «فالقاعدة الرئيسية فى الاستفهام وفى غير الاستفهام ـ محكومة بسياق الكلام، تابعة لروح

(١) بلاغة النظم العربى: ص ١٠٨.
(٢) ديوانه : ١/ ٣٨.

المتكلم أو المخاطب، أو لمقتضى الحال»(١). وتطبيقا على ذلك ننظر مثلا في أداة الاستفهام (كيف) التى حددها اللغويون بأنها تكون للسؤال عن الحال. مثل (كيف الصحة؟). لكننا إذا قرأنا نصا يسأل فيه الشاعر حبيبه:

حبيبى كيف حتى غبت عنى؟

أتعلم أن لى أحدا سواكا؟

ـ عرفنا أنه لا يستفهم عن الحال، وإنما يعجب له كيف غاب عن عيون محبه وهو يعلم أنه الحبيب الأوحد، ومن ذلك نعلم أن «السياق وحده هو الذى يضفى على الأداة شعاعا يتلون بلونه ويتزيا بزيه»(٢).

النوع الرابع: أسلوب التمنى:

حدد البلاغيون مفهوم التمنى بأنه: طلب حصول شىء على سبيل المحبة(٣)، أو هو : «طلب حصول الشىء وبشرط المحبة، ونعنى الطماعية فى ذلك الشىء»(٤). أو هو «طلب أمر محبوب لا يتوقع حصوله»(٥) لسببين:

الأول: استحالة تحققه مثل قول الشاعر:

---

(١) السابق : ص ١٠٠.
(٢) السابق: ص ١٠١.
(٣) شرح السعد: ٢/ ٩٣.
(٤) أبو يعقوب المغربى: مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح. ص١٧٥.
(٥) على الجارم، ومصطفى أمين: البلاغة الواضحة: ص ٣٠٧.

ألا ليـــت الشبـــاب يعـــود يومـــا

فأخبـــره بمـــا فعـــل المشيـــب

الثانى: رغم إمكان تحققه فإنه بعيد الحصول عليه وغير مطموع فى نيله مثل قوله تعالى: ﴿ألا ليت لنا مثل ما أوتى قارون﴾، ومن ذلك قول أبى فراس مخاطبًا سيف الدولة.

فليتك تحلـــو والحيـــاة مريـــرة

وليتك ترضـــى والأنـــام غضـــاب

وليت الـــذى بينى وبينـــك عامـــر

وبينـــى وبـــين العالمـــين خـــراب

إذا صح منك الـــود فالكـــل هـــين

وكـــل الـــذى فـــوق التـــراب تـــراب

فتمنى الشاعر فى هذه الأبيات بـ «أن تحلو أخلاق سيف الدولة ويرضى قلبه، وتمتد المودة بينهما ـ أمور قد تتحقق، وهى ليست بالمستحيلة، ولكن الجفاء المستحكم والهجر المرير، والانقاطع المستمر الذى يخيم على قلب سيف الدولة، ويتبدى فى سلوكه نحو الشاعر الأسير، جعل أبا فراس يتخيل أن تلك مطالب إن كانت ممكنة التحقق فى حياة بنى الإنسان، إلا أنها غير ممكنة فى حياة سيف الدولة، ولا سيما فى تلك الساعة»(١).

(١) البلاغة العربية فى ثوبها الجديد: ص٨٢. وديوان أبى فراس ص١٦.

التمنـــى البلاغـــى:

تظهر الأساليب العربية أن صيغة (ليت) هى أداة التمنى الرئيسية، التى يعبر بها عن طلب المستحيل، أو الطلب البعيد المنال.. وهذه الوظيفة تدل على معنى «التمنى الحقيقى» أو «النحوى»، الذى استخلصه النحاة من الأساليب العربية.

وثمة صيغ غير هذه الصيغة وهى (هل ــ لعل ــ لو ــ هلا ــ ألا ــ لولا ــ لو ما)، يتمنى بها القائل داخل التركيب تمنيا بلاغيا: ــ

١ ــ فـ (هل ــ ولعل) معا: يتمنى بهما القائل لغرض بلاغى وهو: إبراز المتمنى فى صورة الممكن الحصول لكمال العناية به، مثل قول الشاعر:

أسرب القطا هل مـــن يعيـــر جناحـــه

لعلى إلـــى مـــن قـــد هويت أطيـــر

فمن المستحيل أن يعير الطير جناحه لأحد، وليس من الممكن أن يطير الإنسان طيرانا ذاتيا حقيقيا، إلى أحبابه الذين يهواهم.

ــ ومثال التمنى بـ (هل) بمفردها قوله تعالى: ﴿فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا﴾، وقوله: ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾، وقول الشاعر:

أيا منزلـــى سلمـــى ســـلام عليكمـــا

هل الأزمن اللائى مضـــين رواجـــع؟

ــ ومثال التمنى بـ (لعل) وحدها: قوله تعالى: ﴿يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب﴾، وقول الشاعر:

علـى الليالـى التـى أضنـت بفرقتنـا

جسمـى ستجمعنـى يومـا وتجمعـه

والمعنى البلاغى المقصود بكل من (هل)، (لعل) فى الأمثلة السابقة هو: حرص القائل على: إبراز الشيء المتمنى (وهو مستحيل أو ممكن بعيد) فى صورة الممكن القريب الوقوع، فيكتشف بذلك مدى تمسكه به، وحبه له «لكأنه فى زحمة حبة له، ورغبته فيه قد نسى أنه مستحيل أو فى حكم المستحيل»(١).

٢ ــ لو : وقد يتمنى بها القائل لغرض بلاغى هو: اشعار المتلقى بعزة المتمنى وندرته: لأن القائل «يبرزه فى صورة الممنوع، إذ إن لو تدل بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط»(٢). مثل قوله تعالى: ﴿فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين﴾. ومثل قول جرير(٣).

ولـى الشبـاب حميـدة أيامـه

لـو كـان ذلك يشتـرى أو يرجـع

وقول مسلم بن الوليد(٤).

واهـا لأيـام الصبـا وزمانـه

لـو كان أضعـف بالمقـام قليـلا

---

(١) البلاغة الواضحة: ص١٨٣ .
(٢) السابق : ص٢٠٧ .
(٣) ديوانه : ص٥٣
(٤) ديوانه : ص

وقد عمد بعض الباحثين فى البلاغة العربية إلى تناول اختلاف سر التمنى» بـ (لو)، عن سر التمنى بـ (هل ـ ولعل)، فقال: «إن هل ولعل - تقربان المتمنى، أما (لو) فتبعده، ربما أكثر مما تبعد ليت حقيقة أو ادعاء... نحن مع (لو) أمام أمر لا نقول (لا يتحقق) كما نقول مع ليت، بل نقول (لن يتحقق) ـ .. فالبعد بـ (ليت) بعد واحد وهو خارج أقطار المتمنى، أما البعد بـ (لو) فبعدان: بعد خارجى كالسابق، وبعد داخلى لاذع ومؤلم»(١).

٣ـ حروف التمنى المركبة:

(أ) هلا : وهى مكونه من (هل + لا).

(ب) ألاّ : بالتشديد: هى فى الأصل: (هلا). و (له) وهى مكونه من (هل+ لا)، فإن كلا من (لولا)، و(لو ما) أصلها (لو + ما). وبهذا التركيب تعين معنى التمنى، فقد زال الاستفهام فى (هل) وزال احتمال الشرط فى (لو). وتولد من التمنى أمران:

الأول هو: التنديم مع الفعل (الزمن) الماضى مثل: (هلا أكرمت خالدا) (ألا أكرمته)، و(لولا أكرمته)، و(لو ما أكرمته)، على معنى ليتك أكرمته. فالقائل قد اتخذ من التمنى فى هذه الأمثلة وسيلة إلى جعل المخاطب نادما على ترك الإكرام.

والثانى هو: التحضيض مع الفعل المضارع مثل: (هل تذهب إلى

---

(١) البلاغة الاصطلاحية : ص ١٨٣ ـ ١٨٤.

المكتبة)، و(ألا تذهب إلى المكتبة)، و(لولا تذهب إلى المكتبة)، و(لو ما تذهب إلى المكتبة) على معنى ليتك تذهب. فالقائل قد اتخذ من التمنى - فى هذه الأمثلة - وسيلة إلى حثه على الذهاب إلى المكتبة.

النوع الخامس: أسلوب الترجى:

وهو: أن يطلب القائل أمرا محبوبا يتوقع تحقيقه، لأنه ممكن قريب غير بعيد. والترجى - مثل التمنى - نوعان:

الأول: الترجى الحقيقى أو الأصلى وله صيغتان: (لعل)، و(عسى)، فمثاله بلعل قوله تعالى: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾، و(لعلى أفرغ من قراءة باقى الكتاب هذه الليلة). ومثاله بعسى قوله تعالى: ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها﴾، و (عسى أن ينجح الكسول).

والثانى هى: الترجى البلاغى. ويتعين فى استعمال القائل الأداة الأصلية للتمنى وهو (ليت). ومثاله قول المتنبى(١):

إن كـان يجمعنـا حـب لطلعتـه

فليت أنا بقـدر الحـب نقتسـم

وقول الطالب الذى لم يجب إجابة تنجحه: (ليتنى أنجح). وسر الترجى بليت فى هذين المثالين وما يماثلهما - إظهار الممكن القريب فى صورة الممكن البعيد، أو فى صورة المستحيل تعبيرا عن ضعف الأمل فيه ودلالة على اليأس منه.

---

(١) ديوانه :٣/ ٣٦٤.

النوع السادس: أسلوب النداء

حدد اللغويون المعنى الأصلى للنداء بأنه: طلب الإقبال بحرف نائب مناب (أدعو)، أو (أنادى)، أو (أطلب). وذكروا أن طلب الإقبال إما أن يكون حقيقة مثل: (يا صديقى - يا طالب). أو حكما مثل قوله تعالى: ﴿يا جبال أوبى معه﴾.

وقد رصد اللغوين عددا من حروف النداء، التى يمكن تصنيفها إلى قسمين:

الأول: يشمل حرفين هما: (الهمزة)، و(أى)، وقد بينوا أنهما يستعملان فى (نداء القريب). مثل: (أصديقى تفضل)، و(أى صديقى نحن فى انتظارك)، ومثل: (أى بنى أعد على ما سمعت منى).

والقسم الثانى: يشتمل على باقى الأدوات أو الحروف وهى: يا — أى — أيا — هيا — وا . وتستخدم فى (نداء البعيد).

وقد نص علماء اللغة والبلاغة على أن «البعيد» قد ينزل منزلة «القريب» بمعنى أن ينادى على الشخص أو الشىء البعيد بأداتى النداء الخاصة بالقرب لغرض هو: إشارة المنادى إلى قرب المنادى عليه من قلبه وتمكنه من ذهنه. وذلك مثل قول المتنبى فى رسالة إلى الوالى أثناء حبسه فى السجن(١).

دعوتك عند انقطاع الرجا

ء والموت منى كحبل الوريد

(١) ديوانه : ص ١/ ٣٤٥ ، ٣٤٦.

أما الـذرقـي ومـن شأنـه

هباته اللجين وعتـق العبيـد

وقول الشاعر:

أي بلادي في القلب مثـواك

طال منفاي عن ثـراك الحبيب

ويرون أيضا أن «القريب» قد ينزل منزلة «البعيد» بمعنى أن ينادي على القريب بأداة نداء خاصة بالبعيد لثلاثة أغراض:

(أ) الإشعار بأن المنادى عليه رفيع القدر عظيم الشأن فيجعل بعد المنزلة كأنه بعد في المكان، مثل قول أبي نواس(١).

يارب أن عظمـت ذنوبـي كثـرة

فلقـد علمـت بأن عفـوك أعظم

(ب) الإشارة إلى انحطاط منزلته وهوان درجته فكأن بعد درجته في الانحطاط والتدني بعد في المسافة، مثل قول الفرزدق يفتخر بآبائه ويهجو جريرا(٢).

أولئك آبائـي فجئنـي بمثلهـم

إذا جمعتنا يا جريـر المجامـع

(١) ديوانه: ٦١٨.
(٢) ديوانه: ٩٥.

(جـ) التنبيه إلى إن السامع المخاطب لغفلته وذهوله وشروده كأنه غير حاضر مع القائل فى مكان واحد. مثل قولك لصديقك (أيا صديقى)، ومثل قول الشاعر:

أيا جامع الدنيا لغير بلاغة
لمن تجمع الدنيا وأنت تموت؟

النداء البلاغى:

ويرى البلاغيون أن النداء قد يخرج عن معناه الأصلى الحقيقى وهو كما ذكرنا (طلب الإقبال) - إلى معان أخرى يستفيدها المتلقى بمعونة القرائن والإشارات الواردة فى التركيب. ومن هذه المعانى:

١ ـ معنى الاستغاثة: مثل (يا ناصر العدل) و (يا مؤيد الحق)، و(يا مجير المظلوم).

٢ ـ معنى الإغراء: مثل قولك لمن يتظلم من حاكم أو من ظالم (يا مظلوم)، وقولك لمن يظهر فقره (يا مسكين).

٣ ـ معنى التحسر: مثل قولك فى موقف تتحسر فيه على فقدان عزيز أو رحل صديق: (يا ليته عاش)، و(ياليته بقى معنا). ومثل قول الشاعر:

أيا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا

وقول شوقي يرثي عمر المختار(١):

يا أيها السيف المجرد بالفلا
يكسو السيوف على الزمان مضاء

ومنه قوله تعالى على لسان الكافرين يوم القيامة: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾.

٤ ـ معنى الندبة: مثل قول أبي العلاء المعري:

فواعجبا كم يدعي الفضل ناقص
ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

ومنه (واكبدي)، و(واحر قلباه)، و(وا ولداه)، و(وامؤذي الطير).

٥ ـ معنى الزجر: مثل قول الشاعر:

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح
لما ارتميت ولا اتقيت ملاما

وقول الشاعر:

أفؤادي متى المتاب ألما
تصح والشيب فوق رأسي ألما

٦ ـ معنى التعجب مثل: (يا لجمال الطبيعة)، و(يا لروعة منظر الغروب)، و(يا لشجاعة الجندي المصري في حرب ١٩٧٣).

(١) ديوانه :٣/ ١٧.

٧ ــ معنى الاختصاص، والمراد به: تخصيص حكم منصب على ضمير سابق ظاهر لا حق، صورته صورة المنادى وليس منادى حقيقة مثل (أنا أكرم الضيف أيها الرجل).

ومثل (عليّ أيها الشجاع يتوقف النصر)، ومثل: (إنى أيها الرجل فقير إلى الله)، ومثل (أنا أيها الرجل أتكلم فيما يتعلق بى). فليس الغرض من النداء الملحوظ فى هذه الأمثلة طلب الإقبال، «لأن المراد بالاسم الظاهر فيها ليس المخاطب ــ وإنما المراد به المتكلم نفسه، والمرء لا يطلب إقبال نفسه، ولهذا حملت صورة النداء علي معنى الاختصاص، وامتنع إظهار حروف النداء فيها، «فقد تمخض الكلام للاختصاص كلية، وانفصل عن النداء جملة»(١).

والغرض من الاختصاص قد يكن الفخر كما فى المثالين الأول والثانى، وقد يكون إظهار المسكنة والتواضع كما فى المثال الثالث، وقد يكون لمجرد تأكيد مدلول الضمير كما فى المثال الرابع والأخير.

(١) المنهاج الواضح ص ١١٩، والبلاغة الإصطلاحية ص ١٨٩ ــ ١٩٠.

الفصـــل الثالث

بلاغة الحذف

الفصـــل الثالث

بلاغة الحذف

١ ـ مفهوم: بلاغة الحذف ومواضعه:

قد استهل البلاغيون الكلام بالحذف قبل سائر الأحوال: «لكونه عبارة عن عدم الاتيان به، وعدم الحادث سابق على وجوه، وذكره ههنا بلفظ الحذف، وفى المسند بلفظ الترك تنبيه على أن المسند إليه هو الركن الأعظم الذى تشتد الحاجة إليه، حتى أنه لم يذكر، فكأنه أتى به ثم حذف المسند، فإنه ليس هذه المثابة فكأنه ترك من أصله»(١).

ومن الثابت أن «البلاغة فى الإيجاز» أو فى وجازة التعبير وأحكامه، ومن هذا المنطلق اعتبر البلاغيون المتقدمون أن ايقاع الحذف يمثل فضيلة ومزية فى التعبير، بحيث توجد فيه قرائن وأدلة على وجود مقدر أغنت عنه القرائن والأدلة. لأن ذكره ـ كما رأوا ـ يلحق بالتعبير «تطويلا» يهدد الإيجاز المطلوب. ويدل كلامهم فى الحذف على أمر نفسى خاص بالمتلقى

---

(١) حدد أحمد مصطفى المراغى شرطين للحذف فى كتابه (علوم البلاغة ص٨٥) وهما: أن يكون فى الكلام ما يدل عليه، وإلا كان تعمية وألغازا، وأنه متى ظهر المحذوف زال ما كان فى الكلام من البهجة والطلاوة. وذكر أن المحذوف نوعان: نوع يظهر فيه المحذوف عند الإعراب كقولهم (أهلاً وسهلا)، ونوع لا يظهر بالإعراب وإنما تعلم مكانه.

(السامع أو القارئ) وهو: أن الملتقى يستهويه ويستثير نفسه ما جاء غامضًا مستترا غير ظاهر، لأن التعبير حينئذ، يتيح الفرصة لتساؤل نام ينشط الذهن.

وقد سجل عبد القاهر الجرجانى ـ قيمة الحذف فقال: إنه «باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ماتكون بيانًا إذا لم تبن»(١).

وقد تناول عبد القاهر مواضع الحذف أثناء تحليله لعدد من النصوص الشعرية، أما الموضع الأول: فيختص بالمسند إليه (المبتدأ)؛ فقد وجد أن الشعراء يحذفونه لأحوال تطلبت منهم الحذف، وأتى بأبيات أنشدهما سيبويه دليلا على ذلك، وهما:

اعتاد قلبك من ليلى عوائده ... وهاج أهواءك المكنونة الطلل

ربع قواء أذاع المسرات به ... وكل حيران ساد ماؤه خضل(٢)

«أراد (ذاك) ربع قواء أو (هو) ربع. ومثله قول الآخر:

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا ... كما عرفت بجفن الصيعل الخللا

دار لمروة إذ أهلى وأهلهم ... بالكانسية نرعى اللهو والغزلا(٣)

كأنه قال: (تلك دار). قال شيخنا رحمة الله(٤): ولم يحمل البيت الأول على الربع بدلا من الطلل لأن الربع أكثر من الطلل، والشيء يبدل مما هو

(١) دلائل الاعجاز ص ١٤٦.
(٢) خضل: الدر الصافى كأنه قطرات الماء
(٣) الصيعل: مكان، الخلل: المشى خلالها.
(٤) يقصد: أبا على الفارسى.

مثله أو أكثر منه. فأما الشيء من أقل منه ففاسد لا يتصور، وهذه طريقة مستمرة لهم إذا ذكروا الديار والمنازل»(١).

ويريد عبد القاهر من ذلك: أن الشعراء العرب يحذفون «المبتدأ» في مقام: «ذكر ديار الأحبة ومنازلهم». ولم يزد عبد القاهر على هذا. وهو يقصد بالقطع، أن سبب الحذف هو أن «ذكر الديار والمنازل مما يثير في النفوس ذكريات محببة إليها، فيزداد تعلقها بهذه الأماكن، وتمتلىء بأسمائها فتكون ماثلة أمامها، وكأنها مذكورة غير محذوفة»(٢).

ذلك أن النص الأول (اعتاد قلبك..) يفيد أن الشاعر قد اعتاد أن يتذكر صاحبته ليلى، وأن هذه الذكرى تثير قلبه بالحنين والشوق، ويضاعف هذه الإثارة «الطلل أو الأثر القديم» الذي شهد هذه المحبوبة. وعندما أراد أن يتحدث عنه وأن يسند إليه (ربع قواء) - فضل عدم ذكره لسبب وهو أنه كائن في القلب يشعر به ويكاد يراه، فهو بذلك موجود، ولا داعي لذكره. فتقول مثلاً: (ذاك الطلل ربع قواء).

ويفيد النص الثاني (هل تعرف...) أن الشاعر يذكر ديارا لم يبق منها إلا رسمها وآثارها، ولم يرد ذكر المسند إليه (تلك) لأنه ليس بحاجة إلى لفت النظر إلى دار محبوبته أو تذكير نفسه بها، لأن هذه الدار ماثلة أمامه، حيث ما زال قلبه متعلقًا بها في دار محبوبته (مروة).

ويورد عبد القاهر مثالا على حذف المسند الفعل في هذا الموضع فيقول:

---

(١) د. حسن اسماعيل عبد الرازق: النظم البلاغي ص١٧٧.

(٢) دلائل الاعجاز: ص ١٤٧.

«وكما يضمرون المبتدأ فيرفعون، فقد يضمرون الفعل فينصبون»(١). أى على المفعولية. مثل قول ذى الرمة:

ديار مية إذ مى تساعفنا ... ولا يرى مثلها عجم ولا عرب(٢)

ـ أنشده بنصب ديار على إضمار فعل، كأنه قال: «اذكر ديار مية»(٣). فكما تبين من المثال، آثر الشاعر حذف المسند إليه الفعل، فلم يقل (اذكر ديار مية)، لأنه ليس بحاجة إلى ذكره، لأن المحذوف كالمذكور، من جهة أنه ماثل حاضر دائما فى قلبه قبل سمعه وبصره.

وأما الموضع الثانى: فيختص بالقطع والإسناد: ذلك أن ثمة صيغا أو أساليب قد حذف أصحابها المبتدأ فى إطار القطع والاستئناف. يقول عبدالقاهر فى ذلك: «ومن المواضع التى يطرد فيها حذف المبتدأ «القطع والاستئناف». ويبدأون تذكر الرجل ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا فى أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ. مثال ذلك قوله(٤).

وعلمت أنى يوم ذا ... ك منازل كعبا ونهدا

قوم إذا لبسوا الحديـ ... ـد تنمروا حلقا وقدا

(١) السابق: ص ١٤٧.

(٢) تساعفنا: تساعدنا.

(٣) السابق: ص ١٤٧.

(٤) هو عمرو بن معد يكرب. ديوانه ص ٨٦ وشرح الحماسة للتبريزى ١/ ٩١.

وقوله(١):

هم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بناة مكارم وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

والمراد هم قوم وهم بناة. ومن البين أن كلا من الشاعرين قد قطع الكلام، ثم عمد إلى بناء استئنافه على حذف المبتدأ. ولم يعين عبد القاهر فن الحذف أو سر بلاغته فى هذين النموذجين أو النماذج الأخرى(٢) ولعله أراد أن الشاعر عند المدح وعند الذم أيضًا ــ تكون نفسه معنية تماما بالممدوح أو المذموم، فهو موضع الاهتمام ومركزه، وهو ماثل فى الذهن والقلب معا. ومن ثم فلا داعى لذكره، من حيث أن ذكره عبث ولا يقدم فائدة، خاصة أن الكلام المتقدم يدل عليه ويشير إليه.

وأما الموضع الثالث: وهو خاص بحذف المبتدأ أيضًا فهو ذكر الخبر موصوفا أو مقرونا بصفات خاصة. وفى ذلك يقول عبد القاهر: «ومما اعتيد فيه أن يجىء خبرا قد بنى على مبتدأ محذوف ــ قولهم بعد أن يذكروا الرجل: (فتى من صفته كذا)، و(أعز من صفته كيت وكيت)، كقوله:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتى أيادى لم تمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

ومن ذلك قول جميل:

---

(١) هو أبو البرج القاسم بن حنبل المرى. شرح الحماسة: ٤/ ٩٦.
(٢) دلائل الاعجاز: ص ١٤٧ ــ ١٤٨.

وهــل بثينة يا للناس قاضيتى دينى، وفاعله خيرا فأجزيهـا

ترنو بعينى مهاة أقصدت بهمـا قلبى عشية ترمينـى وأرميهـا

هيفـاء مقبلة عجـزاء مدبـرة ريا العظام بلا عيب يرى فيهـا

مـن الأوانـس مكسال مبتلـة خود غذاها بلين العيش غاذيها(١).

فقد حذف كل من الشاعرين المبتدأ (المسند إليه)، إذ التقدير فى النموذج الأول (هو فتى)، وفى النموذج الثانى (هى هيفاء). على اعتبار أن المسند إليه قد تقدم ذكره فى النص، أى أن الكلام السابق قد دل عليه وأشار إليه ومن العبث إعادة ذكره.

وأما الموضع الرابع: فهو خاص بحذف المسند إليه والتركيز على المسند، حيث يعمد الشاعر إلى إخفاء الكلام عن المسند إليه المحذوف، ويوجه الاهتمام إلى أحوال المسند المذكور، برصد ملامحه، وتثبيت تصرفه، متعمدا أثناء ذلك المغالطة فى إضمار المسند إليه وإخفائه. يقول عبد القاهر فى ذلك: «ومن لطيف الحذف قول بكر بن النطاح:

العيـن تبـدى الحـب والبغضا وتظهـر الإبـرام والنقضـا

درة مـا انصفتنـى فـى الهـوى ولا رحمـت الجـسد المنضـى

غضبـى . ولا واللـه يا أهلهـا لا أطعـم البـارد أو ترضـى

يقول فى جارية كان يحبها، وسعى به إلى أهلها، فمنعوها منه، والمقصود ألا ترى أنك ترى النفس كيف تتفادى من إظهار هذا المحذوف، وكيف

(١) دلائل الاعجاز : ص٢ ١٤٩ ــ ١٥٠. وديوانه : ص ٩٣.

تأنس إلى اضماره؟ وترى الملاحة كيف تذهل أن أنت رمت التكلم به؟

ومن جيد الأمثلة فى هذا الباب ـ قول الآخر يخاطب امرأته وقد لامته على الجود:

قالت سمية: قد غويت بأن رأت   حقا تناوب مالنا ووفود
غى لعمرك لا أزل أعوده   ما دام مال عندنا موجود

المعنى: «ذلك غى لا أزال أعود إليه، فدعى عنك لومى»(١)

ويظهر من هذا النص المؤيد بالشاهدين، أن كلا من الشاعر الأول والثانى، قد حذف المبتدأ (المسند إليه)، وتجنب الحديث عنه، رغم توقعنا أن يزودنا بمعلومات توضحه وتكشف عنه. وجعل هدفه: (المسند الخبر)، لأن المسند إليه مذكور فى البيت الأول من كل شاهد. أى وجد فى كل منهما أمر يدل عليه، وهو «حالة» الجدل والنقاش والتردد بين القول والرفض، التى صاحبت تجربة حبه للفتاه التى يريدها زوجة له ـ كما ظهر فى الشاهد الأول. وهو: «صفة» الغى أو الجهل التى وصفته بها زوجته ـ كما ظهر فى الشاهد الثانى. وكل منهما (الحالة ــ الصفة) خبر (مسند)، ومن ثم جاء التركيز عليه، ليتراجع حينئذ الاهتمام بالمحذوف المسند إليه.

ويوضح عبد القاهر هذا الحذف بقوله: «فتأمل الآن هذه الأبيات كلها، واستقرها واحدا، وانظر إلى موقعها فى نفسك. وإلى ما تجده من اللطف والظرف، إذا مررت بموضع منها، ثم فليت النفس(٢) عما تجد، وألطفت

(١) دلائل الاعجاز : ص ١٥١ ــ ١٥٢. الغى = الجهل .
(٢) فليت = فتشت وبحثت .

النظر فيما تحس به، ثم تكلفت أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخرجه إلى لفظك وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذى قلت كما قلت وأن رب حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد»(١). ويقول فى موضع آخر من الدلائل: «وإذا عرفت هذه الجملة من حال الحذف فى المبتدأ فاعلم أن ذلك سبيله فى كل شىء، فما من اسم أو فعل تجده فد حذف ثم أصيب به موضعه، وحذف فى الحال ينبغى أن يحذف فيها، وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره فى النفس أولى وآنس من النطق(٢).

وفى ضوء نصوص عبدالقاهر الجرجانى، والخطيب القزوينى، وسعد الدين التفتازانى - يمكن دراسة الحذف البلاغى فى مبحثين هما: حذف المسند إليه، وحذف المسند.

المبحث الأول حذف المسند إليه

ومن الثابت أن البلاغيين المتأخرين والدارسين المحدثين لعلم المعانى - قد أفادوا من نظرات عبد القاهر فى قيمة بلاغة الحذف التى تمثلت فى نصوصه واستشهاداته العديدة لنصوص الشعراء، فقد أعانتهم هذه النظرات فى تعيين طائفة من الأغراض البلاغية والأهداف الفنية لحذف الأدباء للمسند إليه، فقد حصر الخطيب الفزوينى (ت٧٣٩هـ) طائفة منها بقوله: «أما حذفه: فإما لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، وإما لذلك مع ضيق المقام، وإما لتخيل أن فى تركه تعويلا على شهادة العقل، وفى ذكره تعويلاً على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وكَمْ بين الشهادتين. وإما لاختبار تنبه السامع عند القرينة ومقدار تنبهه، وإما

(١) دلائل الاعجاز : ص ١٥١.

(٢) دلائل الاعجاز : ص ١٥٢ ــ ١٥٣.

لإيهام أن فى تركه تطيهرًا له عن لسانك أو تطهيرا للسانك عنه، وإما ليكون لك سبيل إلى الانكار إن مست إليه حاجة، وإما لأن الخبر لا يصلح إلا له حقيقية أو ادعاء، وأما لاعتبار آخر مناسب لا يهدى إلى مثله إلا العقل السليم والطبع المستقيم»(١) ثم يأتى ببعض الشواهد من الشعر والقرآن الكريم(٢). ويختم قوله عقبها: «وقيام القرينة شرط فى الجميع»(٣).

ولم يبتعد معاصره وتلميذه سعد الدين التفتازانى (ـ ٧٩١هـ) عن هذا القول كثيرًا، حيث أورد ما ذكره الخطيب(٤)، وإن كان قد مال إلى تفصيل بسيط لما قاله، وإلى التنظيم، حيث عنى بإثبات المثال أو الشاهد عقب تناول الغرض البلاغى لحذف المسند إليه. وقد عمد عدد من الدارسين المحدثين إلى تناول الأغراض البلاغية لحذف المسند إليه فى ضوء نظرات البلاغيين المتقدمين والمتأخرين، فتكلموا عن كل غرض على حدة مؤيدا بالأمثلة التى تدل على بلاغته، وإن لم يكونوا جميعًا على درجة واحدة من التفصيل والتوضيح(٥). واعتماد على ما قاله هؤلاء وهؤلاء، يمكن تناول أغراض حذف المسند إليه المبتدأ والمسند إليه الفاعل فى عدة وجوه:

الوجه الأول: الحذف الإيحائى: والمراد به: أن يتجنب القائل العبث بذكر المسند إليه، لأنه لا توجد ضرورة لذكره، ومن ثم يتوافر للتعبير

(١) الإيضاح : ص ١١٠.
(٢) الإيضاح : ص ١١٠ ـ ١١١.
(٣) السابق : ص ١١١.
(٤) شرح السعد : ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٥) انظر على سبيل المثال لا الحصر: المراغى: علوم البلاغة (٨٨٥) ود. درويش الجندى: علم المعانى (٧٥) وحامد عونى: المنهاج الواضح (٤)، ود. قلقيلة: البلاغة الاصطلاحية (١٩٩)، ود. حسن إسماعيل: النظم البلاغى: (١٧٦)، ود. عرفة: بلاغة النظم العربى (١٢٤)، ود عتيق: علم المعانى (١٣٢)

«الايجاز الفنى القائم على الايحاء، بالمحذوف». ويتحقق حذف المسند إليه المبتدأ بهذا المفهوم فى عدد من المواضع الكلامية، منها:

(١) فى جواب الاستفهام مثل قوله تعالى: ﴿وما أدراك ما هيه؟ نار حاميه﴾. المراد: هى نار حامية. وقوله تعالى: ﴿وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة أى هى نار الله. وقوله: ﴿وأصحاب اليمين ؟ فى سدر مخضود﴾. أى هم فى سدر مخضود.

(ب) بعد الفاء المقترنة بالجملة الأسمية الواقعة جوابا للشرط مثل قوله تعالى: ﴿من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ أى: فعمله لنفسه وأساءته عليها. وقوله: ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾ أى: وإن أسأتم فإساءتكم لها، وقوله: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط﴾ أى: فهو يئوس.

(جـ) بعد القول: مثل قوله تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾. أى قالوا: القرآن أساطير. وقوله ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ أى: يقولون هم ثلاثة، ويقولون: هم خمسة، ويقولون هم سبعة.

(د) القطع والاستئناف: كقول الشاعر:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه

نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

(هـ) فى حالة حصر المسند فى المسند إليه وتعيينا له حقيقة مثل قوله تعالى: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أى: الله سبحانه وتعالى عالم الغيب. أو ادعاء مثل: قولك: (وهاب الألوف) تريد فلانا من الناس مشهورا بالكرم شهرة بلغت حدا بعيدا، حتى لقد ادعى أنه لو قيل: وهاب الألوف ـ كان هو المقصود وحده.

الوجه الثانى: الحذف النفسى: والمراد به: ضيق المقام عن إطالة الكلام لدواع تتعلق بحالة القائل النفسية، فقد «تعرض للإنسان أمور يأرق لها ويضيق بها صدره فيلجئه ذلك حذف بعض أجزاء الكلام تجاوبًا مع ما يحسه من الرغبة فى الاختصار لعدم القدرة على الإطالة» (١). ومن هذه الدواعى الداعية إلى الحذف:

الداعى الأول: ضيق صدر القائل لأسباب نفسية منها:

(أ) إحساسه الحاد بحزن شديد يجعله لا يميل إلى تطويل الكلام، فيعمد إلى الاختصار بحذف جزئية منه وهى المسند إليه (المبتدأ). ويتمثل ذلك فى قول الشاعر (الشاب الظريف):

طريد ولى مأوى مباح ولى حمى … وحيد ولى صحب، غريب ولى أهل

فالشاعر مثقل بهم شديد فى حياته، تسبب فى إحساسه الدائم بضيق جعله عازفا عن الإكثار من الكلام ــ فلجأ إلى الاختصار الذى تمثل فى حذف المسند إليه المبتدأ وهو (أنا) السابقة على كل من (طريد ــ مباح ــ وحيد ــ غريب).

---

(١) حامد عونى: المنهاج الواضح ص ٤ (ط٤) ١٩٦٨.

(ب) وقد ينشأ ضيق صدر القائل وإحساسه بالسأم - عن صراع جماعات أو أحزاب أو فرق فى المجتمع عن الوصول إلى السلطة، وهو الصراع الذى يهدد وحدته، مثلما لاحظ ذلك الشاعر أحمد شوقى حيث رأى الأحزاب المصرية فى زمنه تتصارع وتتآمر ، الأمر الذى جعل المستعمر الإنجليزى يشمت بها ويرمى المصريين بالفوضى وعدم الاستقرار. فقال عازفًا عن الإطالة (١).

وإذا دعوت إلى الوئام فشاعر أقصى مناه محبة ووئام

على تقدير (أنا شاعر) - فقد حذف المبتدأ ضيقا وتبرما.

(جـ) وقد يكون الضيق فالاختصار بالحذف. بسبب الإحساس بألم جسمانى جعل القائل يشعر باليأس والضجر، فيعزف عن تطويل الكلام.. على نحو ما نرى فى قول الشاعر الذى وجه إليه شخص ما السؤال عن حاله:

قال لى: كيف أنت؟ قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

على تقدير (أنا عليل) و(حالى سهر دائم) و (حالى حزن طويل).

(د) وقد يكون سبب الضيق — إحساس القائل باليأس نتيجة الكبر والعقم. ومثال ذلك قوله تعالى حكاية عن سارة امرأة إبراهيم عليه السلام ﴿فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم﴾ أى أنا عجوز عقيم. فقد حذف المسند إليه (أنا) اختصارا لضيق صدرها عن

(١) ديوانه :ص ١/ ٢٣٥.

الإطالة بسبب اليأس.

(هـ) وقد يكون سبب الضيق: معاناة القائل من تباريح الهوى ولواعج الشوق، فيلجأ إلى اختصار كلامه بحذف المسند إليه. ومثال ذلك قولي أبي فراس الحمداني(١).

تسائلني من أنت؟ وهي عليمة   وهل بفتى مثلي على حالة نكر

فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى   قتيلك، قالت: أيهم فهمو كثر

يقصد: أنا قتيلك. فحذف المسند إليه(أنا)، للسبب المذكور. ومنه قول الشاعر:

لم تبكين؟ من فقدت؟ فقالت   والأسى غالب عليها: حبيبي

أي: الفقيد - حبيبي.

الداعي الثاني: خوف المتكلم وتوتر نفسه واضطرابها أمام فرصة سنحت وقد تضيع، أو حرصه وإخلاص حسه وتيقظ مشاعره أمام خطر محدق، فيحذف المسند إليه المبتدأ اختصارا لاقتضاء المناسبة. ومثال توتر القائل أمام الفرصة السانحة، قولك لمن ينتظر القطار فرأيته قبله: (قطار) أي: هذا قطار، ولصائد يترقب طائرا لصيده، فرأيته قبله (طائر) أي: هذا طائر. فحذف المسند إليه بغرض التنبيه السريع خوفا من ضياع الفرصة السانحة ومثال توتره أمام الخطر المحدق. قولك لم يقف في طريق السيارات المسرعة (سيارة) أي: هذه السيارة. وقولك عند رؤيتك لشخص يغرق في

(١) ديوانه: ص ٦٥.

البحر: (غريق)، ولنيران تحرق منزلاً: (حريق) وعند مشاهدتك لطائرة حربية معادية: (طائرة). والمراد: هذا غريق ــ هذا حريق ـ هذه طائرة. فقد حذف المسند إليه بغرض سرعة التحذير من الخطر المحدق.

الداعي الثالث: احساس المتكلم بالخوف من الفاعل (المسند إليه) أو عليه إذا صرح باسمه، بسبب الرهبة من القاتل. فيحذفه ويحل المفعول به محله مثل: (قتل فلان) دون أن يذكر الفاعل أى القاتل خوفًا منه. أو بسبب الميل النفسى إلى عدم الإمساك به والنيل منه مثل: (صودرت أموال فلان) إذا خفت من التصريح بالفاعل الظالم الذى أخذها، فقد تؤذيه، وكقول النابغة(١).

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد

فقد خاف الشاعر على القائل الذى أخبره بالأمر. فلم يذكره.

الداعي الرابع: احساس المتكلم بأن ذكر المسند إليه (الفاعل) لن يمثل فائدة فيعمد إلى حذفه، مثل قول الفرزدق يمدح زين العابدين(٢).

يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم

فكل من الفعل: (يغضى ويكلم) مبنى للمجهول بحذف الفاعل. إذ لا يهم المتلقى أن يعرف المغضى والمتكلم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا﴾ فقد بنى الفعلان (ذكر ــ تلى) للمجهول، وحذف الفاعل أى الشخص الذاكر والشخص التالى) لعدم تعليق الغرض بأى منهما، إذ ليس

(١) ديوانه ص ٢٦ . أبو قابوس . هو النعمان بن المنذر.
(١) ديوانه : ص ١١٤.

يعنينا قراء ومستمعين ـ أن نعرف من هما، لأن المهم هو: ذكر الله وتلاوة القرآن. وقوله تعالى: ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها﴾، وقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم﴾.

الداعى الخامس: الاحساس الغريزى بالفاعل، وقوة العلم به. مثل قوله تعالى: ﴿خلق الإنسان ضعيفا﴾ أى: خلق الله الإنسان ضعيفا. فقد حذف الفاعل لعلم المتلقى به بالغريزة، ومثل قولك: (طردت اسرائيل من سيناء) فقد حذف الفاعل وهو الجيش المصرى ـ لقوة العلم به لأنه معلوم لدى السامع والقارئ. ومن ذلك قول ليلى الأخيلية:

احجاج لا يفلل سلاحك إنما ... المنايا بكف الله حيث يراها

الداعى السادس: جهل المتكلم بالفاعل. فيحذفه. فيقول مثلا: عندما لا يعرف من كسر الاناء، وقطف الزهرة، وقلع الشجرة، ومنشىء الجامعة: (كسر الاناء)، و(قطفت الزهور)، و(قلعت الشجرة) (أنشئت الجامعة) بحذف الفاعل فى كل مثال لجهله به.

الداعى السابع: احساس المتكلم الشديد باحتقار المسند إليه الفاعل ـ وإدراكه لهوان شأنه عنده. وذلك كقول النابغة يخاطب النعمان فيمن وشي به لديه(١).

لئن كنت قد بلغت عنى وشاية ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب

(١) ديوانه ص ٧٢.

أى : إذا كان قد بلغك شخص... فحذف الشخص ـ الفاعل ـ ولم يذكره احتقارا له وتهوينا من قدره(١).

الوجه الثالث: الحذف لداعى الذكاء، فقد يحذف القائل المسند إليه «المبتدأ» بقصدين، هما: «اختبار ذكاء المخاطب «أو» اختبار مقدار ذكائه». أما حذفه بالقصد الأول وهو: (اختبار ذكاء المخاطب) فإن المتكلم بهذا الحذف يهدف إلى الكشف عن تنبه المخاطب للمحذوف أو عدم تنبهه. ايتنبه له حيث توجد قرينة دالة عليه، أم أنه غير متنبه ويحتاج إلى التصريح؟. ويتمثل ذلك فى قولك لآخر (غادر خائن) أى: الصديق غادر خائن. فيحذف المسند إليه ليختبر ذكاء السامع. ايتنبه إلى أن المسند إليه هو الصديق بقرينه ذكر (الغدر والخيانة) إذ هما المناسبان لمعنى الصداقة أم لا يتنبه؟ ومن هذا النوع قولك لشخص (نوره مستفاد من الشمس) تريد: القمر نوره ـ فتحذفه اختبارا لتنبه السامع بقرينة ذكر الشمس. ومثله: (تربتها صالحة للزراعة) تريد: الأرض تربتها صالحة للزراعة فتحذف المسند إليه اختبارا لتنبه السامع وذكائه بقرينة الزراعة... وهكذا. وأما حذفه بالقصد الثانى وهو (اختبار مقدار ذكاء المخاطب) هل يتنبه لهذا المحذوف لوجود قرينة خفية أم لا يتنبه؟ ـ فيتمثل فى مقام هو: «أن يحضر إليك شخصان تجمعك بهما صداقة، غير أن أحدهما أقدم صحبة من الآخر فتقول لآخر يعلم بهذه الصلة: (جدير بالوفاء) تريد أقدمها صحبة، فتترك

(١) الحذف فى النصوص الشعرية فى مبحث حذف المسند إليه المبتدأ أو الفاعل) ـ قد يكون لغرض آخر غير الغرض البلاغى المعين، فقد يكون بسبب المحافظة على الوزن، أما الحذف فى الآيات القرانية الكريمة فهو حذف بلاغى على جهة التأكيد.

ذكره اختبارا لمبلغ أو مدى تنبه المخاطب: أيتنبه إلى هذا المحذوف لهذه القرينة الخفية ــ وهى أن أهل الوفاء ذوو الصداقة القديمة دون حادثها ـ أم لا يتنبه؟»(١).

الوجه الرابع: الحذف التعينى أو بداعى التعين، حيث يحذف القائل المسند إليه من الكلام، لأنه يدرك تعين وتحدد هذا المحذوف فى نظر المتلقى الذى يرى أن غير المحذوف ليس محتملا وليس مقصودا فى هذا المقام، لكون «المسند لا يصلح للمسند إليه ـ أو لأن المسند قد بلغ فى المسند إليه مرتبة الكمال، أو لأن المسند إليه معهود بين المتكلم والمخاطب»(٢). ويتنوع هذا الوجه إلى نوعين هما: الـ تعين أو التحدد بحسب الحقيقة والواقع، والتعين أو التحدد بحسب المبالغة والادعاء.

أما النوع الأول: وهو التعيين بحسب الحقيقة الواقع: فمثل قولك (عالم الغيب والشهادة) تريد الله سبحانه وتعالى. فتحذف لفظ الجلالة وهو المسند إليه وذلك لأنه متعين فى القول، لأن علم الغيب والشهادة خاص بالله تعالى، وقولك: (فعال لما يريد..) أى الله... ومثل قولك (عادل فى حكمه) تريد عمر بن الخطاب، فتحذفه وهو المسند إليه. والسبب أن صفة العدالة بلغت فيه حد الكمال. وقولك: (أمير الشعراء) وتقصد «شوقى». والسبب أن أمارة الشعر قد لزمت له بإجماع شعراء عصره لبلوغها فيه حد الكمال، أو كمال الشاعرية فيه. ومثل (حضر) تريد شخصا معينا معهودا بينك وبين المخاطب.

(١) المنهاج الواضح : ص ٧ ، وبلاغة النظم العربى: ص١٢٩ ــ ١٣٠.
(٢) المنهاج الواضح : ص ٧ ، والنظم البلاغى : ص ١٩٢.

وأما النوع الثانى وهو: التعين بحسب الادعاء، حيث يدعى المتكلم تعين المسند إليه وتحدده، فمثل قولك: (هازم جيوش الفرس والروم) تريد (خالد بن الوليد) ومثل قول المادح (وهاب الألوف) أى الممدوح، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿واستوت على الجودى) أى السفينة، وهى معهودة من الكلام المسبق فى قوله: (واصنع الفلك بأعيننا). ومن ذلك قولنا: (كوكب الشرق) يعنى (أم كلثوم)، (موسيقار الأجيال) أى: (محمد عبد الوهاب). و(شاعر الشباب) أى: أحمد رامى: (وشاعر النيل) أى حافظ إبراهيم. و(أمير الشعراء) أى أحمد شوقى.

الوجه الخامس: الحقق لداعى الإنكار المحتمل، أو الحذف لتيسير الإنكار عند الحاجة إليه. فقد يذكر شخص ما فى معرض الحديث عن إحدى صفاته مثل: الكرم والكرماء، أو الشجاعة والشجعان، أو الأمانة والامناء. فيتكلم أحد الحاضرين مبديا رأيه فى هذا الشخص موضع الحديث فيقول دون أن يسميه باسمه: (بخيل)، أو (جبان)، أو (خائن الأمانة) الخ.. والمراد: هو بخيل أو هو جبان، أو خائن الأمانة. فحذف المسند إليه المبتدأ، هنا تتطلبه البلاغة، ومن ثم، فهو غرض بلاغى. لأن حذفه يعطى للقائل فرصة لإنكار نسبة هذا القول إلى نفسه عندما يوجه أحد اللوم أو العتاب على قوله إذ لو سماه فقال: (فلان بخيل) أو (فلان جبان) الخ... لما استطاع الإنكار أو التراجع عن رأيه فيه، ولما تمكن من الخروج من المأزق الذى وضع فيه.

الوجه السادس: الحذف لداعى التعجيل بسوق المسرة أو البشرى السعيدة، والاسراع بتبليغ خبر مبهج، وذلك بأن يلوح أو يشير شخص إلى كتاب صدر له قائلا: (كتابى) يريد: هذا كتابى، أو يلوح المتكلم بورقة قائلا: (خطاب التعيين)، يريد هذا خطاب التعيين، فهو يهمه أن يسرع بإدخال السرور والبهجة بسرعة على قلب المستمع إليه.

الوجه السابع: الحذف الاتباعى: أو الحذف لداعى الاتباع، والمراد به حذف المسند إليه لغرض اتباع الاستعمال الوارد بترك المسند إليه، كما فى الأمثال الواردة من نحو قولهم: (رمية من غير رام) يريدون: هى رمية موفقة ممن لا يحسن الرمى، فهو مثل يقال لمن وفق، فى عمل عفو الخاطر، وليس أهلا لمثله، ومثل قولهم: (شنشنة أعرفها من أخزم) على تقدير هى شنشنة(١).

ومن ذلك قول الشاعر:

إنما المـوت منتهـى كل حـى ... لم يصب مالك مـن الملك خلـدا

سنـة الله فـى العبـاد وأمـر ... ناطق عـن بكائـه لـن يـردا

يريد: (هى سنة الله). وهذا الأساليب وردت على هذه الصورة ليحتذى بها الشعراء فى شعرهم والنثراء فى نثرهم.

الوجه الثامن: الحذف لداعى المدح، أو الذم، أو الترحم، مع وجود قرينة فى الكلام المتقدم تدل عليه، فقد يحذف القائل المسند إليه المبتدأ ـ بقصد إنشاء المدح، مثل (الحمد لله أهل الحمد) ــ برفع أهل ـ أى هو أهل الحمد.

---

(١) المنهاج الواضح : ص ٩ الهامش.

ومنه قولهم بعد أن يذكر الممدوح: (فتى من شأنه كذا وكذا)، و(أغر من صفته كيت وكيت) كقوله الشاعر:

سأشكر عمرا ما تراخيت منيتي | أيادي لم تمنن وإن هي جلت

فتى غير محجوب الغنى عن صديق | ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

أي: هو فتى... ومثال الحذف لإنشاء الذم. (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، برفع (الرجيم) أي: هو الرجيم، ومنه قول الأقيشر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه | وليس إلى داعي الندى بسريع

حريص على الدنيا مضيع لدينه | وليس لما في بيته بمضيع

يريد: (هو سريع)، و(هو حريص)، و(هو مضيع) ومن أمثله الحذف فى الترحم: قولك (اللهم ارحم عبدك المسكين) برفع «المسكين» أى: هو المسكين.

الوجه التاسع: الحذف لداعى تكثير الفائدة باحتمال أمرين، مثل قوله تعالى: ﴿فصبر جميل﴾ أى: فأمرى صبر جميل، أو فصبر أجمل بى وأولى. والتقدير الأخير خاص بحذف المسند الخبر(١).

الوجه العاشر: الحذف لداع تعظيمى أو داع تحقيرى. بأن تصون المسند إليه عن لسانك تعظيما لشأنه، أو تصون لسانك عن ذكره احتقارا لشأنه. أما الحذف التعظيمى فنحو قولك: (رافع راية التوحيد مقوض دعائم الشرك). و(مؤسس دعائم الدولة) تقصد النبى (ﷺ). فترك ذكره صونا له عن

(١) المراغى: علوم البلاغة ص ٨٦، د. درويش الجندى: علم المعانى.

لسانك. وأما الحذف التحقيرى فمثل قولك: (مخذول مدحور)، و(ملعون)، و(مطرود من رحمة الله)، تريد إبليس فتحذفه صونا للسانك عن ذكره.

الوجه الحادى عشر: الحذف مراعاة: للوزن، والسجع، والقافية، ذلك أن القائل قد يحذف المسند إليه مراعاة للوزن المختار، مثل قول الشاعر:

على أنني راض بأن أحمل الهوى ... وأخرج منه لا علـى ولا ليـا

أى: (لا على شىء ولا لى شىء) فحذف لفظ «شىء» المسند إليه ـ لأنه لو ذكره لاختل وزن البيت. وقد يحذف المسند إليه مراعاة للسجع كقولهم: (من كرم أصله وصل حبله) بالبناء للمجهول. أى: وصل الناس حبله. حيث حذف المسند إليه الفاعل محافظة على السجع الذى يستلزم رفع الفاصلة أو الكلمة الأخيرة (حبله) من هذه الجملة، لأنه لو ذكر المسند إليه لكانت الفاصلة الأولى مرفوعة، والثانية منصوبة على المفعولية فيختل نظام السجع. ومن ذلك قولهم: (من طابت سريرته حمدت سيرته) أى: حمد الناس سيرته. فقد حذف المسند إليه (الناس) تحقيقا لفنية السجع.. وأما المحافظة على وحدة القافية فقول لبيد بن أبى ربيعة(١).

وما المال والأهلـون إلا ودائـع ... ولابـد يومـا أن تـرد الودائـع

فقد حذف الشاعر من تركيب الشطر الثانى ـ المسند إليه الفاعل ـ وهو (الناس مثلا) مراعاة لوحدة حركة الحرف الأخير من القافية، لأن قافية

---

(١) ديوانه : ٨٣.

القصيدة كلها مرفوعة بالضمة، ولولا هذا الحذف لصارت قافية البيت منصوبة وهذا عيب عروضى. وعلى هذا جاء قول الحارث بن حلزة اليشكرى فى مطلع معلقته المشهورة(١).

آذنتنـــا ببينهـــا أسمـــاء ربثاويمـــل منـــه الثـــواء

يريد أننا نكره إقامة شخص معنا نتوقع منه الأذى والشر أو نمل وجوده بيننا، وليست أسماء من هذا النوع من الناس، ذلك لأن فراقها صعب وشاق على النفوس، فقد حذف الشاعر المسند إليه (الناس مثلا) ليحقق الرفع للقافية. لأن قافية القصيدة كلها مرفوعة، ولو ذكر هذا المحذوف لصارت منصوبة . وهذا عيب عروضى.

---

(١) المعلقات السبع: ٢١٦. ثاو = مقيم، الثواء = الإقامة.

المبحث الثانى: حذف المسند

يشير هذا المبحث ابتداء إلى «حذف أحد ركنى الجملة». وهذا الحذف يتوافق مع فنية الأسلوب أو بلاغته، من جهة أنه يمثل «ايجازا» يُحكم التركيب. والبلاغة الإيجاز فى أحد تعريفاتها. خاصة إذا أورد القائل فى التركيب القرائن والأدلة على المحذوف.

وقد عبر البلاغيون المتأخرون - مثل سعد الدين التفتازانى عن «حذف» المسند بـ (الترك) فقالوا: (ترك المسند)، ولم يقولوا حذف المسند على نحو ما قالوا: «حذف المسند إليه». وقد علل التفتازانى المصطلح بقوله: أن المسند إليه هو الركن المهم والأساسى الأعظم فى التركيب، والحاجة إليه أشد من الحاجة إلى المسند، ومن هنا إذا لم يذكر فى التركيب فكأنه ذكر ثم حذف لغرض ما، بخلاف المسند، فهو ليس بهذه المنزلة أو ليس بهذه المثابة فى الاحتجاج فيجوز أن يتركه القائل ولا يأتى به لغرض (١).

وقد اتفق البلاغيون على أن ثمة أسبابا لترك أو حذف المسند، وبينوا أن من الصعب حصر أغراض تركه أو حذفه، لأنها تتنوع بتنوع مقتضيات الأحوال، ومع ذلك فإنهم تكلموا عن طائفة من هذه الأغراض، وقالوا: إن

(١) شرح السعد : ١/ ١٠٤.

تركه رهن قوعه ـ فى الجملة ـ خبرا أو فعلا. ولكنهم اشترطوا للترك حينئذ شرطا وهو: أن يدل على المتروك (المحذوف) دليل حالى أو مقالى.

أولاً: حذف المسند الخبر لأسباب:

١ ـ السبب النفسى: فقد يضيق صدر الإنسان عن الإسهاب فى الكلام، بسبب ما يعانيه من هم رآه (استبد به) فيدعوه ذلك إلى حذف بعض أجزائه وهو المسند مثلا(١). ومثال ذلك قول قيس بن الخطيم(٢):

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأى مختلف

فقد حذف من البيت المسند إلى ضمير الجماعة على تقدير (نحن راضون بما عندنا) بسبب ضيق صدر الشاعر من جراء هذا الخلاف «وإن كان يصح أن سبب الحذف هو الاحتفاظ بالوزن»(٣).

٢ ـ الاحتراز عن العبث بعدم ذكر مالا ضرورة لذكره. وهذا يزيد الكلام جمالا وقوة. ويتمثل الحذف ـ فى حدود هذا البيت ـ فى الأساليب الآتية:

أ ـ أسلوب الجملة الواقعة جوابا عن استفهام معلوم منه الخبر. ومثال ذلك: أن يسألك شخص هذا السؤال: من يجلس فى المكتبة؟ فتجيب: صديقى: أى صديقى فى المكتبة. وقد يسأل آخر: ماذا فى يدك؟ فتجيب:

(١) المنهاج الواضح : ص٨٩.

(٢) يقول: كلانا قانع برأيه راض به، وإن كنا على خلاف فكل يرى ما يتفق وحاله. فربما استحسن الحقير شخصا، وهو نفسه يستقبحه العظيم القدر.

(٣) المنهاج الواضح : ص ٨٩، ٩٠.

ديوان شعر. أي: فى يدى ديوان شعر، وهكذا..

(ب) أسلوب الجملة الواقعة بعد إذا الفجائية، بشرط أن يدل الخبر على معنى عام يفهم من الكلام مثل: (دخلت المكتبه فإذا صديقى أحمد) فالمسند الخبر محذوف وهو (موجود). والمراد: فإذا صديقى موجود. ومثل (نظرت من النافذة فإذا الطريق) والمراد: فإذا الطريق مزدحم. حيث حذف المسند الخبر. ومثل) تطلعت إلى المنصة فإذا العميد). والمقصود فإذا العميد حاضر. حيث حذف المسند الخبر (حاضر). فالخبر فى هذه الأمثلة وما يشابهها - يدل على مُعنى عام هو مجرد الوجود والازدحام، والحضور، وهو مفهوم طبعًا من التركيب.

(جـ) أسلوب الجملة المعطوفة على جملة إسمية، والمبتدآن مشتركان فى الحكم، مثل قولك للمخاطب (أنت شاعر وصديقك)، والمراد: وصديقك شاعر أيضا. حيث حذف المسند الخبر. ومن ذلبك قول الفرزدق.

وليس قولك من هـذا بضائـره   العرب تعرف من أنكرت والعجـم

والمراد: والعجم تعرفه أيضًا. حيث حذف المسند الخبر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ والمراد: وظلها دائم كذلك، حيث حذف المسند الخبر. فالخبر المسند فى هذه الأمثلة قد حذف لاشتراك المبتدأ فى الجملة الأولى الإسمية، والمبتدأ فى الجلسة الثانية فى الحكم.

٢ ـ تكثير الفائدة. ويتمثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿فصبر جميل﴾ إذ يحتمل هذا التعبير الكريم أمرين: حذف المسند أى: فصبر جميل أجمل، وحذف المسند إليه أى: فأمرى صبر جميل. ففى الحذف كما يقول التفتازانى: «تكثير للفائدة بإمكان حمل الكلام على كل من المعنيين، بخلاف ما لو ذكر المسند. فإنه يكون نصا فى أحدهما.

٤ ـ ضيق المقام مع قصدا الاختصار، كقول المتنبى(١)

قالت وقد رأت اصفرارى مَن به   وتنهـدت فأجبتها المتنهـد

فصيغة من به، أرادت بها القائلة (من المطالب به؟) أى بتحويل هذا الاصفرار إلى لون الصحة والسعادة(٢). والمحذوف فى هذا البيت يكون مسندا أو خبرا، إذا جعلنا التقدير: (المتنهد هو المطالب به) ويكون المحذوف مسندا إليه إذا جعلنا التقدير هو المتنهد(٣).

ثانيا: حذف المسند الفعل.

يحذف المسند الفعل بسبب: الاحتراز عن العبث من ذكره، وذلك لوجود قرينه أو دليل فى التركيب. ويكثر ذلك فى أسلوبين:

الأسلوب الأول هو: أسلوب الجملة الواقعة جوابا لسؤال محقق أو منصوص عليه فى التركيب مثل قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق

---

(١) ديوانه ١/٣٢٨.
(٢) البلاغة الاصطلاحية ص ٢٠٦.
(٣) السابق ص ٢٠٦.

السموات والأرض ليقولن الله﴾ أى: خلقهن الله. حيث حذف المسند الفعل (خلق) لوجود القرينة وهى خلق المذكورة، والقرينة هنا لفظية. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهن من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها. ليقولن الله﴾ أى نزل الماء وأحيا به الأرض. فحذف المسند الفعل (نزل ـ أحيا) تحرزا عن العبث لأن القرينة موجودة فى صدر الآية. وهى: الخلق والأحياء.

الأسلوب الثانى هو: أسلوب الجملة الواقعة جواباً لسؤال مقدر، مثل قول الشاعر حراز ابن نهشل يرثى أخاه يزيد بن نهشل(١):

ليبك يزيد ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

المضارع مبنى للمجهول (ليبك) كأنه قيل: من يبكى يزيد؟ فقال: ضارع أو ذليل. فترك المسند، وتقديره: يبكيه، لوجود قرينة وهى غير لفظية فهى ليست مذكورة فى الكلام.

(١) ضارع: ذليل. المختبط: الذى يأتى إليك طلبا للمعروف من غير وسيلة. الاطاحة: الإزهاب والمراد: أن الفقيد كان ملجأ للأذلاء وعونا للضعفاء.

ثالثا : حذف المعمول (المفعول به)

ذكر البلاغيون أن حذف المعمول ـ المفعول به يرجع إلى أغراض بلاغية عديدة منها:

١ ـ عدم تعلق الغرض بذكره، ولذلك ينزل الفعل المتعدى منزلة اللازم، لأن المقصود فى هذه الحالة هو: إفادة مجرد ثبوت الفعل للفاعل أو نفيه عنه، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾، إذ المعنى هو: هل يستوى من له علم ومن لا علم له؟ بقطع النظر عن نوع المعلوم. طبا أو حسابا أو تاريخا. ومن ذلك قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من ديونهم امرأتين تذودان، قال ما خطبكما؟ قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، فقال: رب أنى لما أنزلت إلى من خير فقير﴾. فقد حذف معمول (يسقون). و(تذودان)، و(يصدر)، و(سقى).

ويلاحظ أن هذه الأفعال قد وردت مطلقة بهدف أن يعرف أنه كان من الناس سقى، ومن المرأتين ذود، وأن موسى سقى لهما، أما كون المسقى أو الشارب غنما أو إبلا أو غيرهما فخارج عن الغرض. وعلى هذا تتأمل قول البحترى.

إذا أبعدت أبلت وإن قربت شفت ... فهجرانها يبلى ولقيانها يشفى

فقد حذف الشاعر المفعول به، فلم يقل أبلتنى وشفتنى، لأنه أراد أن بعدها عنه فى حد ذاته داء يؤلمه ويشفيه وأن قربهامنه راحة وشفاء يسعدانه.

٢ ـ إفادة التعميم مع الاختصار: مثل قوله تعالى: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ والمراد يدعو «جميع» الناس أو جميع عباده، فقد حذف المفعول لإفادة العموم والشمول ومن ذلك قولك (خالدا يقرأ ويكتب)، وعلى يعطى ويمنح)، و(فلان يضر وينفع) حذف المفعول فى هذه الأمثلة لأن المقصود هو: إثبات الأفعال فى عمومها للفاعل وليس المقصود التخصيص الذى يتحقق لو قلنا: (خالد يقرأ قصة أو يكتب بحثا أو يعطى الفقير أو يمنع الأذى، أو يضر الأشرار أو ينفع المساكين)، ومن البين أن حذف المفعول قد حقق إلى جانب ذلك الاختصار الذى يعد ميزة بلاغية.

٣ ـ البيان بعد الابهام: يحذف المفعول لتحقيق البيان بعد الابهام وذلك لتقرير المعنى وتثبيته فى النفس، ويغلب حذفه فى الفعل الخاص بالمشيئة أو الإرادة إذا وقع شرطا، فإن الجواب يدل عليه ويبينه ويوضحه مثل قوله تعالى: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ أى فلو شاء الله هدايتكم لهداكم أجمعين. فإنه لما قيل لو شاء علم السامع أن هناك شيئًا تعلقت به المشيئة لكنه مبهم، فإذا جىء بجواب الشرط صار واضحا، وهذا أوقع فى النفس وقوله: ﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا﴾ حذف المفعول هنا أيضا لأن التقدير: ولو شاء الله ألا يقتتلوا أو منع القتل ـ ما اقتتلوا.

(١) شرح السعد ٢/ ٤٦.

ويرى البلاغيون أنه يحسن حذف المفعول به، كما ظهر في الأمثلة السابقة، وسر الحسن هو أن تعلق فعل المشيئة بالمفعول به ليس غريبا، ومعنى هذا أن هذا التعلق إذا كان غريبا لا يحسن حذف المفعول به من التركيب. ومثلوا لذلك بقول أبي الهندام الجزاعي يرثى ابنه:

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته عليه، ولكن ساحة الصبر أوسع

«فإن تعلق فعل المشيئة ببكاء الدم غريب، فذكره ليتقرر في نفس السامع ويأنس به»(١).

٤ ــ استهجان ذكره: فقد يحذف القائل المفعول به لهذا السبب ومثاله ما روى عن السيدة عائشة فقد قالت فى الرسول (ﷺ) (ما رأيت منه ولا رأى منى) أى العورة. وقد يكون الحذف «إشارة إلى تأكيد الأمر بستر العورة حسا، ليتوافر الستر اللفظى مع الستر الحسى»(٢).

٥ ــ تمكين القائل من إنكار المفعول إذا اقتضت الحاجة إلى إنكاره: ومثاله قول القائل (لعن الله وأخزى) أى فلانا، فالمفعول معينا فيما إذا حوسب أو عوقب على قوله. ومن الواضح أن المحذوف تدل عليه القرينة، ولكن الانكار مع القرينة المجردة من التصريح أيسر من الإنكار مع التصريح.

---

(١) السابق ٢/ ٤٦.

(٢) المنهاج الواضح ص ١١٩ .

٦ ــ أن يقصد القائل توفر العناية على اثبات الفعل للفاعل دون المفعول به لهدف من الأهداف، كقول البحترى يمدح المعتز بالله ويعرض بالمستعين بالله.

شجو حساده وغيظ عــداه   أن يــرى مبصــر ويسمـــع واع

المراد أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واع أخباره، ولكنه حذف ذلك لتوافر العناية على إتيانه للفاعل، ويوهم أن المراد أن يكون «ذو رؤية وذو سمع» لأن محاسنه وأخباره مشهورة، فلا يقع البصر إلا عليها، ولا يدخل فى السمع غيرها. وكقول عمرو بن معد يكرب.

فلـو أن قومى أنطقتنى رماحهم   نطقت ولكـن الرمـاح أجرت(١)

فالمراد (أجرتنى) ولكنه حذف المفعول لذلك أيضا، فيوهم أن إجرارها كان عاما له ولغيره(٢).

٧ ــ قد يقصد القائل من حذفه الرعاية والمحافظة على الفاصلة وهى الكلمة الأخيرة من كل فقرة، أو المحافظة على رويها فى النثر، والرعاية والمحافظة على الوزن فى النظم أو الشعر. فمثال رعاية الفاصلة فى النثر قوله تعالى: ﴿والضحى والليل إذا سجى، ما ودعك ربك وما قلى﴾ أى

(١) ديوانه ص٥٦ المعنى أن حسن بلائهم فى المعركة قد أثر فى نفسه ولسانه الذى انطلق بمدحهم والثناء عليهم.
(٢) البلاغة العالية ص٦٥. وينظر رأى ابن طباطبا فى (عيار الشعر ص٤٢) فى هذا البيت حيث تناوله تحت ما سماه «التعريض الذى ينوب عن الإطالة). وأيضا ص٧٥ من كتاب: (تذوق الفن الشعرى فى الموروث النقدى والبلاغى) لصاحب هذه السطور. الانجلو المصرية ط (١) ١٩٨٩.

وما قلاك. فقد حذف المفعول مراعاة للروى، حتى يتوافق روى الكلمة (قلى) مع ما قبله (سجى) ومع ما بعده (وللآخرة خير لك من الأولى). ومثال رعاية الوزن الشعرى، قول المتنبى:

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا موج المنايا حولها متلاطم

فقد حذف المفعول لرعاية وزن البيت. فهو يريد (فأعلاها).

٨ ـ وقد يحذف القائل المفعول لتعينه بالضرورة، ومثال ذلك قولهم (رعت الماشية) يريدون «النبات» وقد جرى الحذف لتعين المحذوف، لأن الماشية لا ترعى إلا النبات.

٩ ـ وقد يكون حذف المفعول: «لدفع توهم إرادة غير المراد ابتداء»(٢).

كقول الشاعر:

وكم ذدت عنى من تحامل حادث وسورة أيام حززن إلى العظم

فحذف المفعول: «اللحم» إذ لو ذكر اللحم لربما توهم السامع قبل ذكر ما بعد اللحم يعنى «إلى العظم» ـ أن الحز لم ينته إلى العظم، وإنما كان فى بعض اللحم، فحذف دفعا لهذا التوهم.

(١) شرح السعد ٢/ ٤٩.

(٢) السابق ص٤٨ ذدت: دفعت. تحامل حادث: يقال تحامل فلان على إذا لم يعدل. سورة أيام: شدتها . حززن: قطعن.

الفصل الرابع

بلاغة التعريف

الفصل الرابع

بلاغة التعريف

١ - تعريف المسند إليه ووسائله

عمد البلاغيون إلى تناول تعريف المسند إليه قبل تنكيره، لأن التعريف فيه هو الأصل، والتنكير هو الفرع، والأصل مقدم على الفرع(١). وقيل أيضًا إن الأصل فى المسند إليه أن يكون معرفة، لأنه المحكوم عليه، والحكم على المجهول لا يفيد(٢).

وقد ذكر البلاغيون أن تعريف المسند إليه يتم بعلة وسائل كما عين النحاة وهى: التعريف بالإضمار، وبالعلمية، وبالموصولية، وبالإشارة، وبأل أو باللام. وبالإضافة.

الوسيلة الأولى: تعريفه بالإضمار. وقد بدأ به البلاغيون فقدموه على سائر المعارف، لأنه أعرف المعارف فى رأى النحويين الذين نصوا على أن أصل الضمير أن يدل على التكلم مثل (أنا ذاهب إلى المكتبة) والخطاب مثل: (أنت قادر على العطاء)، والغيبة مثل (هو عائد من السفر). وهذه الدلالة الثلاثية تهدف إلى تحقيق «تمام الفائدة» وهذا من مهمة البحث النحوى.

---

(١) شرح السعد: ١/١١١.

(٢) علم المعانى: للدكتور درويش الجندى ص ٩٤.

ولكن الذى يعنى به البلاغيون هو: «خروج كل ضمير من هذه الضمائر على المعنى الذى يدل عليه وهو : تمام الفائدة»، فقد يخرج تعريف المسند إليه بضمير المتكلم عن معناه الأصلى ليحقق أغراضا إضافية، كالضمير فى قول الرسول (ﷺ) «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» يوم غزوة بدر - يدل على الثقة بالنفس والاعتداد بها، مع الإشارة إلى أن صدقه أمر لا يجب مناقشته، فكيف يجرى الكذب على رسول يعرف الناس أصله النبيل؟ ومن ذلك قول بشار بن برد.

أنا المرعث لا أخفى على أحد ... ذرت بى الشمس للقاصى وللدانى

فقد جاء تعريف المسند إليه بالضمير (أنا)، فأفاد أن الشاعر يفخر بنفسه ويعتد بها(١). ومنه قول المتنبى(٢).

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

فالمراد من تعريف المسند إليه بالضمير هنا هو وصف شعره بالشهرة، والذيوع، وقوة التأثير التى أثرت فى الأعمى فأبصره، وفى الأصم فسمعه.

وقد يخرج تعريف المسند إليه بضمير الخطاب عن أصل وضعه ليدل على معان وأغراض إضافية. ومثال ذلك قول أمامة الخثعمية تخاطب بن الدمينة، (وهو غير موجود أمامها) قائلة:

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى ... وأشمت بى من كان فيك يلوم

(١) المرعث: المفرط. ذرت : طلعت (كناية عن الشهرة).
(٢) ديوانه : ٣/ ٣٦٧.

فالغرض الذى أفاده تعريف المسند إليه بضمير الخطاب هو: توجبه الشاعرة اللوم إلى نفسها لاستماعها إلى وعود الحبيب غير الصادقة، رغم تحذير المقربين من هذا الرجل الذى تخيلته أمامها وهى تنشد قصيدتها فوجهت إليه الخطاب. «وهذا يحدث كثيرا عند من يحب أو يكره، تراه يتخيل أن مطلوبه جالس أمامه، فيخاطبه خطاب الحاضر. وفى ذلك إفراغ لنفس الأديب أو المتكلم وتهدئة لعواطفه الثائرة»(١).

وقد يعمد القائل أو الأديب إلى «تعميم الخطاب». بأن لا يوجه كلامه إلى إنسان حاضر معين، بل إلى غير معين، مثل قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا﴾ فالخطاب لم يستهدف مخاطبا معينا هو فلان مثلا، وإنما هو موجه لكل من تمكن من الرؤية بالنظر. وهذا التعميم للخطاب يوحى بـ «ضرورة التأمل» فى الظواهر الكونية، وفى مخلوقات الله تعالى من الكواكب الدالة على قدرته الواسعة. ومن الشواهد على تعميم الخطاب الذى يتناول الإنسان فى كل الأماكن وكل الأزمنة ـ قول المتنبى(٢):

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

---

(١) بلاغة النظم العربى: ص ١٤٠.

(٢) ديوانه: ١/ ٢٨٨.

وقوله يخاطب كافورا فى أول لقاء به، وكان قلبه يتألم على فراق سيف الدولة(١):

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكن أمانيا

تمنيتها لما تمنيت أن ترى ... صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة ... فلا تستعدن الحسام اليمانيا

فمن البين أن المتنبى لم يقصر خطابه على معين من البشر، وإنما اشتمل خطابه على أى إنسان فى مختلف الأمكنة والأزمنة، أو أنه تناول كافة أجيال البشر. ومن ذلك قول شوقى(٢).

دقات قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمر ثان

وقد يخرج تعريف المسند إليه بضمير الغائب عن أصل وضعه ومعناه وهو: (تمام الفائدة كما ذكرنا) ليدل على معان وأغراض أخرى أيضًا. ولكن يشترط العلماء والبلاغيون شرطا هو: أن القائل إذا تحدث عن إنسان أو أمر غائب جاء ذكره فى الكلام أو كان فى حكم المذكور بقرينة فيه - فينبغى أن يأتى - القائل - بضمير الغائب (هو أو هى أو هما أو هن.) فمن الأمثلة التى ورد فيها المسند إليه معرفا بضمير غائب جاء ذكره فى الكلام - قول المتنبى فى سيف الدولة(٣).

(١) ديوانه : ٤/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.
(٢) ديوانه : ٣/ ١٥٨.
(٣) ديوانه : ١/ ٢٨١.

لكل امرئ من دهـره ما تعـودا   وعادات سيف الدولة الضرب فى العدا

إلى قوله بعد عدة أبيات:

هو البحر غص فيه إذا كان راكدا   على الدر واحذره إذا كان مزبدا

فإلى جانب تحقق صحة دلالة ضمير الغائب ووظيفته ــ يوحى ويشعر ـ مع إسناد البحر بحالتيه إليه ـ بطبيعة نفس سيف الدولة، التى تجنح إلى السلام والمودة، إذا أقبل عليه بالمودة والسلام، والتى تمتلئ بالغضب على من يهاجمه محاربًا. فهو: ساكن هادىء مثل البحر، إذا سكن موجه يمكن للإنسان أن يستخرج من أعماقه الدر وغيره، وهو متوتر غاضب مثل البحر الهائج فى يوم عاصف لا يكاد ينجو من موجه أحد. ولن يقدم الممدوح فى هذه الحالة إلا الشدة والعسف والقوة التى تردع المعتدين. ومن ذلك قول الشاعر:

من البيض الوجـوه بنـى سنـــان   لو أنك تستضىء بهـم أضـاءوا

هم حلـوا مـن الشـرف المعلـى   ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

فالمسند إليه (ضمير غائب) (هم) الذى يومىء إلى علو درجة هؤلاء الممدوحين، أو يشعر بارتفاع منزلتهم وعلو شأنهم بين الأقوام والقبائل.

ومن البين فى الأمثلة السابقة، أن مرجع الضمير (متكلم ـ مخاطب ـ غائب) قد أتى مصرحا به أو ملفوظا فى التركيب. ولكن قد لا يصرح بمرجع الضمير فى التركيب، أو يكون غير ملفوظ أو فى حكم الملفوظ. مثل

(١) ديوانه : ٨٣.

قوله تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ فالضمير (هو) المسند إليه - يرجع إلى المفهوم من الفعل ﴿أعدلوا﴾ وهو: العدل. وهذا كما نرى ليس لمرجعه قرينة أو دليل يدل عليه. وقد توجد قرينة للمرجع دالة عليه مشيرة إليه. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾، «المرجع وهو الشمس لم يدل عليه ذكر «العشى» والتوارى بالحجاب، وسياق الكلام الدال على فوات الصلاة. فكل أولئك قرائن تدل على أن المراد هو الشمس»(١).

وقد يكون مرجع الضمير قد تقدم حكما، حيث لم يدل عليه شيء مما ذكر من لفظ أو قرينة، وهو أمران:

الأول: أن يدعى أنه دائم الحضور فى الذهن فيستغنى عن ذكره بعد الضمير فضلا عن عدم ذكره قبله، ومن ذلك قول الشاعر:

أبت الوصال مخافة الرقباء وأتتك تحت مدارع الظلماء

ومثل (أقبل وعليه الهيبة والوقار).

والثانى: أن يذكر بعد الضمير فيتمكن معناه فى النفس بالبيان بعد الإبهام، ويطرد ذلك فى بابى (نعم وبئس)، وضمير الشأن، نحو قول زهير:

نعم امرأً هرم لم تعر نائبة إلا وكان لمرتاع بها وزرا

ونحو قوله تعالى: ﴿بئس للظالمين بدلا﴾ وقوله: ﴿قل هو الله أحد﴾.

---

(١) د. درويش الجندى: علم المعانى. ص ٩٥, ٩٦.

الوسيلة الثانية : التعريف بالعلمية : والمراد بها: تعريف المسند إليه بالعلم الدال على الذات الإلهية، أو الدال على الشخص المعين. وقد ذكر البلاغيون أن تعريفه بالعلمية يستهدف تحقيق الأهداف الآتية:

الهدف الأول: إحضار المسند إليه فى ذهن المتلقى، بمعنى أن ذكره يهدف إلى أن يتصوره المتلقى فى ذهنه ويتعين لديه أنه الفاعل المؤثر أو محور الكلام ومركز اهتمامه. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ - فقد جاءت هذه الآية الكريمة فى مناسبة أو مقام الرد على الملحدين لبيان التوحيد لهم، وهذه المناسبة اقتضت أن يكون التعريف بالعلمية دون المعارف الأخرى. ومن ذلك أن حسان بن ثابت عير الحارث بن هشام بن المغيرة (شقيق أبى جهل) لفرارهما يوم بدر بقوله:

إن كنت تاركة الذى حدثتنى ... فنجوت منجى الحارث بن هشام

ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

- فرد عليه الحارث بقوله:

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى علوا فرسى بأشقر مزيد

وشممت ريح الموت من تلقائهم ... فى مأذق والخيل لم تتبدد

وعلمت أنى إن أقاتل واحدا ... أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى

فصددت عنهم والأحبة فيهم ... طمعا لهم بعقاب يوم مرصد(١)

(١) ديوان الحماسة ١/ ٦٤، وطمرة = فرس.

والشاهد فى قول الحارث ـ البيت الأول: لأنه عبر عن المسند إليه بصيغة العلمْ قاصداً بها احضار مدلوله وهو الله سبحانه وتعالى باسمه الخاص به حتى لا يلتبس بغيره، أو حتى لا يظن أحد أن غير الله تعالى يعلم ويشهد على ما حدث، فقد لجأ إلى تعيين المسند إليه وحصره فى لفظ الجلاله، ليعطى التأثير أحاسيس الثقة والمهابة والتماسك.

الهدف الثانى: التعظيم أو الإهانة، فقد يأتى القائل بالمسند إليه معرفا بالعلمية، بقصد تعظيمه، أو بقصد إهانته وذلك عن طريق الكنى والألقاب التى تدل على معنى محمود أو مذموم، ومن الأمثلة التى ذكرها البلاغيون لتعظيم المسند إليه ـ قولك : (هزم صلاح الدين الصليبين)، و(نشر جمال الدين الأفغالى الوعى فى الشرق)، و(أبو الفضل إبراهيم خدم العربية بدقة تحقيقاته)، و(أبو فهر: محمود شاكر محقق لغوى عملاق)، و(القى أبو الخير محاضرة مثيرة)، ومن أمثلتهم لتحقير المسند إليه: (تكلم أبو جهل فأزعج الحاضرين)، و(ترك صخر المجلس فاستراح الناس)، و(حضر تأبط شرا).

الهدف الثالث : التفاؤل أو التطير (التشاؤم)، فقد يقصد القائل التفاؤل من تعريف المسند إليه بالعلمية ـ مثل (جاء سرور)، و(أقبل سعيد)، و(شرفتنا بشرى)، و(أقبلت هناء) فالمسند إليه : سرور ـ سعيد ـ بشرى ـ هناء ـ علم يدل على التفاؤل ويفيد البشارة، ويبعث الأمل. وقد يريد القائل من هذا التعريف التطير أو التشاؤم مثل (أقبل حرب)، و(السفاح فى المنزل)، و(حضر هولاكو)... إلى غير ذلك من الصيغ التى تثير فى نفس

المتلقى أحاسيس الانقباض، والانزعاج، والتشاؤم.

الهدف الرابع: الكناية عن معنى يصلح العلم للكناية عنه باعتبار أصل وضعه قبل النقل، بمعنى أن يقصد القائل إلى أن يكون المسند إليه - بالتعريف بالعلمية - كناية عن معنى يصلح العلم له(١) مثل (أبو لهب فعل كذا) كناية عن كونه جهنميا بالنظر إلى الوضع الأول. أو إلى المركب الإضافى لأن معناه ملازم النار وملابسها. ويلزمه أنه جهنمى. فيكون هذا انتقالا من الملزوم إلى اللازم باعتبار الوضع الأول. وهذا القدر كاف فى الكناية. ومثل ذلك: (أبو الشر ذهب) كناية عن كونه شريراً، و(أبو الخير حضر) كناية عن كونه خيرا ... وهكذا.

الهدف الخامس: التبرّك. فقد يذكر المسند إليه علما للتبرّك بفكرة، خاصة إذا تقدمت الإشارة إليه فى الكلام السابق، فيعاد ذكره تبركا وتيمنا. مثل (الله حسبى)، و(محمد نبينا)، و(محمد شفيعى)، و(الله الهادى).

الهدف السادس: التلذذ. فقد يلجأ القائل إلى ذكر المسند إليه معرفا بالعلمية، لأنه يجد فى نفسه الرغبة فى ذكره، ويحب أن يكرره مقدما بالتكرار أو الإعادة دليلا على ما يشعر به من وجود صبابه وهوى جامح، ويكثر هذا النوع فى شعر الغزل والنسيب والمدح. ومثال ذلك قول قيس بن الملوح:

بالله ياظبيات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

---

(١) شرح السعد ١/ ١١٣.

فقد كرر الشاعر اسم ليلى. وسياق الكلام يقتضى أن يقول (أم هى من البشر)، ولكنه مال إلى تكرار اسم محبوبته بدلا من إضماره بغرض التلذذ والاستمتاع.

الهدف السابع: التسجيل. فقد يعمد القائل إلى تسجيل حكم الخبر على السامع، ليسد الطريق عليه، فلا يفكر في الإنكار أو التراجع، مثال ذلك قول المحقق للضابط (هل اعترف خالد بما فعل؟) - فيجب قائلا (نعم اعترف خالد بما فعله). وكان من الممكن أن يكون الجواب (نعم هو اعترف بما فعله).

الهدف الثامن: التنبيه إلى غباوة السامع، فقد يورد القائل المسند إليه علما بأن يكرر ذكره، تنبيها إلى بطء فهم السامع، وقلة استجابته، وإشارة إلى أنه لا يمكنه أن يفهم المطلوب إلا بذكر المسند إليه بالإسم المظهر. مثال ذلك: لو سألت شخصًا قائلا (أصالح ذهب إلى المكتبة؟)، فيجب (نعم صالح ذهب إلى المكتبة) فقد أورد السامع اسم صالح فى الجواب، وكان بإمكانه القول: (نعم هو ذهب إلى المكتبة). أى أن يأتي بالضمير بدلا من تكرار العلم، لكنه عدل إلى العلم للغرض المتقدم ذكره وهو: التنبيه على غباوة المخاطب وبطء فهمه.

الوسيلة الثالثة: تعرف المسند إليه بالموصولية.

بحث البلاغيون أسباب أو دواعى تعريف المسند إليه بالموصولية أو بإيراده اسم موصول على نحو ما ذكر المتأخرون منهم (١). ووصفوها بأنها بلاغية، ومن هذه الدواعى:

(١) انظر: الإيضاح ص ١١٥ وشرح السعد ١/ ١١٤.

١ – إن تعريفه بالموصولية، يلقى الضوء على شخص غير معروف للمخاطب. وذلك إذا كان لا يعلم من أحوال المسند إليه المختصة به إلا الصلة(١). كقولك لصديق لك (الذى كان معنا بالأمس رجل عالم)، إذا كان صديقك - المخاطب - لا يعرف عن أحوال ذلك الرجل - المسند إليه - إلا أنه كان معكما. ومن البين أن تعريف المسند إليه هنا بإيراده اسم موصول (الذى) جعلنا عن طريق صلته (كان معنا) - نعرف من هذا الرجل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾، حيث نرى المسند إليه اسم موصول (لأن المخاطبين لم يعرفوا من أمر هذا الرجل إلا أنه آمن بموسى. وإذا فقد تعينت هذه الصلة طريقا إلى التعريف به)(٢).

٢ – قد يترتب على تعريفه بالموصولية «الاستهجان والقبح»، أو المساس بمشاعر المتلقى المخاطب فيحس بالخجل والحياء، فيجأ القائل إلى التعبير بالصلة تنزيها للسانه وحماية لسمع هذا المخاطب. ومثال ذلك قول القائل: (الذى يخرج من السبيلين ناقض للوضوء) فلا يصرح بالمسند إليه، ويذكر بدلا منه اسم الموصول. ومن ذلك قول حسان بن ثابت يخاطب أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - ويبرىء نفسه مما نسب إليه من حديث الإفك(٣).

---

(١) شرح السعد ١/ ١١٤.

(٢) المنهاج الواضح ص ٢٣.

(٣) ديوانه ص ٢٢٨.

فإن كنت قد قلت الذى زعمتموا فــلا رفعت سوطــى إلى أنامــل

وقوله:

فإن الذى قد قيــل ليس بلائــط ولكنه قــول امرىء بــى مــا حــل

فقد استهجن الشاعر ما نسب إلى السيدة عائشة - رضي الله عنها - من حديث الإفك. فلم يصرح به، وقال بدلا منه (الذى قد زعمتموا)، و(الذى قيل) فعبر عنه بالموصول فى الموضعين(١).

٣ - تقوية أو تقرير الغرض المسوق له الكلام. وذلك مثل قولك لصديق لك (غدر بك الذى وثقت به)، وذلك لأن الغرض المسوق له الكلام هو: بيان مدى غدر هذا الإنسان، فإذا كان قد وضع فيه الثقة، ثم لم يحافظ عليه، كان بذلك قد بلغ غاية الغدر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه﴾ فالغرض المسوق له الكلام هو: بيان وتقرير نزاهة يوسف عليه السلام وبعده عن خطيئة الفحشاء. وما ذكر من اسم الموصول وصلته أشد تحقيقا وتقريرا لتلك النزاهة مما لو قيل (امرأة العزيز)، أو (زليخا)، وذلك لأنه إذا امتنع عن الفحشاء مع كونه فى بيتها مما يجعل لها المقدرة والسيطرة عليه - كان فى غاية النزاهة وفى نهاية الطهارة باطنا وظاهرا. ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى:

أعياد المسيــح يخــاف صحبــى ونحــن عبيــد من خلق المسيحــا

فقوله: (عبيد من خلق المسيحا) أدل على تقرير غرضه، وهو نفى خوف

(١) النظم البلاغى ص ٢٢١.

أصحابه المسلمين ـ من قوله (عبيد الله)، وذلك لأن المعنى: أن الخالق ولا ريب أقوى بأسا وأشد ركنا وآمن ملجأ من المخلوق، فإذا أمنتم العذاب بعبادتكم للمسيح، فكيف لا يأمن أصحابى المسلمون وهم يعبدون خالق المسيح نفسه(١)؟

٤ ـ القصد إلى التفخيم والتهويل. فقد يعمد القائل إلى إحلال اسم الموصول محل المسند إليه بهدف إحداث تأثير الفخامة والتهويل أمام المتلقى مثل قوله تعالى: ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ الذى يفيد: «أن ما أحاط بأولئك العتاة المتجبرين من لجج الماء لا يدركه وهم ولا يحده وصف، تهويلا لما حلق بهم من هول الكارثة، ولأجل الوفاء بهذا الغرض عبر بـ (ما) الموصولية، إذ إن فى هذا الإبهام من معنى التفخيم والتهويل ما لا يفى به التصريح مهما بولغ فيه، وهذا ما يقصده جل وعلا تفظيعا لما حل بأولئك الطغاة العتاة جزاء عتوّهم وطغيانهم وتهويلا لما أعد لهم من جزاء عظيم».

ومن ذلك قول شوقى:

ودهى الرعيـة ما دهى فتساءلوا   فـى كل ناد: أيـن رب الـدار؟

٥ ـ تنبيه المخاطب أو غيره على خطئه. أو تخطئه المخاطب أو غيره فيما زعم. وفى مدلول الصلة ما يوحى بذلك ويشير إليه. فمثال ما فيه تنبيه المخاطب قول الشاعر عبدة بن الطبيب:

أن الذين ترونهـم أخوانـكم   يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

(١) د. درويش الجندى: علم المعانى ص ٩٨.

يحذر الشاعر فى هذا البيت أبناءه من الوثوق بمن يظنونهم أصدقاء وهم ليسوا كذلك، وينبههم إلى ضرورة الحذر منهم لأنهم يضمرون الإيذاء. ويودون إيقاع الشر بهم. وقد عبر الشاعر عن المسند إليه بالموصول (الذين) لتنبيه المخاطبين إلى خطئهم. ويستفاد هذا الغرض من وحى التعبير وسياق الكلام. ولو قال (إن جماعة فلان يشفى صدورهم أن تصرعوا) ـ لما تحقق هذا الغرض أو هذا التنبيه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾. حيث نبه المخاطبين إلى خطئهم فى دعوتهم غير الله تعالى ـ وقد يريد القائل بذكر المسند إليه اسم موصول التنبيه على خطأ غير المخاطب، ومثاله: قول عروة بن أذينة يخاطب نفسه(١):

أن التى زعمت فؤادك ملهـــــا   خلقت هواك كما خلقت هوى لها

ففى قوله: (التى زعمت فؤادك ملها) تنبيه نفسه إلى خطأ محبوبته فى زعمها أن فؤاده قد ملها وسلا عنها وتحول إلى غيرها.

٦ ــ الإشارة بإيراد، اسم موصول إلى نوع الخبر، أو الإيماء به، من حيث كونه مدحا أو ذما أو ثناء أو سبا ولوما. ومثال ذلك قوله تعالي ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا﴾، فنوع الخبر وهو: ثواب العاملين المؤمنين العاملين للصالحات يفهم من التعبير أو التعريف بالموصول وصلته. ومعنى هذا أن الموصول وصلته ـ يتضمنان ما يدل على نوع الخبر، الذى هو ثواب يستحق المدح. وأما الموصول وصلته

(١) ديوان الحماسة ٢/ ٦٣ ، ٦٤.

اللذان يشتملان على «خير ذم» أو الذى يدل على نوع الخبر وهو: الذم أو العتاب الشديد، فكقوله تعالى ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين﴾ أى صاغرين، ففى مضمون الصلة وهو: الا ستكبار عن العبادة تلميح إلى أن الخبر المترتب عليه من جنس الإذلال والعقوبة، وهذا ظاهر فى قوله تعالى: ﴿سيدخلون جهنم داخرين﴾(١) أو أن مدلول أو مضمون الصلة وهو الاستكبار يشير إلى أن الخبر من نوع العذاب وسوء الجزاء(٢) ومن ذلك قول شوقى(٣).

إن الذى مـلأ اللغات محاسنا   جعـل الجمـال وسـره فى الضـاد

يريد الشاعر بالضاد: اللغة العربية لأنها المختصة بهذا الحرف دون سائر سائر اللغات، والشطر الأول من البيت يدل بمدلوله أو مضمونه على الشطر الثانى منه.

ومن البين فى ضوء ما سبق: أن لهذا الأسلوب خاصية وهى دلالة أول التركيب على آخره، حتى ليكاد المتلقى أن ينطق بالخبر قبل أن ينطق به القائل، خاصة إذا كان هذا المتلقى يمتلك ذوقا سليما يقوم على دعائم الثقافة والدربة.

٧ ـ قد يكون إيماء القائل بنوع الخبر، وسيلة إلى غرض آخر وهو: تعظيم شأن الخبر أو التهوين منه والتحقير له. وقد يكون هذا الإيماء وسيلة

(١) د. درويش الجندى ص ٩٩.

(٢) بلاغة النظم ص ٢٢٨.

(٣) ديوانه : ١/١١٦.

إلى تعظيم أو تحقير الخبر. وقد يكون: إشعارا بأن الخبر أمر محقق.

أما الأمر الأول: فهو الذى ينص على إفادة التعظيم أو التحقير من الإيماء إلى نوع الخبر.

فمثال التعظيم قول الفرزدق يفخر على جرير(١).

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتا دعائمه أعز وأطول.

فقد عبر عن المسند إليه بالموصول، الذى يومىء إلى أن الخبر المرتب عليه، من نوع الأبنية الفخمة عند من له ذوق، غير أن الشاعر يهدف إلى غرض آخر غير هذا الإيماء، وهو «التعريض» بتعظيم شأن بيته من حيث أن بانيه هو الذى رفع السماء، وأى بناء أرفع وأروع من سماء هى من صنع ذلك القادر المبدع؟. ولو أنه عبر بغير الموصول فقال مثلا: (إن الله بنى لنا بيتا)، لتعطل جيد العبارة من تلك الحلية البلاغية لخلو المثال حينئذ من الإيماء إلى نوع الخبر»(٢).

ومثال إفادة التحقير والتهوين من الإيماء إلى نوع الخبر ـ قولك (إن الذى لا يحسن قرض الشعر أنشأ قصيدة)، و(إن الذى لا يجيد كتابة القصة ألف قصة). ففى الصلة إيماء إلى نوع الخبر وهو: «التأليف والإنشاء». ولكن الأمر المقصود هنا هو التوسل بهذا الإيماء إلى التعرض بتحقير القصيدة، أو

(١) ديوانه : ص ١١٧. سمك: رفعها. والمراد بالبيت : بيت العز والشرف لأنه المناسب لمقام الفخر.

(٢) المنهاج الواضح ص ٢٩ ــ ٣٠.

التهوين من شأن القصة، إذهما من النوع المبتذل الساقط، لأنهما من صنع من لا يحسن التأليف: أى تأليف الشعر أو تأليف القصة.

وأما الأمر الثانى: فهو الذى ينص على إفادة التعظيم أو التحقير لغير الخبر من الإيماء إلى نوع الخبر. ويتمثل التعظيم فى قوله تعالى: ﴿الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾، ففى التعبير بالموصول إيماء إلى نوع الخبر وهو «الخيبة أو الخسران». وهذه الصفة نتيجة لتكذيب هذا النبى ولكن هذا الإيماء أفاد غرضا آخر وهو: تعظيم شعيب عليه السلام، لأن تكذيبه أدى إلى هذه النتيجة السيئة. ومن الواضح أن التعظيم المستفاد هنا لغير الخبر. لأن لفظ شعيب واقع فى جملة الصلة فى المسند إليه لا فى جملة الخبر ﴿كانوا هم الخاسرين﴾. ويتمثل تحقير غير الخبر المستفاد من الإيماء إلى نوع الخبر قولك (إن الذى يخالط أهل الشر مصيره الخيبة والفشل فى الحياة). فالصلة تومىء إلى نوع الخبر وهو: (سوء العاقبة)، لأن مخالطة الأشرار أو مصاحبتهم، تؤدى بالضرورة إلى فعل الشر وارتكاب الجريمة. ولكن هذا الإيماء يشير إلى غرض آخر وهو: التعريض بتحقير شأن أهل الشر والتهوين منه. ومن البين أن لفظ (أهل الشر) واقع فى جملة الصلة لا فى جملة الخبر، ولذلك كان التعريض هنا تعريضا بتحقير غير الخبر.

وأما الأمر الثالث: فهو الذى ينص على الإشعار بأن الخبر محقق وثابت من الإيماء إلى نوع الخبر. ويتمثل ذلك فى قول عبده بن الطبيب.

إن التى ضربت بيتا مهاجــــرة بكوفة الجند غالت ودها غـــول

وتوجيه هذا الإشعار: أن الشاعر يتحسر من جفوة المحبوبة وهجرها له. حيث نزحت إلى مدينة الكوفة وأقامت فيها إقامة دائمة، ومن ثم فقد تسببت فى قطع الصلة وزوال العلاقة بينها وبينه. ففى التعبير بالصلة: «إيماء إلى أن الخبر من نوع: زوال المحبة وانصرام المودة. لأن الإنسان لا يهجر مُوطنه إلى غيره إلا إذا كان كارها لأهله، راغبا عنهم. ومع ما فى هذه الصلة من الإشارة - هى كالدليل على ثبوت هذا الجفاء وتحققه وإلا فكيف استساغت فراق الأحبة واتخذت ذلك البلد الثانى موطن إقامة دائمة(١).

وهذا المعنى مفقود فى أقوال مثل قول الفرزدق السابق (إن الذى سمك السماء...). فهو وإن اشتمل على إشارة إلى أن الخبر من نوع البناء الفخم - لكن يوجد دليل على ثبوت هذا البناء وتحققه «إذ لا يلزم من سمك السماء بناء البيت المذكور، لأن رفع السماء لا يصلح علة لبناء البيت بخلاف ما نحن فيه، فإنه يلزم عادة من الهجرة إلى بلد آخر، وضرب البيت فيه للإقامة به - زوال المحبة وتصرم حبل المودة (٢).

الوسيلة الرابعة : تعريف المسند إليه بالإشارة، وقد يأتى القائل بالمسند إليه «اسم إشارة» لتحقيق غرض بلاغى. وقد رصد البلاغيون عددا من أغراض تعريفه باسم الإشارة منها:

(١) الإيضاح ص ٢٣٢. والمنهاج الواضح ص ٢٣١.

(٢) المنهاج الواضح ص ٣١.

١ ـ أن القائل يقصد به حينئذ «أن يميز المسند إليه أكمل تمييز»(١) بمعنى إحضاره فى ذهن السامع حيث تقتضى الحال الإشارة إليه، كأن يكون المقام مقام مدح بإجراء أوصاف الرفعة عليه، وكان يكون مختصا بحكم غريب فإن تمييزه بالإشارة حينئذ أدل على أكملية تمييزه، لأن الإشارة الحسية لا يتأتى معها اشتباه أصلا(٢).

وقد عمد أحد الدارسين إلى التماس سر تمييز المسند إليه أكمل تمييز باسم الإشارة، فقال: إنك إذا أشرت إلى شىء فكأن هذا الشىء ـ وإن كان معنى من المعانى ـ موجود أمامك فعلا، ولهذا فإنك تشير إليه. إذ لا يشار إلا إلى موجود. وبإشارتك إليه دون غيره تكون قد ميزته عن غيره مما لم تشر إليه مما هو موجود معه، بخلاف (العلم) مثلا. فإنك إذا قلت (محمد) مثلا فإن هذا الاسم وإن كان قد وضع لذات معينة فإن ثمة مسميات أخرى بهذا الاسم فلا يتم تمييز المسند إليه أكمل تمييز(٣) ومن البين أن المشار إليه يجب أن يكون محسوسا.

فأما تمييز المسند إليه بالإشارة قصدا إلى المدح ـ فكقول ابن الرومى يمدح أبا الصقر الشيبانى(٤).

هذا أبو الصقر فردا فى محاسنه   من نسل شيبان بين الضال والسلم

---

(١) شرح السعد ص / ١٨٨.
(٢) د. درويش الجندى: علم المعانى ص ١٠١.
(٣) النظم البلاغى ص ٢٣٧.
(٤) الضال: شجر السدر البرى، السلم: شجر ذو شوك. و(بين الضال والسلم) كناية عن عزهم، لأن الأشجار بالبادية هى مجد العرب وعزهم.

فقد عبر ابن الرومى عن المسند إليه باسم الإشارة، قاصدا تمييزه تمييزا كاملا اقتضاه مقام المدح. ومن ذلك قول حافظ إبراهيم فى رثاء مصطفى كامل:(١).

أيا قبر هذا الضيف آمال أمة فكبر وهلل وألق ضيفك جاثيا

فقد عبر عن المسند إليه باسم الإشارة على كمال التمييز لغرض الإشارة والتنويه بالزعيم الراحل الذى تجمعت فيه آمال الأمة.

وأما تمييز المسند إليه باسم الإشارة قصدا إلى تمييزه تميزا كاملا لإظهار الاستغراب فكقول الشاعر:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

الشاهد: (هذا الذى) حيث أتى الشاعر بالمسند إليه اسم إشارة لتمييزه تميزا كاملا لإظهارا لا ستغراب من أنه اختص بحكم غريب وهو (حرمان العاقل وأعطاء الجاهل). وهذا أمر يسبب الحيرة للعقول ويجعل العالم الراسخ فى علمه زائغ العقيدة مسلوب الرشاد.

٢ ـ التعريض بغباوة السامع، من جهة أن الأشياء عنده لا تتميز إلا بالإشارة الحسية، مثل قول الفرزدق لهشام بن عبد الملك، عندما تجاهل على ابن الحسين غيرة وحنقا وحقدا، لما رأى إكبار الناس له واحتفائهم به دونه(٢):

(١) ديوانه : ص ٤٦٣.
(٢) ديوانه : ص ١١٧.

هذا الذى تعرف البطحاء وطأتـه — والبيت يعرفه والحل والحـرم

هذا ابن خير عباد الله كلهـــم — هذا التقى النقى الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلــه — بجده أنبياء الله قــد ختمــوا

فمن البين أن الفرزدق قد أورد المسند إليه اسم إشارة فى هذه الأبيات لغرض وهو: التعريض بغباوة السامع الذى لا يدرك الحقائق أو الوقائع والمعانى السامية - إلا بالإشارة الحسية. وهذه الإشارة الحسية إنما هى رد على التجاهل الذى بدر من هشام بن عبد الملك تجاه رجل أجل من أن يخفى على أحد. ومنه قول الفرزدق لجرير الذى يعرف أباء وأجداد الفرزدق ولكنه فى هذا المقام بدأ كما لو كان غير عالم، فعمد الفرزدق إلى الإشارة إلى آبائه متخيلاً أنهم حاضرون أمام جرير تعريضا بغبائه أو بتجاهله لهم(١):

أولئك آبائى فجئنــــى بمثلهـــم — إذا جمعتنا يا جريـــر المجامــــع

٣ ـــ بيان حال المسند إليه فى القرب أو البعد أو التوسط. فيقال فى بيان حال القرب (هذا خالد ـ هذه كتب)، وفى بيان حال البعد (ذلك تاريخ مضى ـ ذلك يوم الوعيد)، وفى بيان حال التوسط (ذاك حدث انتهى ـ ذاك رأى استقر).

٤ ـــ تعظيم المسند إليه أو تحقيره بإشارة القريب. فمثال التعظيم عن طريق استعمال اسم الإشارة القريب قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدى

---

(١) ديوانه : ص ٩٣.

للتى هى أقوم﴾، وقوله: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾، فقد عبر عن المسند إليه فى الآيتين الكريمتين باسم الإشارة الموضوع للدلالة على القريب بقصد تعظيمه، تنزيلا لقربه من النفس منزلة قرب المسافة. وسبب دلالته على التعظيم «أن المحبوب عادة يكون مخالطا للنفس حاضرا فى الذهن، لا يغيب عن الخاطر، فتعظيمه يناسبه القرب المكانى على هذا التقدير»(١).

ومثال التحقير عن طريق استعمال اسم الإشارة القريب قوله تعالى: ﴿وما هذه الحياة إلا لهو ولعب﴾ - فقد عبر سبحانه عن المسند إليه بإشارة القريب: لقصد تحقير المشار إليه تنزيلا لدنو منزلته وانحطاط قدره منزلة قرب المسافة، وسبب دلالته على التحقير، «أن الحقير عادة لا يمتنع على الناس، بل يكون قريب الوصول إليه سهل التناول مبتذلا واقعا بين أيديهم وأرجلهم فتحقيره حينئذ يناسبه القرب المكانى على هذا الاعتبار»(٢).

٥ ـ تعظيم المسند إليه أو تحقيره بإشارة البعيد، فمثال التعظيم باستعمال اسم الإشارة البعيد قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز فى شأن يوسف عليه السلام: ﴿فذلكن الذى لمتننى فيه﴾ - لم تشر المرأة بالبعد تنزيلا لبعد درجته وسمو منزلته - منزلة بعد المسافة، وللإشارة إلى علو منزلته فى الحسن البالغ حد الكمال تمهيدا لإبداء العذر فى افتتانها وإغرامها به. ومثله قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾، حيث أشير إلى الكتاب باسم الإشارة البعيد (ذلك) تعظيما لشأنه وبعد منزلته. ومن ذلك قول الفرزدق يفخر على

(١) المنهاج الواضح ص ١٧.
(٢) السابق ص ١٧.

جرير ويتحداه:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ــ قد عبر بإشارة البعيد إيماء إلى علو منزلة آبائه وارتفاع مكانتهم. ومن ذلك قول الحطيئة يمدح قومه ويشيد بهم(١).

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

ــ حيث أتى بالمسند إليه اسم إشارة للبعيد ليدل على سمو قدر قومه وبعد مكانتهم . وسبب دلالة إشارة البعيد على التعظيم هو «أن العظيم عادة يتأبى على الناس وينأى عنهم لعزته ورفعة شأنه، فتعظيمه حينئذ يناسبه البعد المكانى على هذا التقدير»(٢).

ومثال استعمال اسم الإشارة البعيد لغرض تحقير المشار إليه والتهوين من شأنه ـ قوله تعالى: ﴿أرأيت الذى يكذب بالدين، فذلك الذى يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين﴾ ـ حيث ورد المسند إليه اسم إشارة للبعيد قصدا إلى تحقيره بحرمانه من القرب منه، لأن الذى يدع اليتيم يتصف بالخسة والحقارة. وسبب دلالة اسم الإشارة هنا على التحقير هو: «إن الحقير شأنه ألا يلتفت إليه، ولا يعرض للخاطر لنفرة النفس منه، فتحقيره يناسبه البعد المكانى على هذا الاعتبار»(٣).

---

(١) ديوانه ص ٤١.
(٢) المنهاج الواضح ص ١٩.
(٣) السابق ص ١٩.

٦ ــ التنبيه على أن المشار إليه الموصوف بوصف أو مجموعة صفات، جدير من أجل ما وصف به باستحقاقه ما ذكر بعد اسم الإشارة من جزاء حسن أو سيء. فمثال استحقاق المشار إليه الجزاء الحسن المحمود قوله تعالى: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾، فالله تعالى يشير بـ (أولئك) إلى «المتقين» فى أول سورة البقرة، بعد أن وصفهم بعدة أوصاف كريمة وهى: الإيمان بالغيب، وأقامة الصلاة ، والانفاق من الرزق، تنبيها على أن المشار إليهم جديرون من أجل تلك الأوصاف، ويستحقون الفوز بالهداية فى الدنيا والفلاح فى الآخرة. ومن ذلك قول حاتم الطائى:

ولله صعلوك يساور همه ... ويمضى على الأحداث والدهر مقدما
إذا ما رأى يوما مكارم أعرضت ... تيمم كبراهن من ثمت صمما
ويغشى إذا ما كان يوم كريهة ... صدور العوالى وهو مختضب دما
إذا الحرب أبدت ناجذيها وشمرت ... وولى هدان القوم أقل معلما
فذلك أن يهلك فحسنى ثناؤه ... وإن عاش لم يقعد ضعيفا مذمما

فالمشار إليه بـ (ذلك) ـ هو صعلوك أو فقير. وقد عدد الشاعر عددا من خصاله الكريمة وهى: المضى على الأحداث فى إقدام، وخوض كبرى المعارك وشجاعته فى الحرب، ثم عقب على ذلك كله بقوله: (فذلك أن يهلك) بغرض التنبيه ولفت الأنظار إلى أن المشار إليه (الصعلوك) يستحق حسن الثناء إذا مات ـ ويستحق التكريم إذا عاش.

ومثال استحقاق المشار إليه للصفات المذكورة بعد اسم الإشارة التى

تتلخص فى «الجزاء السيىء» - قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾. - فقد أشير إلى الكاتمين للأمور التى أنزلها الله تعالى إليهم بـ (أولئك) للتنبيه على أنهم يستحقون هذا الجزاء الصارم من أجل ما وصفوا به»(١).

الوسيلة الخامسة: تعريفه أو تحليته بـ (أل) أو بـ (اللام).

من دقة التركيب البلاغى وسلامته وقوة تأثيره، أن يحرص القائل أو الأديب على تعريف المسند إليه بـ (أل). وقد دعا هذا الدارسين إلى الوقوف عند هذه الظاهرة الأسلوبية، لتعيين خصائصها وتحديد مزاياها الفنية، فمن خصائصها أنها «تشير إلى شىء فى الأسلوب ذكر قبلها على أى صورة كان - فتربط الأسلوب بعضه ببعض، فتجعله حيا وتوقظ ذهن القارىء وتحركه وتشحذ همته، وتراها أداة مفضلة للموازنة بين جنس وجنس إذا أنت عجزت عن الموازنة التفصيلية بين فرد وفرد لاستحالة الاستقراء أو خوف الوقوع فى محظور مثلا، كما تجعل أسلوب الكاتب يعتمد على ذكاء القارىء ومعلوماته الحية بنفسه وبغيره وبشئون الحياة. وهنا يتجلى أثر الأدب الحى الصادق فى الفرد والمجتمع»(٢).

ويذكر البلاغيون أن المسند إليه قد يأتى فى كلام القائل الأديب معرفا

---

(١) المنهاج الواضح ص ١٩، ٢٠.

(٢) د. عبد العزيز عبد المعطى عرفة. من بلاغة النظم العربى، عالم الكتب ١٩٨٤، ١/ ١٥٤.

بأل، وأن المعرف بأل ينطوى على أحد سببين، فهو إما بسبب وجود أمر معهود أو معروف أو متفق عليه بين القائل والمخاطب، وإما بسبب استخدام المعرف بأل للإشارة إلى الحقيقة نفسها. ويمكن حصر ما ذكره البلاغيون الذين اعتمدوا على ذلك فى وجهين:

الوجه الأول: التعريف بأل العهدية أو الدالة على شىء من أفراد الحقيقة واحدا كان هذا الشىء أو أكثر. وهو معهود أو معروف بين القائل والمخاطب ويسمى البلاغيون (أل) فى حدود هذا الوجه بـ لام العهد الخارجى. وهى أنواع:

(أ) لام العهد الخارجى الصريحى: وهى تشير إلى أمر معهود بين القائل والمخاطب، وذلك لتقدم ذكره فى الكلام صراحة. مثل قوله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاه فيها مصباح، المصباح فى زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب درى﴾. فكل من المصباح والزجاجة مسند إليه معرف بأل للإشارة إلى أمر معهود صريح خارجى لتقدم ذكره فى قوله (فيها مصباح). وفى (فى زجاجة). ومثل قولك: (صنعت فى رجل جميلا فلم يحفظ الرجل هذا الجميل). ومن ذلك قولك (ألقيت قصيدة شعر، فأثرت القصيدة فى جمهور المستمعين). فلفظ القصيدة مسند إليه. وقد عرف بأل، للإشارة بها إلى أمر معهود خارجى صريح لتقدم ذكره صراحة فى قوله (ألقيت قصيدة شعر).

(ب) لام العهد الخارجى الكنائى. وهى تشير إلى أمر معهود بين المتكلم والمخاطب. وذلك لتقدم ذكره فى الكلام - كناية - كما قوله تعالى حكاية

عن أم مريم ﴿رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم، فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها إنثى، والله أعلم بما وضعت . وليس الذكر كالأنثى﴾. فلفظ الذكر - وهو لم يتقدم ذكره صراحة - قد عرف بأل بقصد الإشارة بها إلى لفظ (ما): (ما فى بطنى محررا). ولفظ (ما) مبهم يعم بحسب وضعها الذكور والأناث. وهو كناية عن الذكر على أساس أن التحرير خاص بالذكر . حيث كانوا لا يعتقون من الأولاد ليكونوا خدما لبيت المقدس - إلا الذكور.

(جـ) لام العهد الخارجى. وهى التى تشير إلى أمر معهود معروف بين المتكلم والمخاطب، ولم يتقدم ذكر هذا الأمر المعهود فى الكلام لا صراحة ولا كناية ، ولكن للمخاطب عهد ومعرفة به:

أ - أما بحضور المشار إليه بذاته كقولك لشخص يجلس معك (الشمس مشرقة) فلفظ الشمس مسند إليه معرف بأل للإشارة إلى معلوم للمخاطب بطريق الحضور.

ب - وأما بعلم المخاطب له فقط أو بمعرفته له. مثل (حضر الرئيس) إذا لم يكن فى البلد إلا رئيس واحد والمخاطب يعلم ذلك. وهذه اللام تسمى لام العهد العلمى.

الوجه الثانى: القصد من تعريف المسند إليه بـ (أل) هو الإشارة إلى نفس الحقيقة. وهى التى يكون مدخولها أو الأمر الذى دخلت عليه - موضوعا للحقيقة والماهية(١) ويطلق البلاغيون ثلاثة أسماء على (أل) فى إطار هذا الوجه.

١ - لام الحقيقة أو الجنس أو الطبيعة. وهى التى يكون مدخولها مرادا به

(١) المنهاج الواضح : ص ٣٤.

الحقيقة نفسها دون إرادة ما يندرج تحت الحقيقة من أفراد وأجزاء. مثال ذلك قولهم: (الرجل خير من المرأة) ، و(الحرير أفضل من القطن)، و(الذهب أغلى من الفضة) وغير ذلك مما يكون المقصود به الحكم على الحقيقة نفسها، بمعنى أن حقيقة القطن، وحقيقة الذهب أغلى من حقيقة الفضة... وهكذا. وهذا لا ينافى أن بعض أفراد حقيقة المرأة خير من بعض أفراد حقيقة الرجل . كالسيدة عائشة أم المؤمنين، وأن بعض أفراد حقيقة القطن يفضل بعض أفراد حقيقة الحرير، كأن يكون الحرير من النوع الردئ.. وهكذا(١).

وقد جاء التعريف بـ (أل) فى هذه الأمثلة وما يشابهها ـ مختصا بالموازنة والمفاضلة: «ليغنى عن الاستقراء والتفصيل والإحصاء، إذ لا يستطيع القائل أن يحصى أفراد الجنس فردا فردا ويستقرىء مميزاتهم ثم يحكم على كل فرد من الجنسيين فردا فردا»(٢).

ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى (٣):

الخل كالماء يبدى لـه ضمائره مـع الصفاء، ويخفيها مع الكدر

فالمعنى أن الصديق يبدى لك ما يضمره إذا صفا لك. أما إذا جافاك فإنك لا ترى منه شيئا فهو كالماء تستشف ما تحته عند صفائه ولا ترى ما تحته

(١) السابق : ص ٣٥.
(٢) من بلاغة الفظ العربى ص ١٥٧.
(٣) الخل = الصديق: ضمائره = ما يخفيه ويضمره من مودة وحب وغيرهما والمراد : جنس الخل وليس خلا معهودا معلوما.

عند كدره. فالحكم بالتشبيه على حقيقتى الماء والخل لا على خل بعينه أو ماء بعينه(١).

٢ ـ لام العهد الذهنى: وتعنى بالإشارة إلى بعض مبهم غير معين أو فرد من أفراد الحقيقة، لقرينة دالة، مثل قوله تعالى: ﴿وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾ فليس المراد حقيقة الذئب، لأن الحقيقة من حيث ذاتها أمر لا وجود له خارجا حتى يتحقق منه أكل وشرب أو هى أمر معنوى لا يؤكل ولا يشرب، وليس المراد فردا معينا من أفراد الحقيقة، إذ لا عهد ولا علم فى الخارج بذئب معين، ومن هنا فقد تعين أن يعقوب يخشى أن يأكل ابنه ذئب ما من أفراد حقيقة الذئب. ومن ذلك قول الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبنى   فمضيت ثمت قلت لا يعنينى

فليس المراد باللئيم حقيقته، لاستحالة المرور على مالا وجود له خارج الأعيان ولا فردا معينا منه، إذ لا عهد له به، فتعين أن يكون المراد فردا غير معين من أفراد الحقيقة(٢). وبناء على هذا فإن كلا من لفظ (ذئب)، و(اللئيم) مسند إليه وهو معرف بأل. والمراد به فرد من أفراد حقيقة الذئب، أو فرد من أفراد حقيقة اللئام.

٣ ـ لام الاستغراق: وتعنى الإشارة إلى جميع أفراد الحقيقة واستغراقها استغراقا حقيقا بحيث يراد كل فرد مما يتناوله اللفظ بحسب اللغة. وهذه اللام تتنوع إلى نوعين:

---

(١) المنهاج الواضح ص٣٥، ومن بلاغة النظم العربى ص ١٥٧.

(٢) المنهاج الواضح : ص ٣٦.

النوع الأول: لام الاستغراق الحقيقى. وهى التى يكون مدخولها مرادا ومستهدفا به كل فرد مما يتناوله اللفظ وضعا، كما فى قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفى خسر﴾. فإن لفظ الإنسان المسند إليه ـ جاء معرفا بـ (أل)، والمراد به جميع الأفراد التى يتناولها هذا اللفظ (الإنسان) بحسب الوضع اللغوى، بدليل مجىء الاستثناء بعد ذلك فى قوله: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إذ إن شرط الاستثناء دخول المستثنى منه. ومن ذلك قولنا (الغيب يعلمه الله) ـ فلفظ الغيب يتناول جميع الأفراد بحسب الوضع اللغوى للفظ الغيب، بمعنى أن كل أفراد الغيب لا تخفى على الله. والقرينة الدالة على ذلك: استحالة أن يقتصر علمه تعالى على بعض الغيوب دون بعض.

والنوع الثانى: الاستغراق العرفى. وهى التى يكون مدخولها مرادا به كل فرد مما يتناوله اللفظ عرفا. مثل (نفذ العمال أمر المدير) فإن المراد جميع الأفراد التى يتناولها لفظ العمال بحسب العرف، أى عمال مصنع المدير، لا عمال الدولة بأسرها، لأنه ليس فى وسع المدير أن يبسط نفوذه على عمال الدولة جميعا.

الوسيلة السادسة :تعريفه بالإضافة: إذ يرى البلاغيون أن تعريف المسند إليه بالإضافة يحقق طائفة من المزايا البلاغية منها:

١ ـ تختصر الإضافة الطريق إلى احضار المسند إليه فى الذهن، وتدل فى نفس الوقت على الاعتزاز بالملكية. مثل قول الطالب (كتابى مفيد) وقول المغنى (صوتى جميل)، فلفظ كل من (كتابى)، و(صوتى) أخصر من

قول القائل: الكتاب الذى أملكه مفيد، أو الصوت الذى أتميز به جميل، وفي الإضافة كذلك ـ اعتزاز القائل بما امتلكه، بدليل أنه قد أضاف الكتاب أو الصوت إلى نفسه دون شعور بالحرج. ومن ذلك قول جعفر بن علية الحارثى:

هواى مع الركب اليمانى مصعد   جنيب وجسمانى بمكه موثق (١)

فكلمة (هواى) معرفة بالإضافة، حيث أضيفت (هوى) إلى ياء المتكلم الدالة على الملكية. وقد ترتب على ذلك: اختصار الطريق أو سرعة إحضار المسند إليه إلى ذهن السامع. «وقد دل الاختصار على تقسية الشاعر حيث يضيق بالسجن من ناحية، ويشتد ولهه وأساه على فراق حبيبته من ناحية أخرى. والإيجاز شاهد على ذلك . وفيه المحافظة على وزن الشعر أيضا»(٢).

٢ ــ تعظيم شأن المضاف إليه، أو المضاف أو غيرهما، فمثال تعظيم شأن المضاف قوله تعالى: ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان﴾، حيث عظم الله تعالى شأن المضاف (عبادى) المسند إليه بإضافته إلى الياء. ومن ذلك قوله (خادم المدير قادم) فقد عرف المسند إليه (خادم) بالإضافة إلى المدير، وقد اكتسب لفظ خادم بذلك التعظيم. ومثال تعظيم شأن المضاف إليه قول القائل: (خادمى احضر الصحف)، فالمسند إليه خادم عرف بإضافته إلى

(١) يبدو من البيت أن الشاعر كان مسجونا بمكة فى جناية. وقد زارته محبوبته مع ركب من قومها. فلما رحلت قال فيها هذا البيت. وهواى: أى الذى أحبه. المصعد: الذى أبعد فى السير. جنيب: المستتبع من جنب البعير إذا قاده إلى جنبه.

(٢) من بلاغة النظم العربى ص ١٥٩.

الياء. وقد نتج عن ذلك إحساس بأن المتكلم يريد تعظيم نفسه بأنه يتخذ خادما يخدمه. ومثال تعظيم غيرهما (وكيل الوزير سلم على خالد)، أو (خادم الوزير سأل عن صحة علاء) فأنت بلا شك تريد تعظيم خالد بأن وكيل الوزارة سلم عليه، كما تريد تعظيم علاء بأن خادم الوزير سأل عن صحته.

٣ ـ تحقير المضاف إليه أو المضاف أو غيرهما، فتحقير شأن المضاف مثل (أبو المجرم حضر) ففى الإضافة تحقير للمسند إليه المضاف إليه أبو المجرم. وتحقير شأن المضاف إليه مثل (قريب فلان لص) ففيه تحقير للمضاف إليه وهو فلان بأن قريبه لص. ومثال تحقير غيرهما (قريب اللص يزور فلانا). ففيه تحقير لفلان بأن قريب اللص يزوره.

٤ ـ أن يغنى التعريف بالإضافة عن تفصيل متعذر، أو تفصيل متعسر. فمثال المتعذر تفصيله قولك (اتفق أهل الحى على كذا) و(اتفق أساتذة الجامعات على كذا). فقد أتى بالمسند إليه مضافا (أهل ـ أساتذة) لتعذر تعداد كل من كان على حق، أو كل أساتذة الجامعات. ومثل (أدباء الأقاليم حضروا الاحتفال) فإنه يتعذر على مقدم الحفل أن يفصل خوفا من الإحراج فى تقديم البعض على البعض بدون مقتض لذلك. ومثال المتعسر تفصيله قول حسان بن ثابت(١):

أولاد جفنة حول قبـر أبيهـم ... قبر ابن ماوية الكريم المفضـل

---

(١) ديوانه ص ١٢٢.

وقول مروان بن أبي حفصة:

بنــو مطر يوم اللقاء كأنهـــم   أسود لها فـى غيل خفـا أشبل

فقد تعسر حصر أفراد القبيلة، ولذلك لجأ إلى الإضافة . ومثال ما كان فيه ترك التفصيل هو الأرجح وإن كان متيسرا قول الشاعر:

قومى هــم قتلـوا أميم أخــى   فـاذا رميت يصيبنــى سهمــى

الشاهد فى قوله (قومى) حيث أضاف المسند إليه (قوم) إلى ياء المتكلم. وقد أغنى الشاعر بهذه الإضافة عن تفصيل رأى أن تركه أرجح لعلة وهى: أن تفصيل أسماء قومه يعتبر تصريحا بذمهم، والتصريح بالذم ينتج عنه حقدهم عليه ونفورهم منه، مع أنه فى حاجة إليهم لأنهم قومه الذين يعتز بهم، ويجد القوة والعزة إلى جوارهم.

٥ ـ أن تحتوى الإضافة على اعتبار لطيف أو «تتضمن لطفا مجازيا، إذا كانت لأدنى ملابسه بين المضاف والمضاف إليه(١). وذلك مثل قول الشاعر:

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة   سهيل أذاعت غزلها فى الأقارب

فقد أضاف الشاعر المسند رليه (كوكب) إلى لفظ (الخرقاء) لعلة لطيفة

(١) البلاغة العالية ص ٧٥.

وهي: الإشارة إلى أن هذه المرأة كسولة ومهملة وغافلة عن القيام بشئونها. فهي لا تفيق إلا على ضوء هذا النجم الذي يؤذن طلوعه بحلول فصل الشتاء. وكأنما هو كوكبها، وكأنما خلق لأجلها(١). أو أن الشاعر يصف امرأة حمقاء بأنها «لا تتذكر كسوة الشتاء إلا إذا دهمها، فتستعين بأقاربها. وقد أضاف الكوكب إليها لأنه هو الذي يذكرها بتلك الكسوة. والإضافة في هذا لأدنى ملابسة كما هو ظاهر»(٢).

(١) يريد أن المرأة الحمقاء هي التي لا تستعد في الصيف للشتاء بإعداد الغزل. حتى إذا طلع الكوكب المذكور في ابتداء الشتاء وزعت غزلها على قريباتها ليغزلنه. وهذا سبب كاف لوصفها بالحمق.

(٢) البلاغة العالية ص ٧٦.

تعريف المسند

قال الخطيب القزوينى فى تعريف المسند «وأما تعريفه فلإفادة السامع إما حكما على أمر معلوم له بطريق من طرق التعريف بأمر أخر له كذلك، وإما لازم حكم بين أمرين كذلك»(١) ويؤخذ من هذا النص أن المتلقى يفيد من تعريف المسند أمرين:

الأول: لازم الحكم أو لازم الفائدة. مثل قولك لمن أثنى عليك بالغيب: (الذى أثنى على بالغيب أنت) معرفا إياه أنك عالم بذلك.

الثانى: الحكم أو فائدة الخبر. مثل قولك تعرف أن له أخا ويعرف إنسانا يسمى زيدا أو يعرفه بحفظ التوراة، أو تراه بين يديه لكن لا يعرف أن ذلك الإنسان هو أخوه - إذا قلت له (أخوك زيد) أو (أخوك الذى يحفظ التوارة) أو (أخوك هذا) فقدمت الأخ، أو إذا قلت (زيد أخوك)، و(الذى يحفظ التوراة أخوك)، أو (هذا أخوك)، فأخرت الأخ معرفا له فى جميع ذلك أن أحدهما الآخر(١).

ونستخلص من هذا النص حقيقتين: الأولى : تعريف المسند يستلزم تعريف المسند إليه فليس في كلام العرب مسند إليه نكرة. والثانية: أن تعريف المسند يكون لعدة أغراض بلاغية.

١ ـ إفادة المخاطب الحكم به على مسند إليه معرفة، وذلك إذا كان

(١) الإيضاح ص ١٨٨.
(٢) مفتاح العلوم للسكاكى ص ١٠٢.

المخاطب يجهل هذا الحكم قبل أن نقول له. كما فى مثال (أخوك زيد)... الخ وهذا الغرض يسميه البلاغيون فائدة الخبر.

٢ ــ إفادة المخاطب أن المتكلم يعلم حقيقة الحكم بالمسند المعرفة على المسند إليه المعرفة، وذلك إذا كان المخاطب يعلم هذه الحقيقة ولكنه يجهل أن المتكلم أيضا يعرفها كما فى المثال السابق (الذى أثنى على بالغيب أنت) لمن أثنى عليك بالغيب. وهذا الغرض اصطلح البلاغيون على تسميته بـ (لازم فائدة الخبر).

٣ ــ إفادة قصر المسند المعرفة على المسند إليه المعرفة قصرا إضافيا، ويتم ذلك إذا كان المسند معرفا بأل الجنسية. كقولك (فيصل المسافر) و(خالد المجامل) قاصدا من كل قول قصر كل صفة من الصفات المذكورة على صاحبها أو حصرها فيه، لتتحقق من ثم الدلالة البلاغية المرادة وهى إفادة تحديد السفر فى المثال الأول: والمجاملة فى المثال الثانى.

---

(١) البلاغة الاصطلاحية ص ٢٣٤.

الفصل الخامس
بلاغة التنكير

الفصـــل الخامــس

بلاغة التنكير

١ـ تنكيــر المسنـــد إليـــه

عمد النحاة إلى تعيين معنى النكرة بقولهم: إن الأصل فى التنكير أن يكون للدلالة على فرد منتشر مما يدل عليه. فإذا كانت النكرة مفردة دلت على واحد. وإذا كانت مثناة دلت على اثنين، وإذا كانت جماعة دلت على ثلاثة، وإذا كانت نوعا دلت على النوعية، أى على فرد من سائر الأنواع. ولكن النكرة من المنظور البلاغى تدل على معان وراء هذا المعنى. وبعبارة أخرى: إن ثمة أغراضا بلاغية لتنكير القائل المسند إليه الوارد فى التركيب البلاغى. ومن هذه الأعراض:

١ ـــ أن يقصد القائل من تنكير المسند إليه ـ الدلالة علي واحد مبهم أو على فرد غير معين من الأفراد التى يصدق عليها مفهوم اللفظ. وذلك لسببين:

الأول: عدم تعلق الغرض أو القصد بتعيينه وإن كان معروفا نحو قوله تعالى: ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة﴾، أى رجل واحد أو فرد واحد من الأفراد التى تندرج تحت مفهوم كلمة (رجل)، ولم يعين لأن الغرض لم يتعلق بتعيينه وإن كان معروفا، إذ المقصود قص القصة المتعلقة به للموعظة والذكرى، وذلك القصد يتحقق دون تعيين من تتعلق به. والثانى: عدم علم

المتكلم بجهة من جهات التعريف بالمسند إليه من علمية أو صلة أو غيرهما. وذلك مثل قولك (جاء هنا رجل يسأل عنك) تقول ذلك إذا لم تعرف عن هذا الرجل شيئا، فأنت تقصد إذن مطلق فرد من أفراد مفهوم لفظ رجل، وقد دعاك إلى تنكيره جهلك به(١).

٢ ــ أن يقصد من التنكير الإشارة إلى أمر غريب ليس معهوداً أو معروفا للناس مثل قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم﴾. أي نوع خاص من أنواع الأغشية أو الأغطية غير ما يتعارفه الناس، وهذا النوع هو غشاوة التعامى عن آيات الله. ومن ذلك قول الشاعر:

لكل داء دواء يستطب بـــه   إلا الحماقة أعيت من يداويهـــا

أي لكل داء دواء خاص يصلح لعلاجه.

٣ ــ أن يريد القائل من التنكير ــ التعظيم. مثل قوله تعالى: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ أى حياة عظيمة تقاصرت العبارة عن بيان كنهها. «وتلك هى الحياة التى يكفل القصاص توفيرها للمجتمع، و ذلك بردع السفاكين عن تماديهم فى سفك الدماء، ومنع ما كان عليه العرب من الإسراف فى القتل، وقتل الجماعة بواحد»(٢).

٤ ــ أن يريد القائل من التنكير التحقير بمعنى انحطاط وتدنى الشخص الذى دل عليه المسند إليه إلى حد لا يمكن أن يعرف. مثل (لك عدو لا يعتد

(١) علم المعانى : ص ٩١.

(٢) من بلاغة النظم العربى ص ١٦٣.

به) أى عدو لا قيمة له ولا يعرفه أحد(١). وثمة أمثلة اجتمع فيها تعظيم المسند إليه وتحقيره والتقليل من شأنه. منها قول مروان بن أبى حفصة:

له حاجب عن كل أمر يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

حيث نكر الشاعر لفظ حاجب فى الشطر الأول بغرض التعظيم، ونكر لفظ حاجب فى الشطر الثانى للتحقير. وذلك لأن مقام المدح يقتضى أن الحاجب أو المانع عن كل ما يشين لابد أن يكون عظيمًا وليس له أى حاجب عن المعروف والإحسان ولو كان حقيرا، فنبل إحسانه ومعروفه مبذول لكل الناس(٢) ومن ذلك قول الشاعر:

ولله منـى جانب لا أضيعـه ... والهـوى منـى والخلاعة جانب

فقد نكر الشاعر فى الشطر الأول (جانب) للتعظيم، ونكر فى الشطر الثانى (جانب) للتحقير.

٥ ــ أن يريد القائل من تنكير المسند إليه إفادة معنى تكثير المسند إليه إلى حد يشعر المتلقى أنه ـ أى المسند إليه ـ لا يحتاج إلى تعريف. وذلك مثل قولهم (إن له لإبلا، وإن له لغنما) والمراد: أن له كثير من الإبل والغنم، وأن كثرة ابله وغنمه مما لا يمكن الاحاطة بهما . ومثل قولك (إن لفلان مالا) و(إن لفلان مقالات). ومن البين أن هذا التنكير قد يشعر المتلقى أن كلا من «المال»، و«المقالات» لا يمكن الإحاطة به لكثرته. ومن ذلك قوله تعالى،

(١) من بلاغة النظم العربى ص ١٦٣.
(٢) السابق ص ١٦٣.

حكاية عن السحرة: ﴿قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا﴾. فقد أفاد تنكير المسند إليه (لأجرا) أن السحرة يريدون أجرا كثيرا من فرعون فى حالة تغلبهم على موسى عليه السلام.

٦ ـــ أن يهدف القائل إلى إفادة معنى التقليل. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾. والمراد: شىء ما من رضوانه أكبر من ذلك كله. لأن رضاه سبب كل سعادة وفلاح، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر فى نفسه مما وراءه من النعم. وبعبارة أخرى يفيد تنكير المسند إليه (رضوان) أن القليل من رضوان الله تعالى خير من الجنات الكثيرة التى تجرى من تحتها لأنهار ، ومن المساكن الطيبة فى الجنة. وعلة ذلك أن ما سوى الرضوان من صنوف النعيم وأنواعه إنما هو من ثمراته ونتائجه(١).

وقد عنى بعض الباحثين المحدثين فى البلاغة بتحديد الفرق بين: التعظيم والتكثير، والتحقير والتقليل. فذكروا أن: التعظيم يكون بحسب ارتفاع الشأن وعلو الطبقة. وأما التكثير فهو باعتبار الكميات والمقادير(٢). وأن التحقير يرجع إلى الكيفيات لأنه يرجع إلى انحطاط الشأن ودناءة القدر(٣)، وإن التقليل يرجع إلى الكميات وقلة العدد(٤) وقد اجتمع

(١) علم المعانى ص ٩٢.
(٢) البلاغة العالمية ص ٧٧.
(٣) السابق : ص ٧٧.
(٤) السباق ص ٧٧ ، وعلم المعانى ص٩٢.

معنيا التعظيم والتكثير فى قوله تعالى: ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك، وإلى الله ترجع الأمور﴾، أى رسل ذوو آيات عظام وذوو عدد كثير. فالمسند إليه (رسل) جاء فى الآية منكرا ليدل على التعظيم والتكثير.

ويلاحظ أن لفظ (رسل) جمع كثرة، لكن الكثرة التى يدل عليها التنكير «أبلغ من الكثرة التى يدل عليها الجمع، لأن كثرة الجمع يكفى فيها أقل كثرة بخلاف التنكير فإنه يدل على كثرة لا يدرك مقدارها(١).

٧ ـ وقد ينكر القائل المسند إليه بسبب مانع يمنع من تعريفه، أو أن المقام لا يقتضى تعريفه، فيؤثر ويفضل عليه التنكير. وذلك مثل قول الشاعر:

إذا سئمت مهنده يمين لطول الحمل بدله شمالا

قد نكر الشاعر لفظ (يمين) المسند إليه فى موطن أو فى مقام المبالغة فى المدح. وهذا المقام يعتبر سببا كافيا للتنكير حيث لم يقل (يمينه) لكراهته أن ينسب سأمه هذا إلى يمين ممدوحه(٢).

٨ ـ وقد يقصد القائل من التنكير إخفاءه عن المخاطب لكيلا يصيبه أذى أو ضرر. وذلك مثل قول القائل يخاطب شخصا معينا (قال رجل: إنك تشرب الخمر) أو (قال رجل: إنك تخون وطنك) فيخفى اسم الرجل خوفا عليه من أذى المخاطب وعقابه.

---

(١) البلاغة العالية ص ٧٧، ٧٨.

(٢) السابق: ص ٧٨.

٢ ـ تنكير المسند

يقول الخطيب القزوينى بعبارة موجزة: «وأما تنكيره ـ المسند ـ فإما لإرادة عدم الحصر والعهد، كقولك (زيد كاتب وعمرو شاعر)، وأما للتنبيه على ارتفاع شأنه أو انحطاطه على ما مر فى المسند إليه كقوله تعالى: ﴿هدى للمتقين﴾ أى: هدى لا يكتنه كنهه(١)، وتفيد هذه العبارة أن تنكير القائل للمسند يهدف إلى تحقيسق عدة أغراض بلاغية منها:

١ ــ أن يريد القائل بالتنكير إقادة عدم حصر المسند فى المسند إليه، العهد والتعين فى المسند مثل قوله (ثروت كاتب) و (خالد شاعر) حيث يريد القائل فى المثالين مجرد الأخبار بالكتابة والشعر، لا حصر الكتابة فى ثروت، والشعر فى خالد، ولا أن أحداهما معهود، بحيث يريد الكتابة المعهودة أو الشعر المعهود.

ولو أراد القائل أفادة حصر المسند لعرفه بأل الجنسية فيقول: (ثروت الكاتب)، (خالد الشاعر) بمعنى حصر الكتابة فى ثروت، والشاعرية فى خالد، وذلك لأن المسند بآل الجنسية يفيد حصره فى المسند إليه. ولو أراد القائل إفادة أن المسند معهود لعرفه بأل العهدية، أو بالإضافة فيقول (ثروت

(١) الإيضاح ص ١٨٨.

الكاتب خالد الشاعر) أو (ثروت كاتب الدولة، وخالد شاعر الدولة). بمعنى صاحب الكتابة المعهودة، وصاحب الشعر المعهود(١).

٢ ـ أن يقصد القائل بالتنكير إفادة: التفخيم والتعظيم. مثل قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾. فقد دل تنكير المسند (هدى) على أنه بلغ من خطورة الشأن وارتفاع المنزلة درجة لا يمكن أن يحدها إنسان، أو أن التنكير دل على «فخامة هداية الكتاب وكمالها وأنها بلغت غايةً فوق متناول الإدراك»(٢) ومن ذلك قول كعب بن زهير يمدح الرسول(ﷺ)(٣):

أن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

وقول عبيد الله بن قيس الرقيات يمدح مصعب بن الزبير(٤):

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

وقول شوقي يمدح الرسول (ﷺ) (٥).

بك بشر الله السماء فزينت   وتضوعت مسكا به الغبراء

وبدا محياك الذي قسماته   (حق) وغرته (هدى وحياء)

فقد أتى الشعراء بالمسند نكرة وهو: نور ـ مهند (نموذج ١) وشهاب (نموذج٢) وحق ـ هدى ـ حياء (نموذج ٣) وذلك لغرض بلاغي وهو إفادة التعظيم والتفخيم.

---

(١) ديوان الحماسة ١/ ٦٤، والنظم البلاغي : ٢١٥، وبلاغة النظم العربي ٢/ ١٤٣.
(٢) المنهاج الواضح ص ١٠٥ .
(٣) ديوانه ص ٩٧.
(٤) ديوانه ص١١٤.
(٥) ديوانه ص ١/ ٣٤ ، ٣٥.

٣ ــ أن يقصد القائل بالتنكير إفادة التهوين والإنقاص والتقليل من شأن الشيء أو المخاطب. مثل قولك (نصيبي من هذا المال شيء) أي جزء تافه بسيط، لا يؤبه له. ومن ذلك قول قيس بن جروة يخاطب عمرو بن هند الملك(١).

غدرت بعهد كنت أنت دعوتنـــا   إليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

وقد يترك الغدر الفتى وطعامه   إذا هو أمسى، حلبة، من دم القصد

فقوله: «وطعامه حلبة من دم القصد» يريد به أن طعامه قليل ضئيل مقدار حلبة من دم عرق مقصود، كناية عن رقة حالة وضيق ذات يده. و(حلبة) مسند منكر كما هو واضح - يفيد التهوين والتقليل والتحقير.

---

(١) الشيمة الخلق. الحلبة: المرة من حلب الضرع إذا استخرج لبنه، القصد: شق العرق ليسيل دمه. يندد الشاعر بعمرو بن هند فينسب إليه أنه غدر بالعهد، ويذكر له أن الرجل الهزيل الحقير قد يترفع عن أن ينقض عهدا أخذه على نفسه فكيف بملك عظيم كعمرو. وينظر ص ١٠٦ من المنهاج الواضح.

الفصل السادس

بلاغة التقديم

الفصـل السادس

بلاغة التقديم

١ـ تقديم المسند إليـه

ينظر المتلقى فى الجملة الإسمية فيجد المبتدأ مقدما على الخبر، وفى الجملة الفعلية فيجد الفعل مقدما على الفاعل. ثم تأتى مكملات الجملة. ولكن القائل قد يعرض على المتلقى العادى تركيبا أدبيا يخالف ما قد تعود عليه. فيعمد إلى «التصرف الفنى» فى ترتيب هذا التركيب بهدف جعله بعد هذا التصرف قادرا على الإيحاء بأفكار زائدة على المعنى الأصلى دون حاجة إلى تعبير آخر.

وقد رأى البلاغيون منذ عبد القاهر الجرجانى، أن تقديم المسند إليه فى التركيب على المسند ـ إنما يرجع إلى عدة مبررات أو أسباب أو أغراض بلاغية منها:

١ ـ أن تقديمه يمثل أهمية له وعناية به لأنه هو الأصل، من جهة أنه «المحكوم عليه، ولابد من تحققه قبل الحكم... ولا مقتضى للعدول عن ذلك الأصل، إذ لو كان ثمة أمرا يقتضى العدول عن هذا الأصل ـ لم يقدم، كما فى الفاعل، فإن وجوب تأخره لكون مرتبة العامل التقدم على المعمول»(٢) ومثال ذلك (محمود صائب الحكم) فمحمود مسند إليه،

---

(١) شرح السعد ١/ ١٣٩ ، ١٤٠.

قدمه القائل لأنه الأصل وليس ثمة مبرر أو مقتضى للعدول عن هذا الأصل. كما أن هذا التقديم يفيد أن القائل يريد أن يشعر السامع بأن قصده العناية والاهتمام بمحمود المسند إليه.

٣ ــ أن تقديمه يهدف إلى تمكين الخبر وتثبيته فى ذهن المستمع، وذلك لاحتوائه على وصف يدعو إلى التشوق إلى الخبر من جهة أن تحقق الشىء بعد انتظاره، والشوق إليه يؤدى إلى تمكينه فى النفس، وتأكيده بها، كقول أبى العلاء المعرى:

بأن أمر الإله واختلف النا ... س فداع إلى ضلال وهاد

والذى حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد

فقد قدم أبو العلاء المسند إليه وهو (والذى حارت البرية فيه) لأن فى تقديمه تشويقا إلى الخبر وهو: (حيوان مستحدث من جماد). ومن البين أن ذكر الخبر بعد التشويق يحقق الأثر المرجو فى نفس المتلقى وهو تمكينه فى نفسه وأقراره فى قلبه. ومن ذلك قول الشاعر:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحا وأبو إسحاق والقمر

حيث قدم الشاعر المسند إليه وهو (ثلاثة)، لامتلاكه طاقة التشويق إلى الخبر القائم المثير لشعور استغراب المتلقى وعجبه وهو (تشرق الدنيا ببهجتها) ذلك أن «إشراق الدنيا يشوق النفس إلى أن تعرف ذلك الذى جعل العالم أجمع يتألق ويضىء النفس، فإذا عرفت ذلك تمكن فيها واستقر»، ومن ثم يجىء تفاعلها مع النص فتقبل عليه وتتجاوب معه(٢).

(١) السابق ص ٨٣.



٣ ـ أن يقصد القائل الإخبار عن المسند إليه بأمر مستغرب يخالف ما يتبادر إلى ذهن السامع ، ويغاير توقعه الفورى. مثل (الزاهد فى الدنيا يشرب ويطرب) فالبدء بالمسند إليه (الزاهد) يجعل السامع يظن فورا أن الزاهد منزه عن شرب الخمر بعيد عن الطرب غير ممارس للهو، فإذا أتى القائل بعد هذا الظن الفورى ـ بالمسند الغريب: يشرب ويطرب ـ الخاص بالمسند إليه ـ كان ذكره أوقع فى النفس وأشد تأثيرا في القلب لغرابته.

٤ ـ أن يقصد القائل بتقديمه معنى دالا «وهو التعجيل بالمسرة والإسراع بسوق البشرى»، طلبا لتفاؤل المتلقى واستبشاره وإسعاده، مثل قولك لشخص (العفو عنك صدر به الأمر)، ومثل قولك (جائزة الدولة التشجيعية كانت من نصيبك) ـ فقد تقدم المسند إليه فى المثالين وهما العفو عنك وجائزة الدولة ـ للإسراع بإحداث الفرحة والتفاؤل لدى هذين الشخصين.

٥ ـ أن يقصد القائل بتقديمه معنى دالا وهو: (التعجيل بالمساءة والإسراع بسوق الخبر المؤذى لشعور المتلقى) بهدف إحداث التطير من الخبر والتشاؤم منه مثل قول القائل (الهزيمة أصابت العدو)، و(القصاص منك حكم به القاضى)، و(السفاح يتجول فى الضاحية). فقدم المسند إليه فى الأمثلة وهو الهزيمة ـ القصاص ـ السفاح، بغرض الإسراع بسوق المساءة، والتعجيل بإحداث التشاؤم لدى المخاطب.

٦ ـ أن يقصد القائل بتقديمه الإيهام بأن المسند إليه لا يفارق الخاطر أو الذهن، أو الإيهام بأنه يستلذ بذكره مقدما لكونه محبوبا مثل:

باللـه يا ظبيـات القاع قلـن لى ليلاى منكـن أم ليلـى مـن البشـر؟

فـ (ليلاى) مسند إليه مقدم، لغرض التقرير بعدم زواله عن الذهن، ويقصد الاستمتاع والتلذذ بذكره على هذا النحو.

٧ ــ أن يهدف القائل من تقديمه: التعجيل بإظهار تعظيمه، أو بإظهار تحقيره. أما التعجيل بالتعظيم فمثل قولك (رجل عالم يزورنا)، أو (الرئيس فى كليتنا)، و(محمد رسول الله). وأما التعجيل بالتحقير فمثل قولك (رجل جاهل يزورنا)، و(المنافق يتحدث فى الناس).

٨ ــ أن يقصد القائل من تقديمه: تخصيصه بالخبر الفعلى(١)، وقصر الخبر الفعلى عليه. إن جاء المسند إليه بعد حرف النفى مثل (ما أنا قلت هذا) ومثل (ما أنا قصرت فى حاجتك) تريد أنه لم يقع منك تقصير، وأنت لا تنفى أن يكون التقصير وقع من غيرك. ولهذا لا يصح أن تقول (ما أنا قصرت ولا غيرى).

٩ ــ أن يريد القائل من تقديمه: تقويه الحكم وتقريره(٢). وذلك فى صورتين: الأولى: يقدم فيها المسند إليه على الخبر الفعلى ولم يكن فى الكلام نفى، وكأن الغرض إفادة تقوية الحكم الذى هو ثبوت الفعل للفاعل وتوكيده. ويتمثل ذلك فى قول القائل عن شخص كريم (هو يعطى بسخاء)، وقوله (أنت لا تكذب). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾. ففى المثال الأول: لا يقصد القائل أن غير الكريم لا

(١) السابق ص ٨٤.

(٢) السابق ص ٨٤، ومن بلاغة النظم ص ١٧٤.

يعطى بسخاء، ولا يريد التعريض بإنسان آخر يعطى القليل. ولكن أراد أن يقرر فى ذهن السامع أنه يفعل الإعطاء السخى. فتقديم المسند إليه (هو) وتكريره فى الضمير المستتر فى (يعطى) أدى إلى تقوية الحكم وتقريره. ومثله (هو يحب الثناء).

ومنه قول الشاعر:

هم يضربون الكبش يبرق بيضه على وجهه من الدماء سبائب

الشاهد (هم يضربون) حيث قدم المسند إليه بغرض تقوية الحكم وتقريره على نحو ما تبين(١).

الثانية: يقدم فيها المسند إليه على الفعل والنفى جميعا لإفادة تقوية الحكم وتوكيده. فقولنا أنت لا تحسن كذا)ـ إذا قصدت التقوية أشد لنفى الإحسان من قولنا (لا تحسن كذا). ولذلك لا تقول (أنت لا تحسن كذا) إلا لمن هو أشد إعجابا بنفسه وأعرض دعوى فنكذبه فى دعواه بالتوكيد الذى يفيده تقديم المسند إليه(٢).

١٠ ــ تقديم لفظى (مثل)، و(غير) على الخبر الفعلى ـ باعتبار كل منهما (مسندا إليه). وذلك إذا استعملا فى إثبات الحكم على سبيل الكناية لا على سبيل التعريض بأحد.

فمثال تقديمها من حيث إرادة الكناية قولك لشخص (مثلك لا يبخل)،

(١) الكبش = زعيم القبيلة أو القوم، البيض = جمع بيضة وهي الخوذة. السبائب = الطرائق.

(٢) السابق ص ١٨٣.

و(غيرك لا يعطى) دون أن يقصد التعريض بـ(مثل) أو (غير) معينا، وإنما تريد نفى البخل عن المخاطب في المثال الأول. وإثبات الكرم له فى المثال الثاني البخل عن المخاطب فى المثل الأول. وإثبات الكرم له فى المثال الثانى بطريق الكناية، والسبب فى ذلك هو: أننا إذا أردنا العموم فى (مثل) ، (غير) هنا ـ فقد نفيت البخل عن كل من كان مثل المخاطب. ولزم من ذلك: نفى البخل عنه. ونفيت الجود عن كل من عداه، ولزم من ذلك: إثبات الجود له، لأن الجود حينئذ لا يكون له محل يقوم به إلا هو. ومن ذلك قول أبى تمام(١):

وغيرى يأكل المعروف سحتا ... وتشحب عنده بيض الأيادى

يريد أنا أقدر المعروف واحفظ الجميل. ونحو قول المتنبى(٢):

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

والمراد: أن لا أخدع بأكثر الناس. ومثل قوله يعزى عضد الدولة فى عمته:

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ... ويسترد الدمع عن غربه

أى أنت قدير على صرف الحزن والتغلب عليه، وعلى رد الدمع إلى مجراه. وقد كثر تقديم (مثل)، و(غير) فى تلك الحال. حتى صار ذلك كاللازم. ولكن السؤال الذى يطرح نفسه حينئذ ونحن نقرأ هذه الأمثلة وما

---

(١) ديوانه : ١/ ٣٩.

(٢) ديوانه : ٢/ ٢٢١.

يشابهها هو: ما السر البلاغى فى هذا النوع من التقديم؟.

إن السر البلاغى فيه هو: أن التقديم للتقوية ملائم للكناية من حيث أنها هى أيضًا تفيد: «التقوية والتثبيت»، إذ هى تفيد إثبات حكم الانتقال من الملزم إلى اللازم. فإثبات الحكم فيها كإثبات الدعوى بالدليل والبرهان. وإذن: «فالكناية والتقديم هنا ـ يتضامنان فى إثبات الحكم بالطريق الأبلغ وهو طريق: التقرير والتثبيت»(١).

وأما إذا أراد القائل بهما (التعريض) بأن قصد بهما (معينا) فلا يلزم منهما التقديم. والسبب: أنهما فى هذه الحالة جاريان على جهة الحقيقة لا علي جهة الكناية، فلا يوجد إذن «ما يوجب التقديم للتقوية الذى يتضامن مع الكناية فى إثبات الحكم بالطريق الأبلغ وهو طريق التقرير والتثبيت»(٢).

وفى ضوء هذا يتبين أن المقصود بالتعريض هنا هو: «التعريض بالمعنى اللغوى». المقابل للتصريح، وهو يجرى بذلك المعنى مجرى الحقيقة وليس التعريض الاصطلاحى الذى هو من أنواع الكناية. وتطبيقا على ذلك نتأمل قول الشاعر:

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم ... فكأننى سبابة المتقدم

فالمراد بـ (غير) هنا ـ غير معين، هو الجانى الذى لم يصرح الشاعر به،

---

(١) علم المعانى ص ٨٤ ، ٨٥.
(٢) السابق ص ٨٥.

وإنما ذكره على سبيل التعريض الذى تفيده (غير)(١).

١١ ـــ أن يدل القائل بتقديمه على «سلب العموم» وذلك إذا كان المسند إليه لفظ (كل) الدال على العموم. وثمة وجهان لهذا اللفظ:

الوجه الأول: أنه إذا تقدمه (نفى) أفاد سلب العموم عما أضيف إليه لفظ كل، فيقتضى ذلك ثبوت الفعل لبعض ونفيه عن بعض، مثل قول المتنبى(٢).

ما كل ما يتمنى المرء يدركه　　　تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

والمعنى: أن الإنسان قد يدرك بعض ما يتمناه وقد لا يدرك بعضه.

والوجه الثانى: أنه إذا سبق أداة النفى أفاد «عموم السلب» وشموله لكل ما أضيف إليه لفظ كل. أو ما فى معناه مثل (جميع وعامة) ومثال ذلك قول القائل (كل طاغية لا ينجح) وقول دعبل:

فوالله ما أدرى بأى سهامها　　　رمتنى وكل عندها ليس بالمكدى(٣)

---

(١) السابق ص ٨٦.

(٢) ديوانه : ٤/ ٢٣٦.

(٣) شرح السعد : ١/ ١٤٤ ودرويش الجندى: علم المعانى ص ٨٧. ومن بلاغة النظم العربى ص ١٩٠ ١٩١.

٢ ـ تقديم المسند (*)

أ ـ تقديم الخبر على المبتدأ

فحص البلاغيون طائفة من الأساليب الأدبية، قدم فيها المسند، واستخلصوا منها دواعى تقديمه على المسند إليه منها:

١ ــ أن يقصد القائل بالتقديم قصر المسند إليه على المسند، أو قصر المبتدأ على الخبر مثل قولك (مصرى أنا) والأصل: أنا مصرى. فقدم المسند (مصرى) على المسند إليه (أنا) لإفادة تخصيص وصف المصرية دون وصف الشامية أو السودانية مثلا، فهو قصر إضافى من قصر الموصوف على الصفة. ومن ذلك قول شوقى:

علم أنت فى المشارق مفرد   لك فى العالمين ذكر مخلد

فتقدم المسند (علم) أفاد تخصيص وصف العلمية بالمخاطب وقصره عليها. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لله ملك السموات والأرض﴾ ـ فقد أفاد تقديم المسند (لله) أن ملك السموات والأرض ـ وصف خاص به سبحانه. ومن ذلك قول أبى تمام فى وصف القلم:

لك القلم الأعلى الذى بشباته   يصاب من الأمر الكلى والمفاصل

فالمسند (لك) مقدم على المسند إليه (القلم) لإفادة معنى التخصيص، أى

(*) تأخير المسند له أغراض بلاغية هى نفسها أغراض تقديم المسند إليه.

أن القلم الموصوف بهذا الوصف الخطير خاص بالممدوح لا يتعداه إلى غيره(١).

٢ ــ أن يقصد القائل من البداية التنبيه على أنه خبر عن المسند إليه لا نعت له، ذلك أن النعت من حيث كونه نعتا لا يتقدم على المنعوت. ويتمثل ذلك فى قوله تعالى: ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ حيث قدم المسند وهو(لكم) على المسند إليه وهو (مستقر) للتنبيه ابتداء على أن المسند خبر لا نعت. ومن ذلك قول الشاعر:

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر

وقول الشاعر:

له راحة لو أن معشار جودها ... على البر كان البر أندى من البحر

وقول شوقى(*):

لكل زمان مضى آية ... وآية هذا الزمان الصحف

فقد قدم المسند فى هذه الأبيات وهو: (له) في البيت الأول على المسند إليه وهو (همم)، و(له) فى البيت الثانى على المسند إليه وهو (راحة) ، و(لكل زمان) فى بيت شوقى على المسند (آية) تنبيها فوريا على أن المسند خبر وليس نعتا. ولو تأخر المسند فى البيت الثالث مثلا فقيل (آية لكل زمان

---

(١) المنهاج الواضح ص ١٠٨ شباة القلم: سنة الدقيق. الكلى: جمع كلية بضم القاف فيهما المفاصل: جمع مفصل بفتح الميم وكسر الصاد وهو كل ملتقى عظمتين.

(*) ديوانه ١/ ١٥٩.

مضى) لتوهم ابتداء أن قوله (لكل زمان) نعت الآية. وأن الخبر سيأتى بعد، لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر كما يقول النحاة(١).

٣ ــ أن يقصد القائل بتقديمه «التفاؤل»، وذلك بتقديم ما يسر السامع المخاطب. مثال ذلك قولك لمريض تزوره (فى عافية أنت)، و(فى تحسن أنت). ومن ذلك قول الشاعر:

سعدت بغــرة وجهــك الأيام وازينت ببقائك الأعــوام

وقول شوقى (٢) :

هز اللــواء بعزك الإســلام وعنــت لقائــم سيفـك الأيام

فقد قدم المسند فى المثالين (فى عاقبة...)، و(فى تحسن...) وفى البيتين (سعدت...) ، و(هز ...) بغرض البدء الفورى بإسماع المخاطب أمورا يتفاءل بها فتسره وتسعده.

٤ ــ أن يقصد القائل بتقديمه ـ إثارة شوق المتلقى إلى ذكر المسند إليه، بأن يتضمن المسند أمرا مشوقا بدفعة إلى طلب ذكر المسند إليه، فيقع فى قلبه أجمل موقع. ويتضح هذا فى قول محمد بن وهيب يمدح الخليفة العباسى المعتصم بالله:

ثلاثة تشرق الدنيــا ببهجتهــا شمس الضحى وأبو إسحــاق والقمر

على تقدير جعل (ثلاثة) هو المسند. وقدم لاتصاله بما يشوق إلى ذكر المسند إليه ولا شك أن هذا الوصف يثير فى النفس المتلقية الفضول

(١) السابق ص ١٠٨ ، ١٠٩.
(٢) ديوانه : ١/ ٢٢٦.

والشوق إلى معرفة ما بعد هذا الوصف الفنى.

ومن ذلك قولهم: (منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال) على تقدير جعل (منهومان) خبرا مقدما، فإن فى ذكر المنهوم — وهو الذى لا يعرف الشبع - ما يشوق إلى معرفته لغرابة الوصف. ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى:

وكالنار الحياة فمن رماد أواخرها وأولها دخان

حيث قدم المسند (كالنار) على الحياة لأن فى ذكر النار أولا تشويق إلى ذكر ما بعدها . وقوله:

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد

قدم المسند (تعب) لأن فى ذكره أولا تشويق وتشوق إلى معرفة ما بعد التعب. وهو حقيقة الأمر المتعب، أو تشويق النفس إلى معرفة ما كله شقاء وعناء، ومن ذلك قول شوقى:

لقد فنيت أرزاقهم ورجالهم وليس بفان طيشهم والتقلب

فإن يجدوا بالنفس بالعود راحة فقد يشتهى الموت المريض المعذب

فقد قدم الشاعر المسند (يشتهى الموت) لعلة بلاغية، وهى أن اشتهاء الموت من الأمور الغريبة، فذكره أولا يخلق فى النفس رغبة عارمة فى معرفة من يشتهيه» وهو المريض المعذب(١).

---

(١) السابق ص ١١١ وديوان شوقى ص ١/ ٥٨.

٣ ـ تقديم المعمول (المفعول ونحوه ..)

الأصل فى العامل أن يتقدم على المعمول. ولكن القائل قد يخالف هذا الأصل ويعكسه عندما يقدم مفعول الفعل ونحوه من الجار والمجرور والظرف والحال وما أشبه ذلك ـ على الفعل أو العامل. قاصدا بهذا التصرف تحقيق غرض بلاغى ما. ومن الممكن فى ضوء نظرات البلاغيين فى هذه الظاهرة تعيين عدد من أغراضها:

١ ــ إفادة التخصيص (١)، أى قصر العامل على معمول بحيث لا يتعداه إلى غيره مثل قوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فإن المعنى هنا على القصر: أى نخصك بالعبادة والاستعانة بمعنى نجعلك من بين الموجودات مخصوصا بذلك: لا نعبد ولا نستعين غيرك(٢).

ومن ذلك قول شوقى:

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم   لم يبن ملك على جهل وإقلال

فقد قصر بناء الملك على العلم والمال. وهذا المعنى إنما جاء من تقديم المعمول (بالعلم) على عامله (يبنى)، وتلك طبيعة السياق العربى والأسلوب البلاغى(٣). ويرى البلاغيون أن التقديم فى صورة أو صور التخصيص يفيد إلى جانب التخصيص ــ الاهتمام بالمقدم، لأنهم يقدمون

(١) شرح السعد ٢/ ٥٢.

(٢) السابق ٢/ ٥٢.

(٣) المنهاج الواضح ص ١٢٠.

الذى شأنه أهم أو الذى يستحق الرعاية والاهتمام، و«لهذا يقرر المحذوف فى (بسم الله) مؤخرا أى: بسم الله أفعل كذا، ليفيد مع الاختصاص الاهتمام، لأن المشركين كانوا يبدءون بأسماء آلهتهم فيقولون: باسم اللات، باسم العزى، فقصد الموحد تخصيص اسم الله بالابتداء، للاهتمام والرد عليهم»(١).

٢ ــ المبادرة بذكر اسم يتيمن به القائل أو السامع ويتفاءل من سماعه فى بدء الكلام. مثل (بمحمد اقتديت)، و(إلى الله أنيب)، و(على الله توكلت).

٣ ــ الاسراع بذكر اسم يتلذذ به ويستمتع بالإفصاح عنه وهو: اسم المحبوب الذى يكون عادة أقرب ورودا على الذهن، فيكون ذكره أول ما ينطبق به اللسان(٢). ومثال ذلك قول شوقى على لسان ليلى محبوبة قيس:

أبقيس وبى هوى عبقرى يسلب العقل من ذويه ويردى

٤ ــ الإسراع بذكر ما يتبرك به مثل (قرآنا تلوت)، (حديثا شريفا قرأت). إذ يقصد إلى المبادرة بالتبرك بالقرآن الكريم والحديث الشريف.

٥ ــ أن يقدم القائل المعمول للتنبيه على أنه «موضع الإنكار» مثل قول أبى العلاء المعرى:

أعندى وقد مارست كل خفية يصدق واش أو يخيب سائل؟

فالشاعر: لا ينكر أن يصدق الواشى أو يخيب السائل. فذلك أمر يقع

(١) شرح السعده ٢/ ٥٢ .

(٢) المنهاج الواضح ص ١٢١.

كثيرا، وإنما ينكر أن يكون ذلك (عنده) بعد أن خبر الأمور: الظاهر منها والخفى، فالإنكار إذا منصب على الطريقة أو العندية، ولهذا قدم الظرف (عند) على عاملة (يصدق ـ يخيب).

ومن ذلك قول الشاعر:

أكل مرىء تحسبين امــرءا ونــار توقــد بالليل نــارا

فقد قدم المفعول (كل) ليفيد أن الإنكار مسلط عليه، يريد أن ينكر عليها: أن كل الناس فى ظنها سواء لا فرق بين كامل وناقص، كما ينكر عليها أن كل نار - فى زعمها - نار كرم وسماحة(١).

٦ ـ أن يفيد التقديم موافقة كلام القائل لكلام السامع. مثل (الله دعوت)، و(بالنبى توسلت) جوابا عن سؤال: من دعوت؟ وبمن توسلت؟ فقد قدم المعمول ٠ الله - بالنبى) فى المثالين ليوافق مقابله فى كلام السائل.

٧ ـ أن يقدم القائل المعمول لضرورة الشعر. وذلك مثل قول الشاعر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعى الندا بسريــع

حيث قد المعمول وهو: الجار والمجرور أى (إلى داعى الندا) على متعلقه أو عامله وهو: الصفة المشبهة (سريع) المتضمنة معنى الفعل، وذلك للضرورة الشعرية التى يستلزمها الوزن، وتقتضيها القافية.

---

(١) السابق ص ١٢١ ، ١٢٢.

٨ ــ وقد يعمد القائل إلى تقديمه لرعاية الفاصلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خذوه فغلوه، ثم الجحيم صلوه، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه﴾. قدم (الجحيم) المعمول على العامل (صلوه)، وقدم (فى سلسلة) المعمول الجار والمجرور على العامل (فاسلكوه)، محافظة على الفاصلة ورعاية لها. ومثل قوله تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر﴾ حيث قدم (اليتيم)، و(السائل) لنفس السبب المذكور.

الفصل السابع

بلاغة القصر

الفصل السابع

بلاغة القصر

١- مفهوم القصر:

القصر فى اللغة: الحبس. تقول : قصر الشىء: حبسه. قال تعالى: ﴿حور مقصورات فى الخيام﴾ أى محبوسات(١) وتقول: التفوق العلمى مقصور على فلان. أى محبوس عليه. ومعناه فى اصطلاح البلاغيين «تخصيص شىء بشىء بطريق مخصوص»(٢)، أو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص(٣). ومثاله قولك (لا يفوز إلا المجد). وقول الشاعر:

وما العيش إلا مدة سوف تنقضى   وما المال إلا هالك وابن هالك

وقولك (إنما العمل عبادة) وقولهم (ما الأرض ثابتة بل متحركة).

وقد أفادت هذه الأمثلة الأربعة معنى (التخصيص) أى تخصيص الفوز بالمجد فى المثال الأول، وتخصيص العيش بمدة فى المثال الثانى، وتخصيص العمل بالعبادة فى الثالث، وتخصيص الأرض بالحركة فى الرابع. ومنشأ هذا التخصيص فى المثالين الأولين هو (النفى والاستثناء) وفى الثالث هو

(١) المعجم الوجيز ص ٥٠٣.
(٢) شرح السعد ٢/ ٩٦.
(٣) البلاغة الواضحة ص ٢١٧.

(إنما) وفى الرابع هو: (العطف ببل المسبوقة بما النافية) أى أن التخصيص إنما تم بهذه الوسائل أو الأدوات المذكورة (ويتم أيضا بأدوات أخرى) ويسمى بالبلاغيون هذه الوسائل أو الأدوات بـ (طرق القصر) كما سنرى.

٢ ـ بلاغة القصر:

أجمع البلاغيون على بلاغة أسلوب القصر لسببين يتعلقان بإيحاء الأسلوب، وبإيجازه أو اختصاره اختصارًا فنيا.

أما السبب الأول فهو أن القصر يضفى جمالا على أسلوب القائل والمبدع من حيث أنه يوحى بالعديد من المعانى. فعبيد الله بن قيس الرقيات فى مدحه مصعب ابن الزبير:

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ـ قد وظف أسلوب القصر بالأداة (إنما) فأفاد بذلك أن وصف الممدوح بصفة (الشهاب الإلهى) ـ أمر ظاهر معروف لكل الناس غير خاف على أحد. أى أن أسلوب القصر قد جعل هذا الوصف (ثابتا) للممدوح وأوحى بأن هذا الوصف قد جعل هذا الوصف مقصور عليه لا يشاركه فيه آخر.

وأما الثانى فهو: أن القصر يعتبر لونا من الإيجاز البلاغى أو الاختصار الفنى. والإيجاز هو البلاغة كما ذكر البلاغيون المتقدمون ـ من جهة أن جملة القصر تقوم مقام جملتين. وتوضيح ذلك أن المعهود فى الجملة أن تفيد حكما واحدا يراد به الإيجاب أو السلب. فإذا قلنا (انتصر الجيش المصرى فى حرب رمضان) ـ أفادت هذه الجملة حكما إيجابيا هو ثبوت النصر للجيش المصرى. أما إذا قلنا: (لم ينتصر الجيش الإسرائيلى فى

حرب رمضان) ـ فإن هذه الجملة تفيد حكما سلبيا هو: نفى النصر عن الجيش الإسرائيلى. وترى البلاغى أو الأديب يؤدى هذين الحكمين المختلفين إيجابا وسلبا ـ في جملة واحدة فيقول: (ما انتصر فى حرب رمضان إلا الجيش المصرى)، فقد أفادت هذه الجملة معنى الجملتين السابقتين وهو: إثبات النصر للجيش المصرى ونفيه عن الجيش الإسرائيلى. وواضح أن جملة واحدة أوجز من جملتين.

٣ ـ مواضع القصر ومجالاته:

يرى البلاغيون أن القصر باعتباره أسلوبا بلاغيا يقع فى المواضع الآتية :

١ ــ يقع بين المبتدأ والخبر. مثل: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾، وقد تخصص المبتدأ (الحياة) بالخبر (متاع) بوسيلة القصر وهى : النفى والاستثناء. ومثل (ما روائى إلا نجيب محفوظ)، وقد تخصص الخبر (نجيب محفوظ) بالمبتدأ (روائى) بوسيلة النفى والاستثناء.

٢ ــ ويقع بين الفعل والفاعل. مثل (لا يثاب على عمله إلا الصالح) حيث قصر الثواب المفهوم من الفعل (يثاب) على الفاعل (الصالح) بوسيلة النفى والاستثناء.

٣ ــ ويقع بين الفاعل والمفعول. مثل (ما شجع خالد إلا عليا) حيث قصر الفاعل (خالد) على المفعول (عليا). ومثل (ما شجع عليا إلا خالد). حيث قصر المفعول (عليا على الفاعل (خالد) بوسيلة النفى والاستثناء.

٤ ــ ويقع بين المفعولين مثل (ما وهبت سعيدا إلا جنيها) حيث قصر

المفعول الأول (سعيدا) الموهوب على المفعول الثانى (جنيها) ومثل (ما وهبت جنيها إلا سعيدا) حيث قصر المفعول الثانى (جنيها) على (سعيدا) المفعول الأول بوسيلة النفى والاستثناء.

٥ ــ ويقع بين الحال وصاحبها مثل (ما جلس خالد إلا هادئا) حيث قصر القائل صاحب الحال (خالد) على الحال (هادئا) ومثل (ما جلس هادئا إلا خالد) حيث قصر الحال (هادئا) على صاحبها (خالدا) بوسيلة النفى والاستثناء.

٤ ـ أقسام القصر:

قسم البلاغيون والدارسون لبلاغة النص أسلوب القصر تقسيما قائما على أربعة اعتبارات وهى: الحقيقة والإضافة ـ اعتبار الطرفين ـ الحقيقة والادعاء ـ حال المخاطب.

القسم الأول: القصر باعتبار الحقيقة والإضافة أو باعتبار غرض القائل. والقصر على هذا الاعتبار يتنوع إلى نوعين:

النوع الأول: القصر الحقيقى. والمراد به أن يكون غرض القائل (أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره أصلا)(١) مثل قول القائل (ما خاتم الأنبياء والرسل إلا محمد) فغرض القائل هو: أن ختام الأنبياء والرسل المقصور مختص بـ (محمد «ﷺ» ـ المقصور عليه بحيث لا يتعدى الختم إلى غيره من الأنبياء والرسل أصلا أو فى الحقيقة

(١) البلاغة الواضحة ص ٢١٨.

والواقع. ومن ذلك قول القائل (لا يروى أرض مصر من الأنهار إلا النيل) فغرضه هو: أن إرواء أرض مصر مختص بنهر واحد هو النيل، فلا يشاركه في هذا الاختصاص نهر آخر في الحقيقة والواقع. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿بيده الملك﴾ فالملك مختص بيده، فلا تشاركه يد أخرى في الحقيقة والواقع.

النوع الثاني: القصر الإضافي والمراد به أن يكون «التخصيص فيه بحسب **الإضافة إلى شيء معين لا بالإضافة، إلى جميع ما عدا** المذكور»(١) أو «هو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة إلى شيء آخر معين، أي بالإضافة إليه، بألا يتجاوز المقصور المقصور عليه إلى ذلك الشيء المعين، وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره»(٢) ومثال ذلك قول القائل (ما صلاح إلا شاعر) فغرض القائل هو: تخصيص صلاح بالشعر وقصره عليه بحيث لا يتجاوزه إلى فن قولي آخر كالقصة مثلا، أي أن له صفة الشاعر لا صفة القصاص، ولكن الحقيقة أو الوقع خلاف ذلك، لأن هذا لا ينفي أن له صفات أخرى كالخطابة والتجارة والصناعة وغيرها من الصفات. ومن ذلك قول الشاعر:

إنما الدنيا هبات ... وعوار مستردة

شدة بعد رخاء ... ورخاء بعد شدة

فالشاعر يقصد: إنما الدنيا هبات وعوار فلا حال يبقى ويدوم.

(١) البلاغة العالية ص ٤٨.

(٢) من بلاغة النظم ٢/ ١٢.

وتخصيص الدنيا بالهبات أو قصر الدنيا على الهبات أو قصر الدنيا على الهبات إنما هو بالإضافة إلى ذلك وإلا فإنها تتجاوز الهبات إلى ما عداها من كونها حلوة أو مرة أو غير ذلك.(١).

القسم الثانى: باعتبار أو بحسب الطرفين (المقصور والمقصور عليه) وهو نوعان:

النوع الأول: قصر الصفة على الموصوف. والمراد به «ألا تتجاوز تلك الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر، لكن يجوز أن يكون لذلك الموصوف صفات أخرى»(٢) وبعبارة ثانية: «ألا تتعدى الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر أصلا إذا كان القصر «حقيقيا»، أو لا تتعدى الصفة الموصوف إلى موصوف آخر معين إذا كان القصر إضافيا»(٣). فمثال قصر الصفة على الموصوف(٤) قصرا حقيقيا قول القائل (لا غافر

(١) البلاغة العالية ص ٤٨.

(٢) شرح السعد ٢/ ٦٧.

(٣) من بلاغة النظم ٢/ ١٢.

(٤) المراد بالصفة هنا الصف المعنوية التى هى: معنى قائم بالغير، سواء أكان فعلا أم مصدرا أم اسما جامدا أم مؤولا، وليس المراد بها النعت النحوى، لأنه لا يقع قصر بين النعت ومنعوته، فالقصر يقتضى الفصل بـ (ألا) لفظا كما فى طريقة القصر بـ (ما ــ إلا) أو معنى كما فى طريقة القصر بـ (إنما). والصفة كما هو معلوم لا تنفصل عن موصوفها. والمراد بالموصوف هنا «كل ما يقوم به غيره، وإن كان هو فى نفسه صفة، كما فى قوله تعالى: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ فقد قصرت فيه العبادة على صفة التقريب ــ قصر موصوف على صفة، فى حين أن العبادة فى ذاتها صفة قائمة بالغير». ص١٣، ١٤ من بلاغة النظم العربى.

للذنب إلا الله) فقد قصر القائل صفة «الغفران» على الله سبحانه وتعالى ـ بحيث لا تتعدى هذه الصفة الموصوف (الله سبحانه) إلى غيره أصلا ـ قصرا حقيقيا. ومن ذلك قول القائل (لا ساكن فى المنزل إلا حسام) قاصدا من ذلك أن صفة (السكنى) فى المنزل المعين مقصورة على (حسام) لا تتعداه إلى أى شخص آخر.

ومثال قصر الصفة على الموصوف قصرا إضافيا ـ قول القائل (لا روائى إلا نجيب محفوظ) فيقصر صفة الرواية على نجيب محفوظ، بحيث لا تتعداه إلى شخص آخر معين كإسماعيل مثلا. ومن ذلك قول الشاعر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إننى ... أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

فقد قصر صفة الشكوى على الموصوف (الله سبحانه) بحيث لا تتعداه إلى شخص معين.

النوع الثانى: قصر الموصوف على الصفة. والمراد به «ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى أصلا إذا كان القصر حقيقيا، أو ألا يتجاوز الموصوف تلك الصفة إلى صفة أخرى إذا كان القصر إضافيا.

فمثال قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقا (ما سعد إلا كاتب) إذا أراد القائل أنه لا يتصف بغير الكتابة. وهذا النوع «لا يكاد يوجد لتعدد الإحاطة بصفات الشىء، حتى يمكن إثبات شىء منها ونفى ما عداه نفيا شاملا بل هو محال»(١).

---

(١) علم المعانى ص ١٣٠.

ومثال قصر الموصوف على الصفة قصرا إضافيا (ما النديم إلا خطيب) فيقصر القائل الموصوف (النديم) على صفة الخطابة بحيث لا يتعداها إلى صفة أخرى كالشعر مثلا.

القسم الثالث: باعتبار الحقيقة والادعاء، ويتنوع هذا القسم إلى أنواع:

النوع الأول: قصر حقيقى تحقيقى(١). والمراد به: ما كان النفى فيه عاما يتناول كل ما عدا المقصور عليه فى حقيقة الأمر وواقع الحال. مثل قول القائل (ما كامل إلا الله)، فقد قصر صفة (الكمال) على الله سبحانه، بحيث لا يتصف بها أحد على الإطلاق. إلا هو جل وعلا. وأما الموصوف وهو (الله) فيتصف بصفات أخرى كالسمع والبصر والقدرة. وكل صفات الكمال التى تليق به سبحانه وتعالى.

النوع الثانى: قصر حقيقى ادعائى أو على سبيل الادعاء والمبالغة. والمراد به: أن يكون النفى فيه عاما يتناول كل ما عدا المقصور عليه ادعاء مبالغة.

فمثال قصر الصفة على الموصوف من هذا النوع قول القائل (لا شاعر فى الدولة إلا شوقى) إذا كان فى الدولة شعراء غير شوقى، ولكن القائل لم يعتد ولم يعترف بصفة الشعر فيهم، بل نزلها منزلة العدم بالقياس إلى شعر شوقى مبالغة فى كمال صفة الشعر فى شوقى ونقصها فى غيره من الشعراء.

---

(١) معنى القصر الحقيقى: أن المقصور لا يتجاوز المقصور عليه إلى غيره أصلا. ومعنى التحقيقى: أن هذا النفى مبنى على حسب الواقع ونفس الأمر.

ومثال قصر الموصوف على الصفة من هذا النوع ـ قول القائل (ما حاتم إلا كريم) قاصدا أن (حاتما) لا يتصف إلا بصفة الكرم مغفلا الصفات الأخرى ـ مبالغة فى كمال صفة الكرم فيه، وكأن باقى الصفات بالنسبة إلى كرمه ـ معدومة.

النوع الثالث: قصر إضافى حقيقى. والمراد به: أن يختص المقصور بالمقصور عليه بالنسبة لمعين، لا يجميع ما عداه مثل (لا أمين إلا خالد) فإن صفة الأمانة هنا مقصورة على الموصوف خالد بالنسبة إلى شخص آخر معين من الناس.

النوع الرابع: قصر إضافي ادعائي أو على سبيل الادعاء والمبالغة فمثال قصر الصفة علي الموصوف من هذا النوع قولك (ما كريم إلا محمود)، فقد قصرت صفة الكرم على محمود بالنسبة إلى هشام إذا كان هشام كريما أيضا ولكنك تناسيت ذلك ونزلت صفة الكرم فى هشام منزلة العدم بالنسبة إلى كرم محمود(١).

ومثال قصر الموصوف على الصفة من هذا النوع: قولك (ما العقاد إلا كاتب) فقد قصرت العقاد على صفة الكتابة بالنسبة إلى صفة الشعر إذا كان شاعرا أيضا ـ ولكنك تناسيت صفة الشعر ونزلتها منزلة العدم بالقياس إلى صفة الكتابة البارزة فيه.

---

(١) علم المعانى ص ١٣١، ١٣٢، ومن بلاغة النظم العربى ٢/ ١٦ . ١٧.

القسم الرابع، باعتبار حال المخاطب. ويتنوع هذا القسم إلى ثلاثة أنواع(١).

النوع الأول: قصر إفراد . والمقصود به: أن يخصص القائل شيئا بشيء دون آخر ويخاطب به من يعتقد الشركة. ومثاله فى قصر الصفة على الموصوف (لا شاعر إلا حجازى) إذا كان المخاطب يعتقد اشتراك خالد وحجازى فى صفة الشعر. ومثاله فى قصر الموصوف على الصفة (ما حجازى إلا شاعر) إذا كان المخاطب يعتقد اتصاف حجازى بصفتى الشعر والكتابة.

النوع الثانى: قصر القلب وهو : أن يخصص القائل شيئًا بشيء مكان آخر ويخاطب به من يعتقد عكس الحكم الذى يثبته بالقصر. فمثال قصر الصفة على الموصوف قولك (لا كاتب إلا عباس) إذا كان المخاطب يعتقد أن الكاتب (صالح) مثلا لا عباس. ومثال قصر الموصوف على الصفة قولك (ما عباس إلا كاتب) فى حالة اعتقاد المخاطب أن عباسا يتصف بالشعر لا بالكتابة.

النوع الثالث : قصر تعيين: ويكون إذا كان المخاطب مترددا فى الحكم بين المقصور والمقصور عليه وغيره. فمثاله فى قصر الصفة على الموصوف قولك (لا كاتب إلا محمود) إذا كان المخاطب مترددا بين كون الكاتب (محمودًا) وكونه (صالحا) مثلا. ومثال قصر الموصوف على الصفة قولك (ما محمود إلا كاتب) إذا كان المخاطب مترددا بين اتصاف محمود بالشعر واتصافه بالكتابة.

---

(١) الإيضاح ص ٢١٥ ـ ٢١٧ وشرح السعد ٢/ ٧٢ ـ ٧٥.

٥ـ طرق القصر ووسائله:

عمد البلاغيون المتقدمون والمتأخرون إلى تقصى أساليب القصر فى العربية فوجدوا أن «معنى القصر» يؤدى بعدة طرق، يمكن أن يعتمد عليها الشاعر أو الناثر فى إنشاء الجمل أو التراكيب، هى: (النفى والاستثناء ــ إنما ــ العطف بـ لا ــ بل ــ لكن ـ تقديم ما حقه التأخير ـ توسط ضمير الفصل ــ تعريف ركنى الإسناد). وذكروا أن القصر قد يحصل بالتصريح بلفظ (وحده) أو (فقط) أو (ليس غير)، أو بلفظ مشتق من كلمة الاختصاص، أو من كلمة القصر. ولكن أشهر طرق القصر هى الطرق الأربعة الأولى التى بحثها كل من الخطيب القزوينى وسعد الدين التفتازانى(١).

الطريقة الأولى : القصر بالعطف بـ (لا) و(بل) أو (لكن). فإذا كان العطف بـ (لا) كان المقصور عليه مقابلا لما بعدها. وإذا كان العطف بـ (بل ولكن) كان المقصور ما بعدهما. وعلى هذا فأمثلة قصرالموصوف على الصفة بطريقة العطف من حيث الإفراد: (خالد كاتب لا شاعر) أو (خالد شاعرا بل كاتب) أو (ما خالد شاعر لكن كاتب)، وذلك إذا كان المخاطب يعتقد أنه كاتب وشاعر معا. ومن حيث القلب (صالح شجاع لا جبان) أو (ما صالح جبان بل شجاع أو (ما صالح جبان لكن شجاع) وذلك إذا كان المخاطب يعتقد أنه جبان لا شجاع. وهذه الأمثلة ونحوها تصلح لقصر التعيين إذا كان المخاطب مترددا بين كون خالد شاعرا وكونه كاتبا أو بين كون صالح شجاع، وكونه جبانا(٢).

---

(١) الإيضاح ص ٢١٥ ــ ٢١٧ وشرح السعد ٢/ ٧٢ ــ ٧٥ .
(٢) شرح السعد ٢/ ٧٢ ـ ٧٣ وعلم المعانى ص١٣٩.

الطريقة الثانية القصر بالنفى والاستثناء: كقولك فى قصر الموصوف إفرادا: (ما شوقى إلا شاعر) وقلبا (ما خالد إلا قائم). وفى قصر الصفة إفرادا وقلبا (ما شاعر إلا شوقى) والكل يصلح مثالا للتعيين. والتفاوت إنما هو بحسب اعتقاد المخاطب. ومن أمثلة القصر بهذه الطريقة قول لبيد:

وما المرء إلا كالهلال وضوؤه ... يوافى تمام الشهر ثم يغيب

فالمقصور هو (المرء) والمقصور عليه هو ما بعد الاستثناء (إلا) وهو: كونه كالهلال. ويلاحظ أن مجال القصر بـ (النفى والاستثناء) هو الاستثناء المفرغ وهو الذى يكون فيه المستثنى منه عاما محذوفا، وما بعد إلا يعرب بحسب العوامل كما فى الأمثلة السابقة. ومن الجدير بالذكر هنا، أن لفظ (غير) يستعمل فى القصر كما تستعمل إلا . فكل ما صلحت فيه إلا تصلح فيه غير مثل: (ما جاء غير خالد).

الطريقة الثالثة: القصر بـ (إنما). ويكون المقصور عليه معها مؤخرا وجوبا. ومثال ذلك قولك فى قصر الموصوف على الصفة من حيث الإفراد (إنما عباس كاتب) ومن حيث القلب (إنما عباس قائم) وكلا المثالين يصلح لقصر التعيين إذا كان المخاطب مترددا، ومثاله قولك فى قصر الصفة على الموصوف إفرادا أو قلبا تعيينا (أنما قائم خالد) بحسب حال المخاطب واعتقاده.

وسبب إفادة (إنما) القصر هو: أنها تتضمن معنى (ما) و (لا) بدليل ما قاله المفسرون وما ذكره النحويون وبدليل صحة انفصال الضمير مع إنما(١).

(١) السابق ص ١٣٦ ، ١٣٧.

الطريقة الرابعة: القصر بتقديم ما حقه التأخير. وبها يكون المقصور عليه هو المقدم. فمن قصر الموصوف على الصفة بهذه الطريقة تقدم الخبر علي المبتدأ مثل قولك (مصرى أنا)، حيث قدمت الخبر (مصرى) لأنك أردت قصر نفسك على الاتصاف بالجنسية المصرية بحيث لا تتعداها إلى الجنسية الهندية مثلا. ومن قصر الصفة على الموصوف بهذه الطريقة ـ تقديم المفعول به على الفعل وذلك مثل قولك (عباسا ساعدت) حيث قدمت المفعول به على الفعل، أى قصرت المساعدة التى حدثت منك على «عباس» بحيث لا يتعداه إلى غيره، وأساس اعتبار القصر بهذه الطريقة (أى قصر إفراد أو قلب أو تعيين) هو اعتقاد المخاطب كما فى سائر الطرق الأخرى.

٦ـ ختلاف طرق القصر:

من البين أن طرق القصر تتفق فى «أداء معنى القصر» كما ظهر من الأمثلة السابقة. ولكن هذه الطرق يختلف بعضها عن البعض الآخر. ويمكن تناول هذا الاختلاف فى ستة وجوه.

الوجه الأول : أن دلالة طريقة تقديم ما حقه التأخير عن القصر تكون بمفهوم التركيب «فصاحب الذوق السليم إذا تأمل فى أسلوب التقديم والتأخير ـ فهم القصر وإن لم يعرف اصطلاح البلغاء فى ذلك»(١) فقولك (مصرى أنا) يفيد قصر المتكلم عن صفة المصرية بالنظر إلى مفهوم الكلام. وأما دلالة الطرق الثلاثة الباقية فهى «بالوضع اللغوى» لأن «الواضع وضعها لمعان ترجع إلى إثبات المذكور ونفى ما عداه، وهذا يفيد

(١) شرح السعد ٢/ ٧٦.

القصر»(١) ذلك لأن الأداة (لا) موضوعة لتفيد النفى بعد الإثبات، والأداتين (بل - لكن) وضعتا لتفيدا الإثبات بعد النفى، وحرف النفى المقارن للاستثناء وضع للنفى، والاستثناء موضوع لإثبات بعض المنفى، و(إنما) متضمنة للنفى والاستثناء(٢).

الوجه الثانى: الأصل فى طريقة العطف بـ (لا - بل - لكن) «النص على المثبت والمنفى فلا يترك النص عليهما إلا لكراهة الإطناب والتطويل»(٣) فقول القائل فى قصر الموصوف على الصفة (خالد كريم لا بخيل) يفيد أنه نص على الكرم المثبت لخالد، ونص أيضا على البخل المنفى عنه، وقوله فى قصر الصفة على الموصوف (أنا أخشى الله لا الإنسان) يفيد النص على الذى أثبت له الخشية وهو الله سبحانه، والنص على الذى نفى عنه هذه الخشية وهو الإنسان. ومثله: (هو يخاف الله لا الإنسان) يفيد النص على الذى أثبت له الخوف وهو الله سبحانه، والنص على الذى نفى عنه الخوف (الإنسان). وهكذا الحال بالنسبة للعطف بـ (بل) و (لكن).

وثمة دواع تدعو القائل إلى ترك النص على المثبت والمنفى عند إنشائه لأسلوب القصر. منها: المقام أو الرغبة فى الإبهام على السامع أو القصد إلى إتاحة الفرصة للإنكار عند الحاجة. كما إذا قيل: (خالد متميز فى الدراسات النقدية والدراسات الأدبية والدراسات اللغوية) فنقول: (خالد متميز فى الدراسات النقدية لا غير) أى لا غير الدراسات النقدية، أى لا

---

(١) السابق ٢/ ٧٦.
(٢) المنهاج الواضح ص ١١٤ وعلم المعانى ص١٤٨.
(٣) شرح السعد ٢/ ٧٦ والمنهاج الواضح ص ١٤٤.

الدراسات الأدبية ولا الدراسات اللغوية، فنقصر الموصوف (خالد) على صفة واحدة وهى: تميزه فى الدراسات النقدية، ونترك النص على تميزه فى الدراست الأدبية والدراسات اللغوية لداع من الدواعى السابقة، وكما إذا قيل: (خالد متميز فى الدراسات النقدية وصالح وخليل) فنقول: (خالد متميز فى الدرسات النقدية لا غير) أى لا غير خالد، أى: ولا خليل، فتقصر الصفة وهى «التميز» فى الدرسات النقدية» على الموصوف وهو (خالد) وتترك النص على صالح وخليل لداع من الدواعى السابقة.

وأما بالنسبة لطرق القصر الثلاثة الأخرى، فإنها تختلف عن «طريقة العطف»، من جهة أن تلك الطرق» تنص على المثبت فقط دون المنفى»(١) فإذا قلت فى طريقة القصر «بالإثبات والنفى» (لا أمين إلا خالد) فقد نصصت على الذى أثبت له صفة «الأمانة» وهو خالد. ولم تنص على من نفيت عنه تلك الصفة وهو: حازم مثلا. ومن ذلك قول القائل (ما صلاح عبد الصبور إلا شاعر) فقد نص القائل على الصفة التى أثبتها لصلاح عبد الصبور وهى «الشاعرية» ولم ينص على الصفة التى نفاها عنه وهى «الخطابة» مثلا. وإذا قلت فى طريقة القصر بـ (إنما) (إنما السماء غائمة) - فقد نصصت على الصفة التى أثبتها للسماء، وهى «الغيم»، ولم تنص على الصفة التى نفيتها عنها وهى «الصفاء»، وإذا قلت بطريقة القصر بالتقديم: (شجاع خالد) فقد نصصت على الصفة التى أثبتها لخالد وهى «الشجاعة» ولم تنص على الصفة التى نفيتها عنه وهى «الجبن».

---

(١) شرح السعد ٢/ ٧٦.

الوجه الثالث: هو أن النفى بـ (لا) العاطفة أو لا يجتمع هو وطريقة النفى والاستثناء. وفى ضوء هذا الوجه لا يكون التركيب: (ما حجازى إلا شاعر لا خطيب) ـ بليغا، والسبب فى ذلك: «أن شرط المنفى بـ (لا) ألا يكون منفيا قبلها بغيرها من أدوات النفى، فإن «لا» موضوعة لنفى الحكم عن المعطوف، وإثباته للمعطوف عليه، لا ليعاد بها النفى بشىء قد نفى من قبل»(١).

أما طريقتا القصر بـ (إنما) و(التقديم) فيجتمع مع كل منهما (النفى بـ لا) مثل (أنما أنا مصرى لا سورى) ومثل (إلى الله أشكو لا إلى غيره) ذلك لأن النفى فى هاتين الطريقتين غير مصرح به، فلم يكن النفى بـ(لا) منفيا بغيرها من أدوات النفى. وطريقة القصر فيهما (إنما) و (التقديم)، أما العطف بـ (لا) فتأكيد لهذا القصر.

الوجه الرابع هو: أن أصل طريقة «النفى والاستثناء» أن تستعمل فى أمر يجهله المخاطب وينكره، بخلاف (إنما)، فهى حرف يستعمل فى أمر يعلمه المخاطب ولا ينكره(١). وإذا كان هناك إنكار فإنه يزول بأدنى تنبيه لعدم إصرار المخاطب عليه. فمثال «النفى والاستثناء» قولك لرفيقك وقد رأيت شبحا من بعيد: (ما هو إلا خالد) إذا اعتقد رفيقك أن ذلك الشبح غير خالد وأصر على هذا الاعتقاد.

ويرى البلاغيون أن «الحكم المعلوم» قد ينزل منزلة المجهول لاعتبار

(١) علم المعانى ص١٤٩.
(٢) شرح السعد ٢/ ٧٨.

مناسب فيستعمل لذلك المعلوم النفى والاستثناء. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول﴾ أى ما محمد إلا مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى مجانبة الهلاك والاتصاف بالخلود. فالمخاطبون وهم الصحابة (رضي الله عنهم) كانوا عالمين بكونه (صلى الله عليه وسلم) مقصورا على الرسالة غير جامع بين الرسالة ومجافاة الهلاك، لكنهم كانوا يعدون موته أمرا عظيما، فنزل استعظامهم هلاكه منزلة انكارهم إياه فاستعمل له: «النفى والاستثناء» والاعتبار المناسب لذلك هو: الاشعار بعظم هذا الأمر فى نفوسهم وشدة حرصهم على بقاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) بينهم:

ومثال (إنما) قولك (إنما هو أخوك) لمن يعلم ذلك ويقربه وأنت تريد أن ترققه عليه، أو تجعل من يعلم ذلك رقيقا مشفقا على أخيه. وقد ينزل المجهول منزل المعلوم لادعاء ظهوره فيستعمل له وسيلة القصر (إنما) مثل قوله تعالى حكاية عن اليهود ﴿إنما نحن مصلحون﴾ فقد ادعوا أن كونهم مصلحين أمر «ظاهر من شأنه ألا يجهله المخاطب ولا ينكره (١).

الوجه الخامس: يرى البلاغيون أن طريقة القصر بـ (إنما) تتميز عن طريقة القصربالعطف بميزة هى: أنه يعقل منها الحكمان معا: الإثبات للمذكور والنفى عما عداه، بخلاف العطف، فإنه يفهم منه أولا الإثبات، فقولك فى القصر بـ (إنما) (إنما خالد كريم) ـــ يدل على إثبات صفة الكريم لخالد، ونفى ما عداها من صفة البخل مثلا. ويتم ذلك دفعة واحدة، وقولك فى العطف (خالد كريم لا بخيل) ـ يدل على الإثبات أولا ثم

(١) السابق ٢/ ٨٠ والمنهاج الواضح ص ١٤٦.

النفى. وقولك (ما خالد بخيل بل كريم أو لكن كريم) يفهم منه أولا النفى ثم الإثبات.

ومن البين أن ثمة اختلافا بين فهم «الحكمين معا» وفهمهما متعاقبين، ذلك أن «فهم الحكمين معا يدل من أول الأمر على أن الكلام مراد به القصر. أما فهمهما واحدا بعد الآخر، فإنه يترك الفرصة للوهم أن يذهب قبل ذكر الحكم النافى إلى غير القصر»(١).

وأما طريقتا «التقديم» و«النفى والاستثناء» - فإنه: يفهم منهما أيضا الحكمان معا، غير أن «التقديم» يدل عليهما بالاحتمال، وطريق «النفى والاستثناء» يدل عليهما بمساعدة شىء آخر لا بالاستقلال فقولك (خالدا أكرمت) - يحتمل القصر إذا اعتبرت «الاثبات والنفى» ويحتمل غير القصر إذا اعتبرت (خالدا) معمولا لفعل محذوف، فلا يفيد إلا أحد الحكمين وهو «الإثبات». وقولك (ما ذهب إلا خالد) لا يدل على الحكمين معا إلا بمساعدة المستثنى منه المقدر، لأن الاستثناء إخراج فلا بد من ملاحظة المخرج منه.

وأما دلالة (إنما) عل الحكمين معا فهى بنص لفظها الموضوع للدلالة على معنى القصر. ومعنى ذلك أنها لا تدل على الحكمين معا بطريق الاحتمال كما فى التقديم، وهى تدل على الحكمين معا بالاستقلال، لا بمساعد شىء آخر كما فى النفى والاستثناء(٢).

الوجه السادس: هو أن الأصل والكثير أو الغالب فى طريقة «النفى

(١) علم المعانى ص ١٥٤.
(٢) السابق ١٥٤.

والاستثناء»، أن يؤخر المقصور عليه مع أداة الاستثناء(١) مثل (ما فهم المسألة إلا خالد) ويجوز تقديم المقصور عليه وأداة الاستثناء، على أن يظلا على حالهما من حيث الترتيب. وذلك بأن تكون الأداة متقدمة على المقصور عليه، وأن يذكر المقصور عليه بعدها مباشرة مثل (ما فهم إلا خالد المسألة) ومنه قول الشاعر:

فيا رب هل إلا بك النصر يرتجى عليهم وهل إلا عليك المعول

ويجب فى القصر بـ (إنما) تأخير المقصور عليه مثل (إنما فهم خالد المسألة) ولا يجوز تقديمه، لأن التقديم فى هذه الحالة يؤدى إلى الالتباس، كما إذا قلت فى (إنما أكرم زيد عمرا) - (إنما أكرم عمرا زيد) فيلتبس المقصور بالمقصور عليه، بخلاف «النفى والاستثناء» فإنه لا التباس فيه إذا قدم المقصور عليه، إذ المعروف أن المقصور عليه هو ما بعد أداة الاستثناء، سواء تقدم أو تأخر(٢).

ويرى البلاغيون المتأخرون أن لفظى (غير) و (سوى) مثل لفظ (إلا) فى إفادة القصرين: أى قصر الموصوف على الصفة، وقصر الصفة على الموصوف إفرادا، وقلبا، وتعيينا، وفى امتناع مجامع أو اجتماع «لا» العاطفة كما سبق (٣) فلا يصح (ما زيد غير شاعر لا كاتب) ولا (ما شاعر غير زيد لا عمرو)(٤).

(١) شرح السعد ٢/ ٨١.

(٢) السابق ٢/ ٨٣ وعلم المعانى ص١٥٥.

(٣) «سوى» هنا مثل غير، على مذهب من يجيز خروجها عن النصب على الظرفية إلى التأثر بالعوامل. أما على مذهب سيبويه الذى يجعل «سوى» ملازمة للنصب على الظرفية، فإنه لا تجرى عليه الأحكام التى ذكرها لغير هنا. (محيى الدين عبدالحميد، هامش ص٨٣ من جـ٧ شرح السعد).

(٤) شرح السعد ٢/ ٨٣.

الفصل الثامن

بلاغة الفصل والوصل

الفصل الثامن

بلاغة الفصل والوصل

أ - تحديد مفهوم «الفصل والوصل»

عرف البلاغيون المتأخرون «الوصل» بأنه «عطف بعض الجمل على بعض»(١) أو هو عطف جملة على أخرى بالواو. ومعنى هذا أن الوصل البلاغى لا يدخل فى مفهوم: عطف مفرد على مفرد، ولا عطف جملة على جمله بغير الواو، أى بحروف عطف أخرى مثل : الفاء - ثم - حتى - بل - لكن - لا - أما - أو - أو - أى. وعرفوا الفصل بأنه «ترك عطف بعض الجمل على بعض»(٢).

وهذا الموضوع دقيق تنبه إلى دقته اللغويون والبلاغيون المتقدمون، وعنى به البلاغيون المتأخرون. ولعل الجاحظ (-٢٥٥هـ) كان أول العلماء المتقدمين إلى التنبيه إليه عندما وافق على تعريف رجل فارسى للبلاغة بأنها «معرفة الفصل من الوصل»(٣)، وقد تابع الجاحظ فى هذا التعريف - أبو هلال(٤) العسكرى(-٣٩٥هـ).

(١) الإيضاح ص ٢٤٦.
(٢) شرح السعد ٣/ ٣.
(٣) البيان والتبيين ١/ ٨٨.
(٤) كتاب الصناعتين ص ٤٥٨.

وقد نص عبد القاهر الجرجانى (ـ ٤٧١هـ) على أهمية هذا الموضوع لأنه سر بلاغة الأسلوب وسبب جماله فقال: «اعلم أن العلم بما ينبغى أن يصنع فى الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمجىء بها منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى ـ من أسرار البلاغة ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة فى ذوق الكلام هم بها أفراد. وقد بلغ من قوة الأمر فى ذلك أنهم جعلوه حدا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: «معرفة الفصل من الوصل، وذلك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لاحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر المعانى البلاغية»(١).

وكان اهتمام الخطيب القزوينى قريبا من اهتمام عبد القاهر عندما تابعه فى بحث هذا الموضوع لتقديم مزيد من الكشف عن أهميته. فقال إن «تمييز موضع أحدهما من الآخر على ما تقتضية البلاغة ـ فن منها عظيم الخطر صعب المسلك، دقيق المأخذ لا يعرفه على وجهه ولا يحيط علما بكنهه إلا من أوتى فهم كلام العرب طبعا سليما ورزق فى إدراك أسراره ذوقا صحيحا، ولهذا قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل من الوصل، وما قصرها لأن الأمر كذلك، وإنما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه وأن أحدا لا يكمل فيه إلا كمل فى سائر فنونها، فوجب الاعتقاد بتحقيقه على أبلغ وجه فى البيان»(٢).

---

(١) دلائل الإعجاز بشرح محمود شاكر ص ٢٢٢.
(٢) الإيضاح ص ٢٤٦.

ومن البين أن نصوص كل من الجاحظ وأبى هلال وعبد القاهر والخطيب قد التقت جميعا على أن البلاغة هى «معرفة الفصل والوصل» قاصدين بذلك أن يعمد القائل إلى تأليف الكلام أو التركيب تأليفا فنيا، تسلم فيه ألفاظه من الخطأ، وتخلو معانيه من النقص لتحقيق التأثير المنشود.

وقد حرص البلاغيون على تنبيه الأديب أو البليغ إلى ضرورة الوعى بهذا الموضوع الذى يعتبر اختبارا لقدرته على الأداء الأسلوبى السليم. فقد أورد أبو هلال طائفة من النصوص فى كتاب الصناعتين فى فصل (المقاطع والفصل والوصل) - قال: «وقال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص - رضي الله عنه - . كان إذا تكلم تفقد الكلام وأعطى حق المقام وغاص فى استخدام المعنى بألطف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفا يحول بينه وبين ما يتبعه من الألفاظ»(١).

وقال : «وكان أكثم بن صيفى إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه «افصلوا بين كل معنى منقض، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض»(٢). وقال: «وكان الحارث بن أبى شمر الغسانى يقول لكاتبه المرقش: إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنى غير ما أنت فيه ففصل بينه وبين تبعيته من الألفاظ، فإنك أن مذقت (خلطت) ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفرت القلوب عن وعيها وملتها الأسماع واستثقلتها الرواة».

(١) كتاب الصناعتين ص ٤٥٨.

(٢) السابق ص ٤٦٠.

وقال: «وكان برز جمهر يقول: «إذا مدحت رجلا وهجوت آخر فاجعل بين القولين فصلا حتى يعرف المديح من الهجاء، كما تفصل فى كتبك إذا استأنفت القول وأكملت ما سلف من اللفظ»(١).

وأكد الحسن بن سهل - فى ختام وصاياه لكاتب عن منزلة الكاتب فى قوله وفعله - على أن يكون الكاتب عالما بـ «مقاطع الكلام ومعرفة الفصل مع الوصل، فإذا كان ذلك كذلك فهو كاتب مجيد، والقول إذا استكمل آلته واستتم معناه فالفصل عنده»(٢).

إن هذه النصوص - وغيرها مما هو وارد فى هذا الفصل من الصناعتين - تهدف إلى أن يكون البليغ أو الأديب - محيطا بنظام الأسلوب، واعيا بأفكار الكلام وعناصره وحدوده. وهو بذلك يكون قادرا على أن «يجمع فى كل عنصر معانيه الجزئية المتواصلة المترابطة المتكاملة، فإذا ما أتم الكلام عن أحد قطع الكلام عنده، وفصل بينه وبين العنصر الذى يليه، وبذلك تكون القطعة الأدبية ذات مقاطع واضحة ورسوم متميزة محدودة»(٣). ومن ثم فإن الأديب (الشاعر أو الناثر) إذا ذكر كلاما فى عنصر كان يجب أن يوصل بآخر، وعمد إلى قطعه عما هو فيه - فإن هذا الكلام سيصاب بالخلط والاضطراب، وسيدل ذلك على جهل الأديب ببلاغة الفصل والوصل التى تعنى بتحقيق التنظيم والترتيب والتنسيق.

---

(١) السابق ٤٦٠.

(٢) السابق ٤٦٠ ــ ٤٦١.

(٣) علم المعانى ص ١٩٠.

ولكن هل معنى «الفصل» فى التراث النقدى عند العرب يتفق مع هذا المعنى البلاغى؟ من البين أن البيت المفرد هو وحدة القصيدة فى الشعر العربى. هذه حقيقة، أى أن استقلال البيت عما قبله وما بعده من أبيات يمثل مزية فى نظر الشعراء، وفى نظر النقاد القدامى. ويظهر ذلك من كلامهم عن «فصول القصيدة ومقاطعها»(١)، وقد قصدوا بـ الفصول والمقاطع أواخر الأبيات التى تقابل مطالعها وابتداءاتها. وقد تناول كلامهم فصول الشعر ومقاطعه، وفصول النثر ومقاطعه. وعنوا أيضا بالمقطع أو الفصل آخر بيت فى القصيدة، تقطع به وتفصل عما عداها من قصائد الشاعر الأخرى. وقد رأوا أنه ينبغى أن يكون هذا البيت «أجود بيت فى القصيدة، وأدخل فى المعنى أى الغرض الذى من أجله نظمت القصيدة»(٢) وقد كان كلامهم عن «المقطع أو الفصل» فى النثر متوافقا مع كلامهم عنه فى الشعر. ذلك أنهم قد عنوا بالمقطع أو الفصل خاتمة الرسالة، ولفتوا نظر الكاتب الحاذق المترسل إلى ضرورة العناية بذلك.

ولكن عبد القاهر الجرجانى عندما طلع بنظرية النظم - عمد إلى ربط الفصل والوصل بباب العطف المعروف فى النحو. وتابعه فى ذلك البلاغيون المتأخرون حيث فسرت أقوالهم الوصل بأنه عطف جملة على أخرى بالواو، وفسرت الفصل بأنه ترك هذا العطف كما تبين منذ قليل.

---

(١) كتاب الصناعتين ص ٣٥٨ وما بعدها.

(٢) علم المعانى ص ١٩٥

٢ ـ مواضع الفصل والوصل:

١ ــ عند عبد القاهر الجرجانى: أجمل عبد القاهر مواضع الفصل والوصل بقوله: «وإذ قد عرفت هذه الأصول والقوانين فى شأن الجمل ووصلها، فاعلم أنا قد حصلنا على أن الجمل على ثلاثة أضرب: جملة حالها مع التى قبلها، حال الصفة مع الموصوف، والتأكيد مع المؤكد، فلا يكون فيها عطف البتة يشبه العطف فيها، لو عطفت بعطف الشىء على نفسه. وجملة حالها مع التى قبلها حال الأسم يكون غير الذى قبله إلا أنه يشاركه فى حكم ويدخل معه فى معنى، مثل أن يكون كلا الاسمين فاعلا، أو مفعولا، أو مضافا إليه ، فيكون حقا العطف. وجملة ليست فى شىء من الحالين بل سبيلها مع التى قبلها سبيل الاسم مع الاسم، لا يكون منه فى شىء، فلا يكون إياه ولا مشاركا له فى معنى، بل هو شىء إن ذكر لم يذكر إلا بأمر ينفرد به ويكون ذلكر الذى قبله وترك الذكر سواء فى حاله، لعدم التعلق بينه وبينه رأسا. وحق هذا ترك العطف البته»(١). ويعقب عبد القاهر على ذلك مستكملا فكرته «فترك العطف يكون: إما للاتصال إلى الغاية أو للانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين حالين»(٢).

٢ ــ وقد أسس البلاغيون من بعد عبد القاهر آراءهم فى الفصل والوصل على ما قاله وعمدوا إلى ضبط القواعد والتعريفات، والحدود

(١) دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر ص ٢٤٣.
(٢) السابق ص ٢٤٣.

الخاصة بهذين الموضوعين. بل إنهم عنوا على نحو تفصيلى ببيان مواضع كل من الفصل والوصل كما يلى:

أولا ـ مواضع الفصل:

ذكر البلاغيون المتأخرون أنه يجب الفصل بين الجملتين فى خمسة مواضع:

الموضع الأول: أن يكون بين الجملتين اتحاد تام. ويسمى البلاغيون ذلك: «كمال الاتصال». وهو على أنواع:

(أ) أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للأولى. مثل قول المتنبى(١):

وما الدهــر إلا من رواة قصائدى ... إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فالجملة الثانية (إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا) ـ أكدت الجملة الأولى (وما الدهر إلا من رواة قصائدى)، لأن معنى الجملتين واحد. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾. فقد فصل بين جملة (سواء عليهم...، وجملة (لا يؤمنون) والثانية مؤكدة للأولى، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ما هذا بشرا، إن هذا إلا ملك كريم﴾ فالجملة الثانية ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ تأكيد للجملة الأولى ﴿ما هذا بشرا﴾، «لأن إثبات كونه ملكا توكيد لنفى كونه بشرا»(٢).

(ب) أن تكون الجملة الثانية بيانا وتوضيحا للأولى، مثل قول أبى العلاء المعرى:

---

(١) ديوانه ١/ ٢٩.

(٢) علم المعانى ص ١٩٦.

الناس للناس من بدو وحاضـــرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فالثانية (بعض لبعض وإن لم يشعوا خدم) وضحت الأولى (الناس للناس)، فهى بيان لها. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم: هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾فالثانية (قال يا آدم...) بيان للأولى (فوسوس إليه ...).

(جـ) أن تكون الثانية بدلا من الأولى مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون﴾، فإن جملة (أمدكم بأنعام) الثانية بدل بعض من الأولى، لأن الأنعام والبنين بعض ما يعلمون. ومن ذلك قول الشاعر:

أقول له ارحل لا تقيمن عندنا وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

فقوله (لا تقيمن عندنا) بدل اشتمال من قوله (ارحل) (١).

الموضع الثاني: أن يكون بين الجملتين تباين أو اختلاف تام. ويسمى البلاغيون ذلك: «كمال الانقطاع» وهو على ثلاثة أنواع (٢).

(أ) أن تختلف الجملتان خبرا وإنشاء لفظا ومعنى. وذلك بأن تكون إحداهما خبرا لفظا ومعنى، والأخرى إنشاء لفظا ومعنى.

كقول الشاعر(٣):

(١) شرح السعد ٣/ ١١.
(٢) السابق ٣/ ٧.
(٣) الرائد : الذى يتقدم القوم لطلب الماء والكلأ. ارسوا: أقيموا. نزاولها: نحاول ونعالج تلك الحرب، والمراد: أقيموا نقاتل. فإن موت كل إنسان يجرى بقدر الله تعالى. لا الجبن ينجيه ولا الإقدام يرديه (هامش ٣/ ٧ من شرح السعد).

وقال رائدهم ارسوا نزاولها ... فكل حتف امرىء يجرى لمقدار

فالشاعر لم يعطف جملة (نزاولها) على جملة (ارسوا)، لأن نزاولها خبرا لفظا ومعنى وارسوا إنشاء لفظا ومعنى. ومن ذلك قول أبى العتاهية:

يا صاحب الدنيا المحب لها ... أنت الذى لا ينقضى تعبه

(ب) اختلاف الجملتين خبرا وإنشاء معنى فقط. وذلك بأن تكون إحداها خبرية لفظا ومعنى، والثانية خبرية لفظا وإنشائية معنى، مثل قولك (فلان مات، رحمه الله) فجملة (مات...) الأولى خبرية لفظا ومعنى. وجملة (رحمه الله) خبرية لفظا ومعناها إنشائى لأن المراد بها الدعاء على معنى: اللهم ارحمه(١).

(جـ) ألا يكون بين الجملتين جامع(٢)، أو مناسبة ما «بمعنى أن كلا منهما مستقل بنفسه»(٣) مثل قولك (عباس طويل، صابر شاعر)، ومثل (أحمد أديب ـ النسر طائر جارح) فلا يصح الوصل بين الجملتين فى كل مثال. وقد وجب ترك العطف لكمال الانقطاع والسبب فى ذلك: أن العطف يكون للجمع بين الشيئين والربط بينهما، «ولا يكون ذلك فى المعنيين إذا كان بينهما غاية التباين».

الموضع الثالث : شبه كمال الاتصال. والمراد به أن تكون الجملة الثانية كالمتصلة بالأولى، وسبب ذلك أن الثانية جواب لسؤال اقتضته الأولى فتتنزل

---

(١) علم المعانى ص ١٩٧.
(٢) شرح السعد ٣/ ٨.
(٣)علم المعانى للدكتور الجندى ١٩٧.

الثانية عن الأولى، كما يفصل الجواب عن السؤال لما بينهما من الاتصال(١).

ويسمى البلاغيون فصل الجملة الثانية عن الأولى في هذا الموضع (استئنافا) والجملة الثانية تسمى (مستأنفة)(٢) وقد رأوا أن الاستئناف ثلاثة أضرب وذلك بحسب ما يراد من السؤال ولحظ ذلك قالوا إن السؤال الذي اشتملت عليه الجملة الأولى واحد من ثلاثة فهو إما أن يكون عن سبب الحكم مطلقا، وإما أن يكون عن سبب خاص، وإما أن يكون عن شيء غير هذين.

أما السؤال عن الحكم أو السبب المطلق، فمثاله قول الشاعر:

قال لي: كيف أنت؟ قلت: عليل سهر دائم وحزن طويل(١)

والمراد ما سبب علتك؟ بقرينة العرف والعادة، لأنه إذا قيل: فلان مريض فإنما يسأل عن مرضه وسببه، لا أن يقال: هل سبب علته كذا وكذا لاسيما السهر والحزن حتى يكون السؤال عن السبب الخاص.

وأما السؤال عن السبب الخاص بهذا الحكم فمثاله قوله تعالى ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ بقرينة التأكيد، فالتأكيد دليل على أن السؤال عن السبب الخاص، فإن الجواب عن مطلق السبب لا يؤكد. وهذا الضرب يقتضي تأكيد الحكم الذي هو في الجملة الثانية: أعني الجواب، لأن السائل متردد في هذا السبب الخاص، هو سبب الحكم أم لا؟

---

(١) شرح السعد ٣/ ١٢.
(٢) السابق ٣/ ١٢، ١٣.

وأما السؤال عن غير السبب المطلق والخاص فمثاله قوله تعالى ﴿قالوا سلاما، قال سلام﴾ أى: فماذا قال إبراهيم فى جواب سلامهم؟ فقيل: سلام. أى حياهم بتحية أحسن من تحيتهم لكونها بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والثبوت. ومن ذلك قول الشاعر:

زعم العواذل أننى فى غمرة صدقوا، ولكن غمرتى لا تنجلى

العواذل: جمع عاذلة بمعنى جماعة عاذلة. وغمرة: شدة. صدقوا: أى الجماعات العواذل - صدقوا فى زعمهم أننى فى غمرة، ولكن غمرتى لا تنجلى ولا تنكشف، بخلاف أكثر الغمرات والشدائد، كأنه قيل: أصدقوا أم كذبوا؟ فقيل: صدقوا(١).

الموضع الرابع: شبه كمال الانقطاع: والمراد به أن تكون الجملة الثانية كالمنقطعة عن الجملة الأولى. وسببه: «أن يكون عطف الثانية على الأولى موهما بعطفها على غيرها مما ليس بمقصود» فيترك العطف دفعا لهذا التوهم، ويسمى الفصل حينئذ «قطعا». وقد شبه هذا بكمال الانقطاع باعتبار اشتماله على مانع من العطف إلا أنه لما كان خارجيا دفعه بنصب أو وضع قرينة - لم يجعل هذا من كمال الانقطاع. ومثال ذلك قول الشاعر:

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا، أراها فى الضلال تهيم

يصح عطفا على جملة لوجود مناسبة ظاهرة بينهما لاتحاد المسندين، لأن معنى أراها أظنها، وكون المسند إليه فى الجملة الأولى محبوبا، وفى الجملة

(١) شرح السعد ٣/ ١٤، ١٥.

الثانية محبا، لكن الشاعر ترك العطف، والسبب دفع التوهم على جملة أخرى وهى (أبغى بها) فتكون جملة أراها من مظنونات سلمى، وهذا غير مقصود، ولهذا امتنع العطف ووجب الفصل. وهذا يحتمل الاستئناف. كأنه قيل: كيف تراها فى هذا الظن؟ فقال: أراها تتحير فى أودية الضلال»(١).

الموضع الخامس: التوسط بين الكمالين. والمراد به توسط الجملتين بين كمال الاتصال وكمال الانقطاع، مع قيام المانع من الوصل. وذلك إذا وجدت رابطة قوية بين جملتين متفقتين خبرا أو إنشاء. لكن يمنع من العطف مانع وهو أن يكون للأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية، كقوله تعالى: ﴿وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم. إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم﴾ فجملة (الله يستهزئ بهم) لا يصح عطفها على جملة (قالوا) لئلا يلزم من ذلك اختصاص استهزاء الله بهم بوقت خلوهم إلى شياطينهم، والواقع أن استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت من الأوقات. ولا يصح أيضا أن تعطف جملة (الله يستهزئ بهم) على جملة (إنا معكم) لئلا يلزم من ذلك أن تكون الجملة المعطوفة من مقول المنافقين مع أنها من مقوله تعالى(٢)

ثانيا: مواضع الوصل:

بين البلاغيون الأحوال التى تقتضى الوصل بين الجمل. فذكروا أنه يجب الوصل فى ثلاثة مواضع:

(١) السابق ٣/ ١٢.
(٢) علم المعانى ص ٢٠٠.

الموضع الأول: هو أن يقصد القائل إشراك الجملتين فى الحكم الإعرابى، بحيث لا يوجد مانع لهذا الاشراك. ومثال ذلك قول أبى العلاء المعرى:

وحب العيش أعبد كل حر   وعلـم ساغبا أكل المـرار

فجملة «أعبد كل حر» لها موضع من الإعراب، فهى خبر للمبتدأ قبلها «حب» وأراد الشاعر إشراك الجملة الثانية «علم ساغبا...» فى هذا الحكم الإعرابى، وليس هناك مانع من ذلك ومن ذلك قول الشاعرة زينب بنت الطثرية ترثى أخاها:

وقد كان يروى المشرفى بكفه   ويبلغ أقصى حجرة الحى نائله

فقد وصلت الشاعرة بين الجملتين (يروى...)، و(يبلغ ...) لأنها أرادت إشراكهما فى الحكم الإعرابى، لأن الجملتين في محل نصب.

الموضع الثانى: أن تكون الجملتان متفقتين خبرا أو إنشاء لفظا ومعنى أو معنى فقط وكان بينهما تناسب تام (١) فى المعنى، ولا يوجد سبب يوجب

---

(١) المقصود بالتناسب: أن يكون بين الجملتين رابطة تجمع بينهما. كان يكون المسند إليه فى الأولى له تعلق بالمسند فى الثانية. وكان يكون المسند فى الأولى مماثلا للمسند فى الثانية أو مضادا له. ص٢٣٢ من البلاغة الواضحة. وبعبارة أخرى: أن التناسب بين الجملتين يعنى: أن تتوافر رابطة تجمع بينهما. فالموافقة فى نحو (يقرأ ويكتب) والتضاد فى نحو (يضحك ويبكى)، وإنما كان التضاد فى حكم الموافقة لأن الذهن يتصور أحد الضدين عند تصور الآخر، فالعلم يخطر على البال عند ذكر الجهل. كما تخطر الكتابة عند ذكر القراءة. والتناسب بين الجملتين يجب أن يكون باعتبار المسند إليهما والمسندين جميعا. فلا يقال (خليل قادم والبعير ذاهب) لعدم التناسب بين المسند إليهما (خليل والبعير) كما لا يقال (سعيد عالم وخليل قصير) لعدم التناسب بين المسندين (عالم وقصير). ص٢٠٢ من علم المعانى للدكتور درويش الجندى.

الفصل بينهما:

(١) فمثال الجملتين الخبريتين المتفقتين فى اللفظ والمعنى قوله تعالى: ﴿إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم﴾ وقول أبى العتاهية(١):

قد يدرك الراقد الهادى برقدته وقد يخيب أخو الروحات والدلج

فقد وصل الشاعر بين جملة (قد يدرك) وجملة (قد يخيب) لأنهما اتفقتا فى الخبرية، وبينهما مناسبة تامة، ولا يوجد ما يقتضى الفصل.

(٢) ومثال الجملتين الإنشائيتين المتفقتين فى اللفظ والمعنى. قوله تعالى: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾، وقوله ﴿فادع واستقم كما أمرت﴾، ومن ذلك قول منسوب لعلى بن أبى طالب (كرم الله وجهه) دع الإسراف مقتصدا، واذكر فى اليوم غدا، وأمسك من المال بقدر ضرورتك، وقدم الفضل ليوم حاجتك». ومن ذلك قول بشار بن برد(٢):

وادن إلى القربى المقرب نفسه ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم

فالجملتان فى كل من المثال الأول (كلوا)، و(اشربوا)، وفى المثال الثانى (ادع ، واستقم)، وفى المثال الثالث (دع) و(اذكر) إنشائيتان وقد تم الوصل. حيث وجدت المناسبة، وليس هناك ما يقتضى الفصل بينهما. وبيت بشار

(١) الروحات: جمع روحة. اسم بمعنى الرواح وهو السير آخر النهار من راح يروح ضد غدا يغدو. والدلج: جمع دلجة إذا سار من أول الليل يقول: قد يدرك القاعد مطالبه ويخيب المجد الساعى.

(٢) يريد بشار: قرب من يتقرب إليك بعقله وكماله، ولا تستشر أمام من لا يكتم الأسرار.

مكون من جملتين متحدتين إنشاء هما (ادن) و (لا تشهد) وهما متناسبتان في المعنى، ولا يوجد سبب يوجب الفصل، ولذلك عطفت الثانية على الأولى.

(٣) ومثال الجملتين المتفقتين خبرا في المعنى فقط قوله تعالى: ﴿إني أشهد الله واشهدوا﴾ أي: إني أشهد الله وأشهدكم، فالجملة الأولى (أشهد الله) خبرية لفظا ومعنى والجملة الثانية (واشهدوا) خبرية معنى إنشائية لفظا.

(٤) ومثال الجملتين المتفقتين إنشاء في المعنى فقط قولك (قابل خالد وتخبره بأن الرحلة ألغيت) أي قابل خالدا وأخبره بأن الرحلة ألغيت، فالجملة الأولى وهي (قابل) إنشائية لفظا ومعنى، والجملة الثانية (تخبره) خبرية لفظا إنشائية معنى.

الموضع الثالث : أن تكون الجملتان مختلفتين خبرا وإنشاء، أي تكون إحداهما خبرية والأخرى إنشائية، وإذا ترك الوصل - أوهم الفصل خلاف المقصود. ومثال ذلك قولك (لا وبارك الله فيك) جوابا عن سؤال من قال (هل لك حاجة أساعدك في قضائها؟). ففي المثال جملتان الأولى (لا..) خبرية لأن التقدير: لا حاجة لي. أي أن (لا) قائمة - هنا - مقام جملة خبرية. والثانية: إنشائية معنى خبرية لفظا، إذ المراد (اللهم باركه)، ولو فصلت بين الجملتين تاركا الوصل لتوهم السامع أنك تدعو عليه، في حين أنك تقصد الدعاء له. ومثال الفصل المؤدي إلى التوهم قول أبي بكر لرجل معه ثوب: أتبيع هذا الثوب؟ فأجاب الرجل (لا يرحمك الله)، فقال أبو بكر: (لا تقل هذا وقل: لا ويرحمك الله).

الفصل التاسع

بلاغة الإيجاز

الفصل التاسع

بلاغة الإيجاز

١ـ تحديد المفهوم:

من المعروف أن العرب قد نظرت إلى الإيجاز بوصفه قمة البلاغة، وأساس التركيب الأدبي. وقد تبنى هذه النظرة النقاد والبلاغيون القدامى، فيقول أبو هلال «قال أصحاب الإيجاز: الإيجاز هو قصور البلاغة على الحقيقة وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل فى باب الهذر والخطل، ويقول فى تفضيل الإيجاز «وقد قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز. قيل وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد وسمع رسول الله (ﷺ) رجلا يقول لرجل (كفاك الله ما أهمك) فقال: هذه البلاغة. وسمع آخر يقول (عصمك الله من المكاره) فقال: هذه البلاغة»(١).

ويذكر ابن سنان الخفاجى أن (الأصل فى مدح الإيجاز والاختصار فى الكلام ، أن الألفاظ غير مقصودة فى أنفسها، وإنما المقصود المعانى والأغراض التى احتيج إلى العبارة عنها بالكلام، فصار اللفظ بمنزلة الطريق إلى المعانى التى هى مقصودة، وإذا كان طريقان يوصل كل واحد منهما إلى المقصود على سواء فى السهولة، إلا أن أحدهما أخصر وأقرب من الآخر، فلابد أن يكون المحمود منهما هو أخصرهما وأقربهما سلوكا إلى

(١) كتاب الصناعتين ص ١٧٩.

المقصد»(١).

وقريب من هذا القول عبارة «جننج» Genung التى تنص على أن بلاغة الإيجاز راجعة إلى أن أول دافع لإثارة الشعور ـ هو الإسراع إلى نقطة الفكرة بأقل ما يمكن من الكلام. وللوصول إلى هذا يجب أن يوجه الهجوم المركزى إلى الألفاظ الرمزية بفكرة جعلها على أقصى ما يمكن من الخفة والسرعة وعدم الطول»(٢).

ويرى بعض الدارسين للبلاغة العربية، أن الإيجاز من طبيعة الشعوب السامية من حيث أن لغات هذه الشعوب تعتمد على الإجمال والتركيز فى الأداء، والتعبير بالكلمة الجامعة، والاكتفاء باللمحة الدالة ـ فى مقابل لغات الشعوب الآرية التى تعتمد التفصيل والفروع والاستطراد والميل إلى الشرح. ولم تعرف العربية التطويل والتفصيل إلا بعد اتصالها بالآرية فى العراق والأندلس. وإن كان القرآن الكريم قد مهد من قبل للإطناب وجعل الناس يقدرون أثره فى تقرير المعانى واتضاحها»(٣).

ولكن ثمة سؤالا: هل للإيجاز علاقة بالبيئة العربية الصحراوية، والبيئة الإسلامية؟

أجاب بعض الدارسين عن هذا السؤال، حين عمدوا إلى حصر مصادر هذه العلاقة فى «أن العربى الذى كان كثير الارتحال فى الصحراء كان عرضة فى الكثير الغالب إلى الظمأ القاتل مما يدفعه إلى السعى الحثيث إلى

(١) سر الفصاحة ،تحقيق: عبد المتعال الصعيدى ص ٢٠٦.
(٢) د. بدوى طبانة : قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ص ٣٠٢.
(٣) أحمد حسن الزيات: دفاع عن البلاغة ، ص ٨٩ ، ٩٠.

نبع صاف فى منعطف الوادى يروى غلته وينقع ظمأه، فتعود من أجل ذلك القصد إلى الهدف فى أوجز لفظ ومن أقصر طريق»(١) وفى «أن الأمية فى الجاهلية التى تستلزم الاعتماد على الذاكرة - كانت من أهم دواعى الإيجاز، لأن الكلام الموجز أيسر حفظا وأقرب تذكرا من غيره من صور الكلام» وفى «اتساع الدولة الإسلامية، والحاجة إلى سرعة البت فى أمورها(٢)». وفى «تدوين الرسائل وما يتطلبه ذلك التدوين من قراطيس كان الحصول عليها شاقا»(٣).

وأما القيمة الفنية للإيجاز فتتعين فى أن الإيجاز يمد الأسلوب بالإيحاء الفنى، وبإثارة خيال المتلقى، وتحريك ذهنه. يقول أحد الدارسين «الإيجاز يزيد من دلالته الكلام من طريق الإيحاء، لأنه يترك على أطراف المعانى ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال، حتى تبرز وتتلون وتتسع ثم تتشعب إلى معان أخرى يتحملها اللفظ بالتفسير أو التأويل»(٤).

٢ - تقسيم الإيجاز:

عنى البلاغيون المتقدمون بتقسيم الإيجاز وتحديد مفهوم كل قسم على نحو ما صنع أبو هلال العسكرى. فقد قال: «والإيجاز: القصر والحذف»(٥) مشيرا بذلك أنه على ضربين:

(١) النابغة الذبيانى ، لعمر الدسوقى ص ٤١ ، ٤٧.
(٢) علم المعانى ص ١٦٥.
(٣) السابق ص ١٦٥.
(٤) دفاع عن البلاغة ص ٩٩.
(٥) كتاب الصناعتين ص ١٨١.

الضرب الأول، إيجاز القصر. ووصفه بأنه «تقليل الألفاظ وتكثير المعانى»(١) وهو وصف زاده سعد الدين التفتازانى بأنه «الكلام الذى ليس فى نفس تركيبه حذف، ولكن فيه معانى كثيرة اقتضاها دلالة الالتزام أو التضمين»(٢). وقد أفاد الدارسون المحدثون للإيجاز من هذين التحديدين، حيث عرفوا إيجاز القصر بأنه «أن تتضمن العبارات القصيرة معانى كثيرة من غير حذف»(٣). وهو تعريف مركز وواضح فى الوقت نفسه. وقد مثل البلاغيون لهذا النوع من الايجاز بأمثلة عديدة، منها قوله تعالى: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾.

وتتمثل بلاغة الايجاز فى هذه الآية الكريمة. ذلك أنها كما يقول أبو هلال - تفوق أو تفضل عبارات موجزة ايجاز قصر وردت عن العرب، تدور حول معنى هذه الآية. مثل قولهم (القتل أنفى للقتل)(٤).

وقد وازن البلاغيون المتقدمون - كأبى هلال - والمتأخرون كالخطيب والتفتازانى بين الآية والمثل العربى. حيث انتهوا إلى أن لفظ الآية «فوق هذا القول لزيادته عليه فى الفائدة. وهو إبانة العدل لذكر القصاص وإظهار الغرض المرغوب عنه فيه لذكر الحياة واستدعاء الرغبة والرهبة لحكم الله به، ولا يجاوزه فى العبارة، فإن الذى هو تفكير قومهم (القتل أنفى للقتل) إنما هو (القصاص حياة)، وهذا أقل حروفا من ذاك، ولبعده من الكلفة بالتكرير

---

(١) السابق ص ١٨١.
(٢) مختصر السعد ٣/٤٧.
(٣) البلاغة الواضحة ص ٢٤٢.
(٤) كتاب الصناعتين ص ١٨١.

وهو قولهم (القتل أنفى للقتل) ولفظ القرآن برىء من ذلك، وبحسن التأليف، وشدة التلاؤم المدرك بالحس، لأن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة»(١).

وقد أضاء سعد الدين التفتازانى هذا النص لأبى هلال، وهو بسبيل المقارنة بين الآية والقول المأثور عن العرب. وقد رجح الآية على المثال العربى لعدة جهات:

أولها: قلة اللفظ الذى يناظر قولهم «القتل أنفى للقتل» من قوله تعالى: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ وما يناظره منه هو قوله سبحانه (فى القصاص حياة)، لأن قوله (ولكم) زائد على معنى قولهم (القتل أنفى للقتل) فحروف (فى القصاص حياة) مع التنوين أحد عشر. وحروف (القتل أنفى للقتل)أربعة عشر. أعنى الحروف الملفوظة إذ بالعبارة يتعلق الايجاز لا بالكتابة.

وثانيها: النص على المطلوب ـ يعنى الحياة ـ وما يفيده تنكير (حياة) من التعظيم، لمنع القصاص إياهم عما كانوا عليه من قتل جماعة بواحد. فحصل لهم فى هذا الجنس من الحكم ـ أعنى القصاص ـ حياة عظيمة أو من النوعية، أى لكم فى القصاص نوع من الحياة، وهى الحياة الفاصلة للمقتول. وهو الذى يقصد قتله، والقاتل وهو الذى يقصد القتل. بالارتداع عن القتل لمكان العلم بالاقتصاص.

(١) كتاب الصناعتين ص ١٨١.

وثالثها: أن قوله تعالى: ﴿ولكم فى القصاص حياة﴾ مطرد، إذ الاقتصاص مطلقا سبب للحياة، بخلاف القتل، فإنه قد يكون أنفى للقتل كالذى على وجه القصاص ، وقد يكون أدعى له كالقتل ظلما.

ورابعها: خلو الآية عن التكرار بخلاف قولهم، فإنه يشتمل على تكرار لفظ القتل ولا يخفى أن الخالى عن التكرار أفضل من المشتمل عليه، وإن لم يكن مخلا بالفصاحة.

وخامسها: استغناء الآية عن تقدير محذوف، بخلاف قولهم، فإن تقديره: «القتل أنفى للقتل من تركه».

وسادسها: اشتمال الآية على صنعة «المقابلة». وهى الجمع بين معنيين متقابلين فى الجملة كالقصاص والحياة(١).

ومثل هذا النوع أيضا: قوله تعالى: ﴿خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾. وقوله ﴿ألا له الخلق والأمر﴾. الذى اجتمعت فى كلماته كل صفات الكمال والعظمة والدقة التى دعت عمر ابن الخطاب يقول: «من بقى له بعد ذلك شىء فليطلبه»، وقول النبى (ﷺ): «الضعيف أمير الركب» و«المعدة بيت الداء. والحمية رأس الدواء، وعودوا كل جسم ما اعتاد». وسمع النبى (ﷺ) أعرابيا يقول فى دعائه «اللهم هب لى حقك، وأرض عن خلقك» فقال (ﷺ) هذا هو البلاغة (٢).

(١) شرح السعد ٣/ ٣٧ ، ٤٨ .

(٢) يحيى بن حمزة : الطراز ٢/ ١٢٧، ١٢٩، وقد عد أبو هلال العسكرى من هذا النوع (ايجاز قصر) باب المساواة . فيقول : «ومما يدخل فى هذا الباب المساواة». ==

الضرب الثاني: إيجاز الحذف. وهو: أن يقصد القائل إلى إكثار معنى التعبير أو التركيب مع حذف شيء منه. أو هو: «حذف كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تعين المحذوف، وإلا كان الحذف رديئا غير مقبول» (١)، وهذا المحذوف ينقسم إلى أقسام. وسبب هذا التقسيم: أن المحذوف إما جزء جملة، وإما جملة، وإما أكثر من جملة»(٢).

القسم الأول: المحذوف جزء جملة، وهو خمسة أنواع:

١ ــ أن يكون الجزء المحذوف مضافا حذف وأقيم المضاف إليه مكانه مثل قوله تعالى: ﴿وأسأل القرية﴾ أى أهل القرية.

٢ ــ أن يكون الجزء المحذوف موصوفا كقول سحيم بن وثيل الرياحي:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا … متى أضع العمامة تعرفونى

الثنايا: جمع ثنية. والثنية: العقبة. وفلان طلاع الثنايا: أي ركاب لصعاب الأمور وقوله (جلا) جملة وقعت صفة محذوف. أي أنا ابن رجل جلا. أى انكشف أمره، أو كشف الأمور.

= وقد جاء تعريفه لها وتحديده لمفهومها متحدا مع تحديد مفهوم الايجاز فقال وهو: أن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض، وهو المذهب المتوسط بين الايجاز والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله (كأن ألفاظه قوالب لمعانيه) أى لا يزيد بعضها على بعض، ومثل لذلك بأمثلة كثيرة منها (عدة المؤمن أخذ باليد) و (فضل العلم خير من فضل العبادة) كتاب الصناعتين ص ١٨٥ وما بعدها.

(١) شرح السعد (مختصر المعانى) ٣/٤٨.

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٩٠.

٣ ــ أن يكون الجزء المحذوف صفة مثل قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ فالجزء المحذوف (صحيحة) أو (سليمة) لأن المراد كل سفينة صحيحة أو غير معيبة، بدليل ما قبله ﴿أردت أن عيبها﴾ لدلالة على أن الملك كان لا يأخذ المعيبة.

٤ ــ أن يكون الجزء المحذوف شرطا. ويطرد هذا : بعد الأمر ـ والنهى ـ والاستفهام والتمنى، إذا كان ما بعدها يصلح أن يكون جوابا لشرط مقدر.

(أ) فمثال حذف الشرط بعد الأمر قوله تعالى: ﴿فاتبعونى يحببكم الله﴾ أى فإن تتبعونى يحببكم الله.

(ب) ومثال حذفه بعد الاستفهام (قولك: أين بيتك أزرك؟) أى: إن تعرفنى بيتك أزرك.

(جـ) ومثال حذفه بعد التمنى قول من لا يملك شيئا (ليتنى من الأغنياء أكن محسنا) أى إن صرت من الأغنياء أكن محسنا.

٥ ــ أن يكون الجزء المحذوف جواب شرط. وحذف جواب الشرط يكون لواحد من ثلاثة أسباب:

الأول: مجرد الاختصار مثل ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون﴾ فهذا شرط حذف جوابه. أى أعرضوا: بدليل ما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾.

الثانى: الدلالة على أن جواب الشرط شىء لا يحيط به الوصف.

الثالث: أن تذهب نفس السامع فيه كل مذهب ممكن. ومثاله،قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾، وقوله ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ وقوله ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾. والتقدير فى هذه الآيات «لرأيت أمرا عظيما» فقد حذف جواب الشرط للدلالة على أنه لا يحيط به الوصف أو لتذهب نفس ا لسامع فيه كل مذهب.

٦ ــ أن يكون الجزء المحذوف حرفا. ويقول أبو هلال فى ذلك «ومن الحذف إسقاط (لا)» (١) ومثاله قوله تعالى: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف، حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين﴾ والمراد : لا تفتأ . فحذفت لا. ومن ذلك قول امرىء القيس:

فقلت يمين الله أبرح قاعدا ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أى: لا أبرح قاعدا»(٢).

٧ ــ أن يكون الجزء المحذوف مضافا إليه مثل قوله تعالى: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر﴾أى بعشر ليال. ومثل قوله: ﴿ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد﴾، والمراد لله الأمر من قبل غلب الروم ومن بعده.

٨ ــ أن يكون الجزء المحذوف قسما مثل قوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم﴾ التقدير (والله لقد أنزلنا...) وقوله ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين﴾ تقديره (والله لندخلنهم...).

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٩٠.
(٢) ديوانه : ص ١٩٠ وشرح السعد (مختصر المعانى) ٣/ ٤٩.

٩ ـ أن يكون المحذوف جواب قسم. مثل قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد﴾. ويجوز أن يكون الجواب: لقد أرسلنا محمدا بدليل قوله: بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم.

١٠ ـ أن يكون المحذوف معطوفا. مثل قوله تعالى: ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا﴾ والتقدير: لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل. بدليل قوله: أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا(١).

القسم الثانى: المحذوف جملة. والمراد بالجملة هنا «الكلام المستقل الذى لا يكون جزءا من كلام آخر» أو هى الجملة التامة. وقد حدد البلاغيون الجملة المحذوفة من التركيب بأنها:

١ ـ أما أن تكون مسببة عن سبب مذكور مثل قوله تعالى: ﴿ليحق الحق ويبطل الباطل﴾ فهذا القول سبب مذكور حذف مسببه، التقدير فعل الله ما فعل من دحر الكفار فى غزوة بدر ليحق الحق ويبطل الباطل. وقوله: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا، ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون﴾ والتقدير: ولكن أرسلناك رحمة مّن ربك. فجملة (أرسلناك) المحذوفة مسببة عن سبب مذكور هو رحمة من ربك.

(١) السابق ٣/ ٤٩ ـ ٥٠.

٢ ــ وأما أن تكون الجملة سببا لمسبب مذكور. مثل قوله تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم﴾ أى فضربه بها فانفجرت. فقوله (فانفجرت) مسبب مذكور سبب الجملة المحذوفة (فضربه بها).

٣ ــ وأما أن تكون الجملة المحذوفة: سؤالا مقدرا، وذلك ما يكون فى الاستئناف، وهو على نوعين:

(أ) استئناف بإعادة اسم ما استؤنف عنه الحديث، كقولك (أحسنت إلى سعيد، سعيد حقيق بالإحسان). وتقدير المحذوف وهو السؤال المقدر: لماذا أحسنت إلى سعيد؟.

(ب) استئناف بإعادة صفة ما استؤنف عنه الحديث، كقولك (أكرمت محمدا، صديقى القديم أهل للإكرام) وتقدير المحذوف وهو السؤال المقدر: هل هو حقيق بالإكرام؟

وهذا النوع أبلغ لاشتماله على بيان السبب الموجب للحكم كالصداقة فى المثال المذكور(١).

القسم الثالث ، أن يكون المحذوف أكثر من جملة، مثل قوله تعالى: ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون. يوسف أيها الصديق: أفتنا فى سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات. لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾. أى فارسلون إلى يوسف لاستعبر الرؤيا، فارسلوه

---

(١) علم المعانى للدكتور درويش الجندى ص ١٧٢.

فاتاه، فقال له: يوسف أيها الصديق. ومن ذلك قوله تعالى فى حكاية موسى عليه السلام مع ابنتى شعيب: ﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾. فالمحذوف عدة جمل، أى: فذهبتا إلى أبيهما، وقصتا عليه ما كان من أمر موسى، فأرسل إليه، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء. فهذا التقدير على أساس «نظم الكلام من غير حذف»(١)

(١) البلاغة الوضحة ص ٢٤١.

٢ ــ وأما أن تكون الجملة سببا لمسبب مذكور. مثل قوله تعالى: ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم﴾ أى فضربه بها فانفجرت. فقوله (فانفجرت) مسبب مذكور سبب الجملة المحذوفة (فضربه بها).

٣ ــ وأما أن تكون الجملة المحذوفة: سؤالا مقدرا، وذلك ما يكون فى الاستئناف، وهو على نوعين:

(أ) استئناف بإعادة اسم ما استؤنف عنه الحديث، كقولك (أحسنت إلى سعيد، سعيد حقيق بالإحسان). وتقدير المحذوف وهو السؤال المقدر: لماذا أحسنت إلى سعيد؟.

(ب) استئناف بإعادة صفة ما استؤنف عنه الحديث، كقولك (أكرمت محمدا، صديقى القديم أهل للإكرام) وتقدير المحذوف وهو السؤال المقدر: هل هو حقيق بالإكرام؟

وهذا النوع أبلغ لاشتماله على بيان السبب الموجب للحكم كالصداقة فى المثال المذكور(١).

القسم الثالث : أن يكون المحذوف أكثر من جملة، مثل قوله تعالى: ﴿أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون. يوسف أيها الصديق: أفتنا فى سبع بقرات سمان، يأكلهن سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات. لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون﴾. أى فارسلون إلى يوسف لاستعبر الرؤيا، فارسلوه

---

(١) علم المعانى للدكتور درويش الجندى ص ١٧٢.

فاتاه، فقال له: يوسف أيها الصديق. ومن ذلك قوله تعالى فى حكاية موسى عليه السلام مع ابنتى شعيب: ﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل، فقال : رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾. فالمحذوف عدة جمل، أى: فذهبتا إلى أبيهما، وقصتا عليه ما كان من أمر موسى، فأرسل إليه، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء. فهذا التقدير على أساس «نظم الكلام من غير حذف»(١)

(١) البلاغة الوضحة ص ٢٤١.

الفصل العاشر

بلاغة الإطناب

الفصـل العاشر

بلاغة الإطناب

١ ــ تحديد المفهوم:

تناول البلاغيون المتقدمون قيمة الإطناب. فنصوا على بلاغته، على نحو ماعرض إليه أبو هلال العسكرى فى الصناعتين(١). قال: «قال أصحاب الإطناب: المنطق إنما هو بيان، والبيان لا يكون إلا بالإشباع، والشفاء إلا بالإقناع الكلام أبينه، وأبينه أشده إحاطة بالمعنى، ولا يحاط بالمعانى إحاطة تامة إلابالاستقصاء والايجاز للخواص، والإطناب يشترك فيه الخاصة والعامة».

وقد اتفق البلاغيون على أن الإطناب هو «أن يزيد القائل ألفاظه على المعنى الذى يقصد التعبير عنه. بشرط أن تحقق هذه الزيادة فائدة، وإذا لم تكن فى الزيادة فائدة سميت «تطويلا» وذلك إذا كانت غير متعينة وسميت «حشوا» إن كانت متعينة. فمثال التطويل قول عنترة(٢).

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

---

(١) كتاب الصناعتين ص ١٩٦.
(٢) ديوانه ص ٨٩ والمعلقات السبع ص ١٩٢.

ومثال الحشو قول زهير بن أبى سلمى(١):

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى

٢ـ وسائلــه :

واتفقوا كذلك على أن الإطناب يكون بعدة وسائل:

الوسيلة الأولى: أن يعمد القائل إلى الإيضاح بعد الإبهام، لأنه بذلك يكون قد قرر المعنى وثبته فى ذهن السامع. وقد امتدحوا هذه الوسيلة لفائدتها فى أن السامع يمكنه بها أن «يرى المعنى فى صورتين مختلفتين: إحداهما مبهمة والأخرى موضحة. وعلمان خير من علم واحد. أو أن يتمكن المعنى فى النفس فضل تمكن لما جبل الله النفوس عليه من أن الشىء إذا ذكر مبهما ثم بين، كأن أوقع عندها، أو تكتمل لذة العلم بالمعنى لما لا يخفى من أن نيل الشىء بعد الشوق والطلب ألذّ نحو قوله تعالى ﴿رب اشرح لى صدرى﴾ فإن (اشرح لى) يفيد شرح شىء ماله (أى للطالب)، وصدرى يفيد تفسير ذلك الشىء»(٢)،(٣)، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾، فقد أوضح سبحانه «الإبهام» الذى تضمنه لفظ الأمر، وذلك لتقرير المعانى فى ذهن السامع بذكره مرتين. مرة على طريق الإجمال والإبهام. ومرة على طريق الإيضاح والتفصيل. ويندرج تحت هذه الوسيلة أمران:

(١) ديوانه ص ٢٥ تحقيق د. فخر الدين قباوة ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠ ـ عمى: جاهل.

(٢) شرح السعد (مختصر المعانى) ٣/ ٥٢.

(٣) السابق ٣/ ٥٣.

الأمر الأول: صيغتا (نعم) الدالة على المدح و(بئس) الدالة على الذم، على رأى من يجعل المخصوص خبر مبتدأ محذوف إذ لو أريد الاختصار، أى ترك الإطناب ـ لكفى أن يقال (نعم خالد) بدل أن يقال (نعم الرجل خالد). ومن ذلك (نعم المجاهد فى سبيل الله على)، و (بئس المنحرف عن القيم الأخلاقية فلان)، ومن الواضح أنه قد تحقق فى توظيف هاتين الصيغتين الإيضاح بعد الإبهام. وقد مثل هذا حسنا وجمالا فى رأى البلاغيين. ولكنهم أضافوا لهما حسنا آخر من حيث «إبراز الكلام فى معرض التوسط بين الإيجاز الخالص والإطناب الخالص. فهو ليس ايجازا خالصا وذلك لما فيه من الإيضاح بعد الإبهام. وهو ليس إطناب خالصا لما فيه من حذف المبتدأ»(١) وإبهام الجمع بين المتنافيين: الايجاز والإطناب يزيد التركيب حينئذ جمالا وحسنا وذلك «لأن إبهام الجمع بين المتنافيين من الأمور المستغربة التى تستلذ بها النفس»(٢).

الأمر الثانى هو: التوشيع. وهو فى اللغة: لف القطن المندوف وفى الاصطلاح البلاغى: أن يأتى القائل فى عجز الكلام غالبا بمثنى مفسر باسمين، ثانيهما معطوف على الأول. ووجه المناسبة بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى: أن فى المعنى الاصطلاحى لفا وندفا أى تفرقة وتفصيلا. وإن كان اللف فى الاصطلاح ـ سابقا على الندف عكس ما فى اللغوى(٣). ومثال ذلك قول الرسول (ﷺ): «يشيب ابن آدم وتشب فيه

(١) شرح السعد ٣/ ٥٣ .
(٢) السابق ٣/ ٥٣.
(٣) السابق ٣/ ٥٣.

خلصتان: الحرص وطول الأمل». وقوله: «الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنب».

وقد يأتى المثنى فى أول الكلام. مثل قوله (ﷺ) «منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال». وقوله «خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن: البخل وسوء الخلق». وقد يأتى المثنى فى وسط الكلام مثل قول شوقى(١).

بأيديهم نوران: ذكر وسنة　　فما بالهم فى حالك الظلمات

وقد يكون المفسر جمعا كما فى قول محمد بن وهيب:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها　　شمس الضحى وأبو اسحق والقمر(٢)

الوسيلة الثانية: «ذكر الخاص بعد العام»(٣) والمراد بها: الذكر على سبيل العطف. وفائدته التنبيه على مزية الخاص، حتى كأنه ليس من جنس العام تنزيلا للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات، يعنى أنه لما امتاز عن سائر أفراد العام بماله من الأوصاف الشريفة جعل كأنه شىء مغاير للعام لا يشمله العام ولا يعرف حكمه منه»(٤).

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾. فقد خص سبحانه الصلاة الوسطى وهى صلاة العصر بالذكر لزيادة فضلها.

---

(١) ديوانه ١/ ١٠١.
(٢) شرح السعد ٣/ ٥٤ .
(٣) السابق ٣/ ٥٤.
(٤) السابق ٣/ ٥٤.

ومثل قوله تعالى: ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾. فقد خصّ سبحانه الرروح (جبريل) بالذكر مع أنه داخل فى عموم الملائكة تكريما له، وتعظيما لشأنه حتى كأنه من جنس آخر. ففائدة الزيادة هنا هى: التنويه بشأن الخاص والإشادة به.

الوسيلة الثالثة: ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات﴾، وهما لفظان عامان يدخل فى عمومها من ذكر من قبل. والغرض البلاغى من هذه الزيادة هو إفادة الشمول مع العناية بالخاص حيث ذكره مرتين: مرة وحده، ومرة مندرجا تحت العام(١).

الوسيلة الرابعة: التكرير. والمراد به أن يذكر القائل الشىء مرتين أو أكثر وذلك لدواع نفسية. فإذا لم يكن التكرار نتيجة دواع نفسية ـ لم يكن إطنابا وإنما يكون تطويلا»(٢) وقد حصر البلاغيون دواعى التكرير فى الآتى:

١ ـ تقرير المعنى وتقويته فى نفس المتلقى، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون﴾ فـ (كلا) ردع عن الانهماك فى الدنيا وتنبيه على الخطأ فى ذلك، وقوله (سوف تعلمون) إنذار وتخويف، أى سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه، إذا عاينتم ما ينتظركم من أهوال الحشر يوم القيامة، وفى تكرير قوله تعالى: (كلا سوف تعلمون) تأكيد للردع والإنذار معا. وفى كلمة (ثم) دلالة على أن الإنذار الثانى، يعلو على

(١) البلاغة الواضحة ص ١٧٧.
(٢) شرح السعد (مختصر المعانى) ٣/ ٥٤.

الأول تنزيلا لبعد المرتبة منزلة بعد الزمان، واستعمالا للفظ (ثم) للدلالة على التدرج فى سلم الإنذار(١).

٢ ـ إرادة الاستيعاب الذهنى. مثل قولك (قرأت الرواية فصلا فصلا وفهمتها كلمة كلمة) فالتكرار هنا يدل على أن القائل قد استوعب قراءة الرواية بحيث لم يترك منها أى كلمة بدون قراءة وفهم.

٣ ـ ترغيب المتلقى فى قبول النصيحة. مثل قوله تعالى: ﴿وقال الذى آمن يا قوم اتبعونى أهديكم سبيل الرشاد. يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع، وأن الآخرة هى دار القرار﴾ فتكرار (يا قوم) قصد به الذى آمن ـ استمالة القلوب حتى لا يشكون فى إخلاصه وهو يقدم لهم النصيحة.

٤ ـ مراعاة اليقظة الذهنية لطول الفصل: فقد يكرر القائل صيغة في التركيب ضمانا ليقظة ذهن المتلقى وحرصا على متابعته لما يقول. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين﴾ فقد كرر ـ يوسف عليه السلام ـ الفعل رأيت. وذلك لطول الفصل بين المعمول (أحد عشر...) والحال (ساجدين) خشية أن يكون الذهن قد غفل عما ذكره أولا، وقوله ﴿ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة، ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا : إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ ومن ذلك قول الشاعر:

لقد علم الحى اليمانون أننى ... إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

---

(١) السابق ٣/ ٥٤ وعلم المعانى للدكتور درويش الجندى ص ١٧٨.

حيث كرر الشاعر صيغة (أنى) فى الشطر الثانى من البيت للسبب المذكور.

٥ ـ الاستمتاع النفسى بذكر الصيغة المكررة. ومن ذلك قول مروان بن أبى حفصة:

سقى الله نجدا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على القرب والبعد

٦ ـ التحسر النفسى بالصيغة المكررة مثل قول الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة:

فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة موضعا

ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر مترعا

وثمة مواطن ومواقف تدعو الشاعر أو الناثر إلى «تكرير صيغة قصدا إلى «إطناب» الكلام - غير ما تقدم. منها مواقف الخطابة والفخر، والمدح والإرشاد(١).

الوسيلة الخامسة: الإيغال وهو لغة مأخوذة من :أوغل فى البلاد إذا أبعد فيها، وقيل هو: سرعة الدخول فى الشىء. وفى الإصطلاح البلاغى فسره البلاغيون بتفسيرين:

التفسير الأول: خاص بالشعر فقط. وهو ختم البيت أو إنهائه بأمر يفيد فائدة يتم المعنى بدونها. وهذه الفائدة الغرض منها:

(أ) إما زيادة المبالغة فى التصوير والتشبيه مثل قول الخنساء(٢):

---

(١) البلاغة الواضحة ص ٢٤٩.
(٢) ديوانها ص٨٩ . لتأتم لتهتدى. علم : جبل مرتفع.

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

فقولها (كأنه علم) «واف بالمقصود: أعني التشبيه بما يهتدى به، إلا أن قولها: (في رأسه نار) - زيادة مبالغة»(١) أو أنها «لم ترض أن تشبهه بالعلم الذي هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية حتى جعلت في رأسه ناراً»(٢)، ومن ذلك قول ذي الرمة غيلان بن عقبة(-١١٧هـ).

قف العيس في أطلال مية وأسأل رسوما كأخلاق الرداء المسلسل

أظن الذي يجدى عليك سؤالها دموعا كتبذير الجمال المفصل (٣)

(ب) وإما تحقيق التشبيه(٤)، «أو بيان التساوي بين الطرفين في وجه الشبه»(٥)، وذلك مثل قول امرىء القيس(٦):

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا : الجزع الذي لم يثقب

فإنه لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافية، واحتاج إليها جاء بزيادة حسنة

(١) شرح السعد ٣/ ٥٥.
(٢) الإيضاح ص ٣٠٥.
(٣) العيس: الإبل البيضاء يخالط بياضها سواد خفيف. الواحد أعيس وعيساء. الأطلال: الآثار الشاخصة من بقايا الديار. مية: اسم المحبوبة. الرسوم: ما لصق بالأرض من آثار. أخلاق: خلقان جمع خلق بالتحريك وهو البالي. المسلسل من الثياب: ما كان فيه وشي مخطط. يجدى: يعطى وينفع. تبذير: تفريق. الجمال المفصل: اللؤلؤ المفصول بين كل جنسين منه بآخر من جوهر آخر. ينظر ديوانه ط٢ بيروت ص٣٠٦.
(٤) الإيضاح ص ٣٠٦.
(٥) علم المعاني للدكتور درويش الجندي ص ١٨٩.
(٦) ديوانه ص٥٣ الخباء: ضرب خاص من الخيام . الجزع: الخرز فيه سواد وبياض. ويريد بالوحش : البقر.

فى قوله (لم يثقب)، لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون. ومثله زهير بن أبي سلمى(١):

كأن فتات العهن فـى كل منــزل نزلن به، حب الفنا لم يحطــم

فالشاعر يشبه فتات الصوف الأحمر بحب الفنا. والفنا: شجر له حب ظاهره أحمر وباطنه أبيض، ولا يتم التساوى بين طرفى التشبيه إلا إذا كان حب الفنا وهو المشبه به لم يحطم. لذلك: أتى بهذه الزيادة (لم يحطم) على جهة الإيغال، ومن ذلك قول امرىء القيس(٢):

حملت ردينيـا كأنــه سنانــه سنــا لهب لم يتصل بدخــان

فقد قصد بقوله (لم يتصل بدخان) ليسوى بين الطرفين في وجه الشبه وهو (البريق) لأن سنان الرمح البراق أكثر شبها فى ذلك بضوء اللهب الذى لم يتصل بدخان.

والتفسير الثانى: لا يختص بالشعر فقط، بل هو ختم التعبير بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها «سواء أكان هذا التعبير شعرا أم كان نثرا مسجوعا». ومثال ذلك من غير الشعر: قوله تعالى: ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون﴾. فقوله سبحانه (وهم مهتدون) علة -

(١) ديوانه ص ١٣.
(٢) ديوانه ص ١١٣.

لأن المعنى يتم بدونه. ذلك لأن «الرسل مهتدون قطعا، فالإخبار بأنهم مهتدون هنا تصريح بما يفهم من الكلام التزاما، ولكن هذا التصريح لم يأت لمجرد تحقيق السجع بل جاء لغرض جليل هو زيادة الحث على اتباع الرسل والترغيب فى الاقتداء بهم»(١). وذلك لأن الإنسان إذا اتبع هؤلاء المهتدين لم يخسر شيئا لا من دينه ولا من دنياه، بل ينضم إليه خير الدنيا والآخرة(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وإن كثيرا من الناس لفاسقون، أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾. فقد تم المعنى بقوله سبحانه (ومن أحسن من الله حكما) وفى قوله سبحانه (لقوم يوقنون) - إيغال. لأنه أفاد معنى زائدا، والسبب فى ذلك أنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم - إلا من أيقن أنه سبحانه واحد حكيم عادل(٣).

وقد نبه الدارسون المحدثون إلى قيمة «الإيغال» بهذا المفهوم فى التركيبين الشعرى والنثرى، وإلى أنه يدل على براعة الشاعر والناثر، ذلك لأن تحقيقه معناه عدم تحكم القافية فى الشاعر، وعدم تحكم السجع فى الناثر، لأن كل واحد منهما «قد استطاع أن يأتى بالزيادة التى تتطلبها القافية أو السجع، محققه فائدة زائدة فى المعنى، فتحقق من أجل ذلك الايغال الذى يكسب الكلام قوة وجمالا، أما إذا تحكمت القافية فى الشاعر أو تحكم السجع فى الناثر فذلك دليل القصور وأمارة التكلف»(٤).

---

(١) شرح السعد ٣/ ٥٦.
(٢) علم المعاني للدكتور درويش الجندى ص ١٨٠.
(٣) ابن أبي الأصبع: بديع القرآن: تحقيق الدكتور حفنى شرف ص ٩٢.
(٤) الدكتور بدوى طبانة. قدامة بن جعفر والنقد الأدبى ص ٢٦٦.

الوسيلة السادسة: التذييل. وقد قصد به البلاغيون أن يعقب القائل الجملة بجملة أخرى تشتمل على معنى الجملة الأولى. وذلك للتأكيد(١). وفرقوا بينه وبين الايغال من حيث «العموم» ومن حيث «الخصوص» فالتذييل أعم من جهة أنه يكون فى ختم أوآخر الكلام وفى أثنائه. على حين أن الايغال لا يكون إلا في آخر الكلام. وهو أخص منه. من جهة أن الايغال قد يكون بغير الجملة ولغير التأكيد(٢).

وقد نوع البلاغيون التذييل على نوعين، على أساس استقلال الجملة الثانية بحكم منفصل عن الأولى، أو عدم استقلالها بها.

النوع الأول: وصفه البلاغيون بأنه «الذي أخرج مخرج المثال(٣)» وهو أن تمثل الجملة الثانية حكما كليا منفصلا عما قبله، جاريا مجرى الأمثال فى الاستقلال، وشيوع الاستعمال. مثل قوله تعالى: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا﴾. فقوله سبحانه «إن الباطل كان زهوقا» تذييل قصد به تأكيد الجملة قبله. ويلاحظ أنه يجرى مجرى الأمثال، لأنه مستقل عن الجملة التى سبقته من حيث اشتماله على معنى كلى هو أن الباطل لا يدوم.

والتذييل من ناحية أخرى قد ورد فى الآية «لتأكيد منطوق»؛ ذلك أن زهوق الباطل منطوق فى قوله (وزهق الباطل) فى مقابل مجيئة فى أساليب

(١) شرح السعد (مختصر المعانى) ٣/ ٥٦.
(٢) السابق : ٣/ ٥٦.
(٣) السابق ٣/ ٥٦ ، ٥٧.

أخرى (لتأكيد مفهوم)(١) كقول النابغة الذبياني(٢):

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث، أى الرجال المهذب

فهذا الكلام دل بمفهومه ومحتواه على أن الإنسان الكامل الخالى من العيوب والنقائص غير موجود فى واقع الحياة. وقد أكد هذا المفهوم العام بالجملة الثانية وهى (أى الرجال المهذب) التى تعنى استحالة وجود إنسان كملت فيه الفضائل - وهذا الاستفهام بمعنى الإنكار .فالتذييل هنا قد جرى مجرى المثل، لأنه استقل عن الجملة السابقة من جهة أنه قد احتوى على معنى كلى هو أنه لا يوجد فى واقع الحياة رجل مكتمل الأخلاق.

والنوع الثانى: وصفه البلاغيون بأنه «الذى لم يخرج مخرج المثل»(٣) وارادوا به أن معنى الجملة الثانية غير مستقل ولا منفصل عن معنى الجملة الأولى السابقة. فمعنى الجملة الثانية متوقف على معنى الأولى. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا. وهلى نجازى إلا الكفور﴾ فقوله سبحانه (وهل نجازى إلا الكفور) تذييل ليس جاريا مجرى المثل إذا قصد بالجزاء فى (وهل نجازى..) ذلك الجزاء الخاص الذى سبقت الإشارة إليه فى الآيات السابقة وهو: إرسال سيل العرم وتبديل جنتيهم بجنتين ذواتى أكل خمط وشىء من سدر قليل. أما إذا قصد بالجزاء - مطلق الجزاء على معنى: وهل يجازى بالشر مطلقا إلا الكفور - كان المعنى قائمًا بذاته مستقلا

(١) السابق ٣/ ٥٧.
(٢) ص٧٤ لا تلمه: حال من «أخا» لعمومه. ومن ضمير المخاطب فى لست . وشعث: تفرق وذميم خصال. وفساد .
(٣) السابق ٣/ ٥٦.

عما سبقه، ومن ثم يكون التذييل جاريا مجرى المثل.

ومن هذا النوع الذى «لا يجرى مجرى المثل» قول ابن نباته السعدى:

لم يبق جودك لى شيئا أؤمله تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

فجملة: تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل - تذييل، لا يفهم معناها مستقلا عما قبلها، لأن معنى هذه الجملة متوقف على الجملة السابقة (لم يبق جودك لى شيئا أؤمله).

وقد وردت فى القرآن الكريم آيات اجتمع فيها النوعان. من ذلك قوله تعالى: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، أفإن مت فهم الخالدون، كل نفس ذائقة الموت﴾ فقوله سبحانه (أفإن مت فهم الخالدون) تذييل لا يجرى مجرى المثل، لأن معناه ليس مستقلا ولا منفصلا عما قبله فهو متوقف عليه مرتبط به. وأما قوله سبحانه ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ فهو تذييل جار مجرى المثل.

الوسيلة السابعة: وقد يكون الإطناب بالتكميل أو «الاحتراس» الذى يدل على التوقى والاحتراز عن توهم خلاف المقصود. وعرف البلاغيون هذه الوسيلة بأنها «أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود، بما يدفع ذلك الإيهام»(١) أو هو أن يأتى القائل «بمعنى يمكن أن يدخل عليه فيه لوم، فيفطن لذلك ويأتى بما يخلصه منه»(٢) وذلك الدافع للإيهام أو ذلك الذى يأتى به القائل للخلاص من لوم محتمل على نوعين:

(١) السابق ٣/ ٥٧.
(٢) البلاغة الواضحة ص ٢٥١.

النوع الأول: أن يكون الدافع أو المخلص فى وسط الكلام. ومثاله قول طرفة بن العبد(١).

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمى

فلما كان نزول المطر قد يؤول إلى خراب الديار وفسادها، أتى الشاعر بقوله (غير مفسدها) دفعا لما يتوهم من ذلك الخراب والفساد أو دفع توهم السامع أن الديار أصابها الفساد والخراب. وقول ابن المعتز يصف فرسا:

صببنا عليها - ظالمين - سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

فقوله (ظالمين) احتراس، دفع توهم السامع مع أن هذه الفرس بليدة تستحق الضرب. ومن ذلك قول المتنبى:

إنى أصاحب حلمى وهو بى كرم ولا أصاحب حلمى وهو بى جبن

فقد احترس الشاعر فى موضعين: فى الشطر الأول يذكر (وهو بى كرم) وفى الشطر الثانى يذكر (وهو بى جبن) قاصدا دفع التوهم من أنه غير كريم، أو غير شجاع.

والنوع الثانى: أن يكون الدافع أو المخلص في آخر الكلام. مثل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين) - فإن قوله سبحانه

(١) البلاغة الواضحة ص ٢٥١.
(٢) كتاب الصناعتين ص ٤٠٥ صوب الغمام: انصبابه. ديمة: المطر الدائم. تهمى: تسيل غير مفسدها: احتراس للديار من الفساد بكثرة المطر. غير مفسدها: نصب على الحال من فاعل سقى وهو صوب الربيع. أى سقى نزول المطر ووقوعه فى الربيع. وديمة تهمى: تسيل. وديوان طرفة بن العبد تحقيق د/ على الجندى ط الأنجلو المصرية ١٩٥٨ ص١٤٦.

«أذلة على المؤمنين» لما كان يوهم أن يكون ذلك لضعفهم دفعه بقوله (أعزة على الكافرين)، تنبيها على أن ذلك تواضع منهم للمؤمنين. ولهذا عدى (الذل) بعلى، مع أنه يعدّى باللام ـ لتضمنه معنى العطف. وذلك يؤيد أن ذلتهم ليست قائمة على الضعف وإنما هى قائمة على التواضع والعطف على المؤمنين. ويجوز أن يقصد بالتعدية بعلى الدلالة على أنهم ـ مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين ـ خافضون لهم أجنحتهم(١). ومن ذلك قول عنترة(٢).

أثنى على بما علمت فإننى سمح مخالطتى إذا لم أظلم

فقوله (إذا لم أظلم) احتراس يدل على أنه قد يكون سمح النفس عند المعاشرة والمعاملة الطيبة، وهذا ما يجعله هادئا ودودا. ولكنه لن يقبل الظلم ولن يرضى بالإهانة.

الوسيلة الثامنة: التتميم: ويراد به أن يأتى القائل فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضله مثل (مفعول أو حال أو تمييز، أو جار ومجرور أو نحو ذلك مما ليس بجملة مستقلة ولا ركن كلام)(٣)، وذلك لفائدة أو ضرورة معنوية. كالمبالغة فى المدح. ومثال قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ وذلك إذا كان الضمير في (حبه) عائدا إلى الطعام. أى ويطعمونه مع حبه أو حبهم له واحتياجهم إليه. «ولا شك

(١) شرح السعد ٣/ ٥٨.
(٢) الأنبارى : شرح القصائد السبع الطوال ص ٣٣٦ تحقيق : عبد السلام هارون، ط(٤) ١٩٨٠.
(٣) شرح السعد ٣/ ٥٨.

أن إطعام الطعام مع اشتهائه والحاجة إليه، أبلغ فى المدح بالكرم مما لو كان عنْ غنى»(١) أما إذا كان الضمير عائدا إلى الله تعالى على معنى (يطعمونه على حب الله) وابتغاء مرضاته، فإن ذلك لا يفيد إلا تأدية أصل المعنى المراد «الذى هو مجرد مدحهم بالكرم». وحينئذ لا تفيد الصيغة (على حبه) المبالغة فى هذا المدح، «لأن الإنسان لا يمدح شرعا إلا على فعل لوجه الله، وإذن فلا إطناب فى الكلام، وإنما هو مساواة»(٢) ومن ثم لا يكون فى الكلام «تتميم» بالمعنى المذكور، ومن التتميم قول زهير بن أبى سلمى(٣):

من يلق يوما ـ على علاتة ـ هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

فقوله (على علاته) الذى يعنى على كل حال من غنى أو فقر ــ تتميم جميل.

الوسيلة التاسعة: الاعتراض. ويرى البلاغيون أن الإطناب قد يكون بالاعتراض. وهو: أن يأتى القائل «فى أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة أو فائدة سوى دفع الإبهام»(٤)، لأن الغرض إذا كان مجرد دفع الإيهام كان ذلك «احتراسا»(٥). وقد قصد البلاغيون من النص على «اتصال الكلامين ـ أن يكون الكلام الثانى بيانا للأول، وتأكيدا له، أو بدلا منه. وأرادوا من الجملة

(١) علم المعانى ص ١٨٤.
(٢) السابق ص ١٨٤.
(٣) ديوانه ص ٧٦. على علاته: فى حالتى الفقر والغنى.
(٤) شرح السعد ٣/ ٥٩.
(٥) البلاغة الواضحة ص ٢٥١.

أو الجمل المعترضة بين الكلامين أن تحقق عددا من الأغراض:

١ ــ التنزيه: ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ويجعلون لله بناتا ـ سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ فجملة (سبحانه) معترضة للمبادرة إلى تنزيه الله تعالى عما يجعلونه له من البنات.

الدعاء: ومثاله قول الشاعر:

إن الثمانين ـ وبلغتها ـ قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

ترجمان مفسر ومكرر. فقوله (بلغتها) ـ جملة اعتراض فى أثناء الكلام لقصد الدعاء. أراد بها الشاعر استمالة قلب الممدوح، وإثارة عاطفته ليعطف عليه.

٣ ــ التنبيه : ومثاله قول الشاعر:

واعلم فعلم المرء ينفعه أن سوف يأتى كل ما قد علم

فجملة (فعلم المرء ينفعه) اعتراضية، قصد بها الشاعر تنبيه المخاطب إلى أن الشيء الذى أمر به نافع له، وذلك مما يدفعه إلى الإقبال عليه (١).

٤ ــ التعظيم. ومثاله قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون﴾. ففى قوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ اعتراضان. أحدهما: (وإنه لقسم عظيم)، والآخر (لو تعلمون) ـ وقد أيد بهما تعظيم القسم وتفخيم أمره. وفى ذلك تعظيم

(١) علم المعانى ص ١٨٥.

أن إطعام الطعام مع اشتهائه والحاجة إليه، أبلغ فى المدح بالكرم مما لو كان عنْ غنى»(١) أما إذا كان الضمير عائدا إلى الله تعالى على معنى (يطعمونه على حب الله) وابتغاء مرضاته، فإن ذلك لا يفيد إلا تأدية أصل المعنى المراد «الذى هو مجرد مدحهم بالكرم». وحينئذ لا تفيد الصيغة (على حبه) المبالغة فى هذا المدح، «لأن الإنسان لا يمدح شرعا إلا على فعل لوجه الله، وإذن فلا إطناب فى الكلام، وإنما هو مساواة»(٢) ومن ثم لا يكون فى الكلام «تتميم» بالمعنى المذكور، ومن التتميم قول زهير بن أبى سلمى(٣):

من يلق يوما ـ على علاته ـ هرما   يلق السماحة منه والندى خلقا

فقوله (على علاته) الذى يعنى على كل حال من غنى أو فقر ـ تتميم جميل.

الوسيلة التاسعة: الاعتراض. ويرى البلاغيون أن الإطناب قد يكون بالاعتراض. وهو: أنْ يأتى القائل «فى أثناء الكلام، أو بين كلامين متصلين معنى، بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة أو فائدة سوى دفع الإبهام»(٤)، لأن الغرض إذا كان مجرد دفع الإيهام كان ذلك «احتراسا»(٥). وقد قصد البلاغيون من النص على «اتصال الكلامين ـ أن يكون الكلام الثانى بيانا للأول، وتأكيدا له، أو بدلا منه. وأرادوا من الجملة

(١) علم المعانى ص ١٨٤.
(٢) السابق ص ١٨٤.
(٣) ديوانه ص ٧٦. على علاته: فى حالتى الفقر والغنى.
(٤) شرح السعد ٣/ ٥٩.
(٥) البلاغة الواضحة ص ٢٥١.

أو الجمل المعترضة بين الكلامين أن تحقق عدداً من الأغراض:

١ ــ التنزيه: ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ويجعلون لله بناتا ـ سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ فجملة (سبحانه) معترضة للمبادرة إلى تنزيه الله تعالى عما يجعلونه له من البنات.

الدعاء: ومثاله قول الشاعر:

إن الثمانين ـ وبلغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ترجمان مفسر ومكرر. فقوله (بلغتها) ـ جملة اعتراض فى أثناء الكلام لقصد الدعاء. أراد بها الشاعر استمالة قلب الممدوح، وإثارة عاطفته ليعطف عليه.

٣ ــ التنبيه : ومثاله قول الشاعر:

واعلم فعلم المرء ينفعه ... أن سوف يأتى كل ما قد علمه

فجملة (فعلم المرء ينفعه) اعتراضية، قصد بها الشاعر تنبيه المخاطب إلى أن الشىء الذى أمر به نافع له، وذلك مما يدفعه إلى الإقبال عليه (١).

٤ ــ التعظيم. ومثاله قوله تعالى: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون﴾. ففى قوله: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ اعتراضان. أحدهما: (وإنه لقسم عظيم)، والآخر (لو تعلمون) ـ وقد أيد بهما تعظيم القسم وتفخيم أمره. وفى ذلك تعظيم

(١) علم المعانى ص ١٨٥.

للمقسم عليه وتنويه برفعة شأنه(١).

٥ ــ المبادرة إلى اللوم والتصريح. ومثاله قول كثيرة عزة:

لو أن الباخلين ـ وأنت منهم ـ رأوك تعلموا منه المطالا

فقد عجل الشاعر بقوله (وأنت منهم) للإسراع إلى التصريح بتوجيه اللوم لها ومعاتبتها. وقولك تخاطب شخصا (إن المجاهدين من أجل عزة الوطن ـ وأنت على رأسهم ـ يستحقون الثناء)، فقد اعترضت بجملة (وأنت على رأسهم) للإسراع بتوجيه الثناء على هذا الشخص المخاطب.

(١) السابق ص ١٨٥.

الفصل الحادى عشر

بلاغة الالتفات

الفصـل الحادى عشر

بلاغــة الالتفات

١ ـ تحديد المفهـوم

الالتفات: لغة : مادة لفت(١). لفت وجهه عن القوم: صرفه وتلفت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه.

قال الشاعر:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا   يلاحظنى مـن حيث مـا أتلفت

واللفت: اللىُّ ولفته ويلفته لفتا : لواه على غير جهته وقيل: اللىّ هو أن ترمى به إلى جانبك ولفته عن الشيء ويلفته لفتا: صرفه. واللفت : الصرف. اللفوت من النساء التى تكثر التلفت وقيل: هى التى يموت زوجها أو يطلقها ويدع عليها صبيانا فهى تكثر التلفت إلى صبيانها وقيل: هى التى لها زوج ولها ولد من غيره، فهى تتلفت إلى ولدها، وفى الحديث: لا تتزوجنّ لفوتا، وهى التى لها ولد من زوج آخر، فهى لا تزال تلتفت إليه وتنشغل به عن الزوج.

(١) مادة لفت لسان العرب ط . بيروت المجلد ٣ صـ٣٧٩.

من البين أن المادة اللغوية لصيغة لفت تدور حول التحول والانتقال من جهة إلى أخرى، ومن هذه الصيغة أخذت الكلمة أو أخذ المصدر (الالتفات) الذى يعنى التفات الإنسان من يمينه إلى شماله ومن شماله إلى يمينه كما يقول ابن الأثير، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، أى أنه ينتقل من وجه إلى آخر(١).

الالتفات فى اصطلاح البلاغيين:

ينطوى المعنى الاصطلاحى عند البلاغيين على المعنى اللغوى؛ فهو نوع من الكلام أو التعبير ينقل فيه عن صيغة إلى صيغة، مثل الانتقال من خطاب حاضر، إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر أو من فعل ماض إلى مستقبل، أو من فعل مستقبل إلى ماض وغير ذلك.

ويمكن أن نصف هذا العمل بصيغة تلوين أو تنويع الكلام أو الخطاب، وتفصيل شعبه، يقول ابن المعتز فى كتابة البديع: الالتفات هو انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة ومن المخاطبة إلى الإخبار.

٢ـ الالتفات عند اللغويين والبلاغيين

أولا : عند المتقدمين:

تفيد المصادر القديمة أن الأصمعى ربما كان أول من أشار إلى الالتفات، فقد ذكر ابن رشيق فى كتابه العمدة أن اسحاق الموصلى قال: قال الأصمعى: أتعرف التفات جرير قلت وما هو؟ فأنشدنى: ـ

(١) المثل السائر جـ٢ صـ١٦٧.

أتنسى إذ تودعنا سليمى   بعـود بشامة سقى البشام

ثم قال ألا تراه مقدما على شعره إذ التفت إلى البشام فدعا له؟(١).

ولكن أبا عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ). هو أول من تحدث عن صور الالتفات بمفهومها الاصطلاحي وذلك في كتابه «مجاز القرآن» عندما تناول الآية الكريمة: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾.

فقد قال: ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب قال الله تعالى: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم﴾ أي بكم. ومن مجاز ما جاء خبره عن غائب ثم خوطب مخاطبة الشاهد قوله تعالى: ﴿... ثم ذهب إلى أهل يتمطى، أولى لك فأولى﴾ أي أولى له(٢).

وفي كتاب مشكل القرآن لابن قتيبة عرضٌ لهذه الصور أو تناول لهذه الصور، قال ابن قتيبة(٣): ومن الالتفات: - أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب كقوله عز وجل: ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾. وقوله تعالى: ﴿وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾. وقوله تعالى: ﴿ولكن الله

(١) العمدة لابن رشيق تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل بيروت ٢/ ٤٦.

(٢) أبو عبيدة معمر بن المثنى: مجاز القرآن: تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي ط١٩٥٤ ص١١.

(٣) ابن قتيبة ص٦٢ تأويل مشكل القرآن.

حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم﴾، ثم قال: ﴿أولئك هم الراشدون﴾.

قال الشاعر:

يادارميــة بالعلياء كالسـند أقوت وطال عليها سالف الأمد(١).

ومنه أن يُخاطب الرجل بشيء ثم يُجعل الخطاب لغيره كقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ الخطاب للنبى -ﷺ- ثم قال ﴿فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾. يدل على ذلك قوله: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾.

وقال تعالى: ﴿إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرا﴾. ثم قال: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعذوره وتوقروه﴾.

وقد عُنى بدراسة الالتفات أيضًا قدامة بن جعفر (-٣٣٧هـ) تحت باب (من نعوت المعانى) محددًا له، وعارضا لعدد من النصوص الشعرية التى تدل عليه(٢).

يقول قدامة بن جعفر: وهو أن يكون الشاعر آخذًا فى معنى فكأنه يعترضه إما شكٌ فيه، أو ظن أن رادا يرد عليه، أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعًا إلى ما قدمه، فإما أن يذكر سببه أو يحلى الشك فيه. ومثال ذلك قول المعطل:

تبين صلاة الحرب منا ومنهم إذا ما التقينـا والمسالــم بـادن

(١) وأقوت: خلت من أصلها.

(٢) قدامة بن جعفر: نقد الشعر تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى، دار الكتب العلمية بيروت ص١٠٠.

فقوله (بادن) رجوع عن المعنى الذى قدمه حين بين أن علامة صلاة الحرب أن المسالم يكون بادنا سمينا والمحارب ضامراً.

وقول الرماح بن ميادة:

فلا صرمه يبدو وفى اليأس راحة ولا وصلـه يبدو لنـا فنكارمه.

فكأنه وهو يقول وفى اليأس راحة التفت إلى المعى لتقدير أن معارضا يقول له: ما تصنع بصرمه (قطعه)؟ فقال لأن اليأس راحة(١) وبعبارة أخرى كأن هذا الشاعر توهم أن قائلا يقول له وما تصنع بصرمه فقال لأن فى اليأس راحة.

وقد درسه أيضا أبو هلال العسكرى في كتابه «الصناعتين» باعتباره أحد فنون البديع أو أبوابه فهو الباب التاسع كما ذكر وعينه بقوله(٢): «الالتفات على ضربين فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى فإذا ظننت أنه يريد تجاوزه يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره ويورد أمثلة عليه من شعر جرير مثل قوله: ـ

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بشامة سقى البشام

وقولـه:ـ

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى لازلت فى غلل وايك ناضر(٣).

فالتفت إلى الحمام فدعا له بأن يكون فى رغد من العيش.

---

(١) نقد الشعر صـ١٥٠.

(٢) كتاب الصناعتين . تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، وعلى محمد البجاوى، دار الفكر العربى ط١٩٧١ص٣٩٢.

(٣) الغلل: الماء ينساب بين الشجر. الأراك: الشجر الملتف.

والضرب الآخر: أن يكون الشاعر آخذا فى معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن أو رادًا يرد عليه قوله أو سائلاً يسأل عن سببه فيعود راجعًا إلى ما قدمه فإما أن يؤكده أو يذكر سببه ويزيل الشك عنه ومثاله قول المعطل الهذلى: ـ

تبين صلاة الحرب منا ومنهم   إذا ما التقينا والمسالم بادن.

فقوله: «والمسالم بادن» رجوع عن المعنى الذى قدمه حتى بين أن علامة الحرب من غيرهم أن المسالم بادن والمحارب ضامر.

وقول عبد الله بن معاوية:

وأجمل إذا ما كنت لابد مانعا   وقد يمنع الشيء الفتى وهو مجمل

ثانيا: عند المتأخرين:

وقد تناول السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ الالتفات فى كتابه مفتاح العلوم وذلك فى موضعين: ـ

الأول: عندما عرض لفنون علم المعانى (صـ٩٥).

الثانى: عندما تكلم عن وجوه تحسين الكلام الخاصة بالمعانى صـ٢٠.

ورغم أنه لم يدخل هذه الوجوه إلى جانب وجوه تحسين اللفظ فى علم مستقل وهو البديع حيث أن تسميتها بالبديع من عمل الخطيب وشراحه، رغم ذلك ـ فإن دارسى البلاغة يرونه قد نسب الالتفات إلى علم المعانى مرة وإلى علم البديع مرة أخرى.

وعلى أية حال فإن السكاكى لا يعنى بالالتفات إلا إذا اتصل بالمعانى، ولذلك ضمه إلى فنون علم المعانى تارة وإلى المحسنات تارة أخرى. يقول

عنه باعتباره أحد فنون المعانى: -

«واعلم أن هذا النوع أعنى نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص بالمسند إليه ولا هذا القدر، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها ينتقل كل واحد منها إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعانى، والعرب يستكثرون منه ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب - أدخل فى القبول - عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملأ لاستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك»(١).

حرص السكاكى على أن يكون الالتفات مفيدا مؤثرا شائعا مثيراً للنفس الإنسانية (المتلقية) وذلك بإجراء هو أنه ربطه بالناحية النفسية وبأثر هذه الناحية فى بناء العلاقات الاجتماعية بين الناس. ويظهر هذا الاتجاه فى أنه أورد مثلا من الواقع الاجتماعى عند العرب مصورا (فى مناسبة) قرى الضيف ليقرب للقارئ معنى الالتفات وقيمته فى البلاغة العربية يقول: -

«أليس قرى الأضياف سجيتهم ونحرُ العشار للضيف دأبهم... أفتراهم يحسنون قرى الأشباح فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم» ويقول:

«إن الكلام المفيد عند الإنسان لكن بالمعنى لا بالصورة أشهى غذاء لروحه وأطيب قرى لها.»(٢).

فهو يقصد أن الالتفات لو كان بالصورة أو بالشكل خاليا من المعنى لكان تأثيره أقل، أما إذا كان الالتفات حاملاً معنى فى طى أسلوب متوائم الأجزاء

(١) مفتاح العلوم صـ ٩٥.
(٢) السابق صـ ٩٥.

فهو أشهى غذاء للروح وأطيب قرى للنفس.

وقد عمد كل من الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) وشارحه الأكبر سعد الدين التفتازاني (ت٧٩١) عمد كلاهما إلى تناول الالتفات في ضوء كلام السكاكي عنه مع إضافات إليه تتلخص في التوضيح والشرح، ذلك أن الخطيب عرض بعضا من شواهد السكاكي مزيلة بتعليقاته ثم معقبا عليه في ذلك، ومن هذه الشواهد قول ربيعة بن مقروم: -

بانت سعادُ فأمسى القلبُ معمودًا   وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا

فالتفت كما ترى حيث لم يقل«واخلفتني»، أي خاطب نفسه التفاتا. ومقتضى الظاهر أن يكون «واخلفتني».

قال: فهذا المقتضى بهدف هو تجديد نشاط السامع والتأثير فيه ومن ذلك قول ابن مقروم أيضًا:

تذكرت والذكرى تهيجك زينبا   وأصبح باقي وصلها قد تقضبا

وحلَّ بفلج فالأباتر أهلنا   وشطت فحلت غمرة فمثقبا

فالتفت في البيتين حيث انتقل من الخطاب (خطاب نفسه) في قوله (تذكرت وتهيجك) إلى الغائب (وأصبح باقي وصلها)، وحيث التفت من التكلم (حل أهلنا) إلى الغائب (وشطت).

ويعقب الخطيب على ذلك بقوله «المشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر. منها»(١).

---

(١) الإيضاح صـ١١٣ ومعمودا: موجوعا، فلج، الأباتر، غمرة، متقبا : أماكن.

١ ــ فمثال الالتفات من التكلم إلى الخطاب قوله تعالى: ﴿ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون﴾. ومقتضى الظاهر أن يتم التعبير بـ (أرجع) أى بضمير المتكلم، ولكنه سبحانه جعل الصيغة للمخاطبين تحقيقًا للتنشيط وإثارة الانتباه.

٢ ــ ومثال الالتفات من التكلم إلى الغيبة ﴿إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر﴾. ومقتضى الظاهر (فصل لنا).

٣ ــ ومثال الالتفات من الخطاب إلى التكلم قول علقمة بن عبدة :-

طحابك قلبٌ فى الحسان طروبُ بعيد الشباب عصرَ حان مشيبُ

تكلفنى ليلى وقد شط وليهـــا وعادت عواد بيننا وخطـــوبُ

فقد عبر علقمة عن نفسه بطريق الخطاب ثم عاد إلى التكلم (يكلفنى) والقياس (يكلفك).

٤ ــ ومثال الالتفات من الغيبة إلى التكلم قوله تعالى: ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابًا فسقناه﴾ ومقتضى الظاهر (فساقه) أى ساق الله هذا السحاب.

٥ ــ ومثال الالتفات من الغيبة إلى الخطاب. قوله تعالى: ﴿مالك يوم الدين إياك نعبد﴾ ومقتضى الظاهر (إياه).

٣ـ الالتفات عند ابن الأثير

وقد صف ابن الأثير الالتفات بأنه شجاعة العربية لأن الشجاعة هى الإقدام وذلك أن الرجل الشجاع يركب أو يستخدم أو يستعمل أو يجرب ما لا يستطيعه غيره ويطرق أماكن ومواطن كثيرة لا يمكن أن يطرقها سواه إلا على خوف أو خشية، وكذلك الالتفات فى الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات.

وهنا يجب أن نسجل أن هذا الكلام خاص بزمنه هو لأن اللغات الأوربية مثل الإنجليزية والفرنسية تحفل به أساليبها على نحو ما نرى فى أعمال الروائى الفرنسى مارسيل بروست وأعمال كل من فرجينيا وولف، وجيمس جويس، ووليم فولكنز ويتمثل هذا الأسلوب بطريقة بارزة فى رواية «عوليس» لجيمس جويس. وقد عمد ابن الأثير إلى تقسيم الالتفات بعد أن أفاد من نظرات النقاد والبلاغيون قبله ـ قسمه إلى ثلاث طوائف أو ثلاثة أقسام:(١).

القسم الأول:ـ

فى الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة. يقول ابن الأثير فى هذا القسم : «زعموا أن الانتقال على هذا النحو إنما هو عادة العرب فى أساليبها»، ولم يقبل ابن الأثير هذا الزعم ولم يسلم به، حيث تساءل عن السبب الذى جعل العرب تصنع ذلك فأورد نصًا للزمخشرى وهو: «إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن فى الكلام

(١) المثل السائر: ٢/ ١٦٨.

والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع وإيقاظه للإصغاء إليه».

وقد ناقش ابن الأثير هذا السبب قائلاً: ليس الأمر كما ذكره لأن الانتقال فى الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية أو مجرد إثارة لنشاط السامع وإيقاظًا للإصغاء إليه ــ فإن ذلك دليل على أن السامع يملّ من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطا للاستماع. وهذا قدح فى الكلام لا وصف له، لأنه لو كان حسنا لما مل ويقول معتذرا عن الزمخشرى: إن التسليم بقول الزمخشرى يختص بالكلام المطول.

ويقول: لكن الأمر بخلاف ذلك لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ومن الشعر مثل قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئًا إدا﴾. حيث انتقل سبحانه من الغائب (وقالوا) إلى الحاضر المخاطب ﴿لقد جئتم﴾ لفائدة حسنة وهى زيادة التسجيل عليهم بالاجتراء على الله سبحانه وتعالى والتعرض لسخطه، وتنبيه لهم على عظم وخطر ما قالوه كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه موبخًا لهم، منكرًا عليهم.

ومن ذلك قول أبى تمام:

كأن بها ضغنا على كل جانب ... من الأرض أو شوقا إلى كل جانب

إذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد ... تقطع ما بينى وبين النوائب

فقد انتقل من الغائب (كأن بها) إلى مخاطبة نفسه (إذا العيس لاقت

بى)، وأما الانتقال من الخطاب إلى الغيبة فكقوله تعالى: ﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريحٌ عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾.

ويعلق ابن الأثير على هذه الآية فيقول: لقد صرف سبحانه الكلام هنا من الخطاب إلى الغيبة لفائدة هى أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها كالمخبر لهم ويستدعى منهم الإنكار عليهم ولو قال: «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها» وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية لذهبت تلك الفائدة التى انتجها خطاب الغيبة وليس تلك بخاف على نقدة الكلام(١).

القسم الثانى :-

فى الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر وعن الفعل الماضى إلى فعل الأمر: ويقول ابن الأثير هنا: «إن هذا القسم يُقصد إليه تعظيمًا لحال من أجرى عليه الفعل المستقبل وتفخيما لأمره، والضد من ذلك فيمن أجرى عليه فعل الأمر، فمما جاء منه قوله تعالى: ﴿يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا إنى برىء مما تشركون﴾.

فإنه إنما قال: أشهد الله واشهدوا ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له وبمعناه، لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم

(١) المثل السائر ٢/ ١٧٩.

فما هو إلا تهاون بهم ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما وجيء به على لفظ الأمر.

وكذلك يرجع عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر إلا أنه ليس كالأول بل إنما يُفعل ذلك توكيداً لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى: ﴿قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين﴾.

وكان تقدير الكلام (أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد)، فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده وتقويته فى نفوسهم فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده، ثم اتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب إذ عمل الجوارح لا يتم ولا يوضح إلا بإخلاص النية.

القسم الثالث: فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل وعن المستقبل بالماضى(١).

١ ـ أما الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضى فقد تعين فى أن الفعل المستقبل إذا أتى به القائل فى حالة الإخبار عن وجود الفعل وحدوثه وحضوره كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضى، والسبب فى ذلك أن الفعل المستقبل يبين ويوضح الحال التى تقع فيها ويستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع أو القارئ يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضى، وذلك

---

(١) المثل السائر ٢/ ١٨١.

مثل قوله تعالى: ﴿والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلي بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾.

وقد علق ابن الأثير على هذه الآية بقوله: إنما قال (فتثير) مستقبلا، وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا إليه وهو حكاية الحال التى يقع فيها إثارة الرياح السحاب، واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة. وعلى هذا ورد قول (تأبط شرا).

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان(١)

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران(٢)

ويعلق ابن الأثير على ذلك بقوله: إنه قصد أن يصور لقومه الحال التى تشجع فيها، ضرب الغول كأنه يبصره إياها شاهدة للتعجب من جرأته من هذه الهول. ولو قال (فضربتها) عطفا على الأول (لقيت) لزالت هذه الفائدة المذكورة.

٢ ــ وإما الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل: ـ هو عكس ما تقدم، وفائدته أن الفعل الماضى إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذى لم يوجد بعد كان ذلك أوكد وأقوى فى تحقيق الفعل وإيجاده، لأن الفعل الماضى يعطى من المعنى أنه قد كان ووجد. وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التى يستعظم وجودها، وهناك فرق بين هذا الأمر والأمر الأول، والفرق بين هذا النوع والإخبار بالمستقبل عن الماضى؛ أن الغرض

---

(١) سهب : الأرض المنبسطة، الجران: مقدم عنق البعير والفرس من مذبحه إلى منحره.

من الأول هو: تبيين وتوضيح هيئة الفعل، واستحضار صورته ليكون السامع كأنه يشاهدها، وأن الغرض من الثانى هو: الدلالة على إيجاد النعل الذى لم يوجد بعد، فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضى عن المستقبل قوله تعالى: ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض﴾. فإنه إنما قال (ففزع) بلفظ الماضى بعد قوله (ينفخ) وهو مستقبل لسبب وهو الإشعار بتحقيق الفزع، وإنه كائن لا محالة، لأن الفعل الماضى يدل على على وجود الفعل وكونه مقطوعًا به. وكذلك جاء قوله تعالى: ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرضُ بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا﴾. فإنما قوله: ﴿وحشرناهم﴾ ماضيا بعد «نسير وترى» وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير والبروز، ليشاهدوا تلك الأحوال، كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم، لأن من الناس من ينكره كالفلاسفة وغيرهم ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضى.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

١ ــ ابن الأثير: المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر: تحقيق د/ الحوفى، د/ طبانة. نهضة مصر.

٢ ــ ابن أبى الأصبع: بديع القرآن. تحقيق د/ حفنى شرف. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ القاهرة.

٣ ــ أحمد عبد السيد الصاوى (د): النقد التحليلى عند عبد القاهر الجرجانى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م.

٤ ــ أحمد مصطفى المراغى: علوم البلاغة. الطبعة الثانية ـ المكتبة الحديثة. القاهرة ـ ١٣٣٤هـ .

٥ ـ أحمد مصطفى المراغى: تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها. مصطفى البابى الحلبى ١٩٥٠م.

٦ ــ امرؤ القيس: ديوانه. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر ١٩٥٨م.

٧ ــ أوس بن حجر: ديوانه. تحقيق د/ محمد يوسف نجم ـ دار صادر بيروت ط(٢) ١٩٦٧م.

٨ ــ ابن الأنبارى: شرح القصائد السبع الطوال. تحقيق عبد السلام

هارون دار المعارف ط(٤) ١٩٨٠م.

٩ ــ البحترى: ديوانه. تحقيق: حسن كامل الصيرفى ط(٣) دار المعارف ١٩٧٧م.

١٠ ــ البارودى : ديوانه. دار المعارف ١٩٧١، ١٩٧٢م.

١١ ــ بدوى طبانة (د): قدامة بن جعفر والنقد الأدبى الأنجلو المصرية ١٩٧١م.

١٢ ــ بسيونى عرفة (د):فكرة النظم. تطورها وأهدافها. الرسالة١٩٨٢م.

١٣ ــ بشار بن برد: ديوانه. تحقيق محمد طاهر بن عاشور ـ القاهرة ١٩٦٦م.

١٤ ــ بكرى شيخ أمين (د): البلاغة العربية في ثوبها الجديد. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٧٩م.

١٥ ــ التبريزى : شرح الحماسة.

١٦ ــ أبو تمام: ديوانه: تحقيق محمد عبده عزام ـ دار المعارف بمصر ط(٤) ١٩٨٣م.

١٧ ــ تمام حسان (د) الأصول: دراسة أبستمولوجية: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

١٨ ــ الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق عبد السلام هارون ـ الخانجى ١٩٦٨م.

١٩ ــ جرير: ديوانه. تحقيق محمد إسماعيل الصاوى ط(٧) ـ المكتبة التجارية بمصر.

٢٠ ــ جميل بن معمر: ديوانه ـ تحقيق د/ حسين نصار مكتبة مصر ط(٢) ١٩٦٧م.

٢١ ــ حاتم الطائى: ديوانه ـ دار صادر ـ بيروت ١٩٧٣م.

٢٢ ــ حامد طاهر: ديوانه ـ سجل العرب ١٩٨٤م القاهرة.

٢٣ ــ حامد عونى: المنهاج الواضح ط(٨) الإسكندرية ١٩٦٨م.

٢٤ ــ حافظ إبراهيم: ديوانه ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

٢٥ ــ حسان بن ثابت: ديوانه. تحقيق د/ سيد حنفى حسنين ـ دار المعارف ١٩٨٣م.

٢٦ ــ حسن البندارى (د): علم البيان: الأنجلو المصرية ١٩٨٨م.

٢٧ ــ حسن البندارى (د): تذوق الفن الشعرى فى الموروث النقدى والبلاغى: الأنجلو المصرية ١٩٨٩م.

٢٨ ــ حسن عبد الرازق (د): النظم البلاغى: دار الطباعة الحديثة ط(١) ١٩٦٧م.

٢٩ ــ الحطيئة: ديوانه: شرح أبى سعيد السكرى. دار صادر بيروت. ١٩٦٧م.

٣٠ ـــ الحمدانى (أبو فراس) ديوانه. تحقيق: عباس عبد الساتر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨٥م.

٣١ ـــ الخطيب القزوينى: الإيضاح: تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى دار الكتاب اللبنانى ١٩٨٥م.

٣٢ ـــ الخنساء: ديوانها : دار صادر بيروت ١٩٦٧م.

٣٣ ـــ درويش الجندى(د) علم المعانى : نهضة مصر ط(١)

٣٤ ـــ دعبل : ديوانه : تحقيق عبد الصاحب عمران الدجيلى ـ دار الكتاب اللبنانى ط(٢) ١٩٧٢م.

٣٥ ـــ ذو الرمة: ديوانه: المكتب الإسلامى ط(٢) بيروت ١٩٦٤م.

٣٦ ـــ ابن رشيق: العمدة: تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد ط(٤) الجيل بيروت ١٩٧٤م.

٣٧ ـــ الرقيات (عبيد الله بن قيس): ديوانه: تحقيق د/ ناصر الدين الأسد ـــ دار صادر ـــ بيروت ١٩٦٧م.

٣٨ ـــ ابن الرومى: ديوانه: تحقيق د/ حسين نصار الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

٣٩ ـــ زهير بن أبى سلمى: ديوانه: تحقيق د/ فخر الدين قباوة. الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٨٠م.

٤٠ ــ الزوزنى المعلقات السبع دار الجيل ـ بيروت ط(٢) ١٩٧٢م.

٤١ ــ الزيات. دفاع عن البلاغة . مطبعة الرسالة ١٩٥٥م.

٤٢ ــ سعد الدين التفتازانى. شرح السعد (مختصر المعانى) تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ مكتبة صبيح ط١٩٣٧م.

٤٣ ــ السكاكى: مفتاح العلوم : طبعة الحلبى ١٩٣٧م.

٤٤ ــ ابن سنان الخفاجى سر الفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدى، مكتبة صبيح القاهرة ١٩٦٩م.

٤٥ ــ الشابى (أبو القاسم) ديوانه: أغانى الحياة. دار المعارف تونس ١٩٨٧م.

٤٦ ــ شوقى (أحمد) ديوانه (٤أجزاء) المكتبة التجارية الكبرى ١٩٧٠م.

٤٧ ــ طرفة بن العبد ديوانه تحقيق د/ على الجندى. الأنجلو المصرية ١٩٥٨م.

٤٨ ــ ابن طباطبا العلوى: عيار الشعر: تحقيق د/ محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٠م.

٤٩ ــ عبده عبد العزيز قلقيلة (د) البلاغية الإصطلاحية دار الفكر العربى ١٩٨٥م.

٥٠ ــ عبد القاهر الجرجانى: دلائل الإعجاز بتصحيح: رشيد رضا. المنار، ١٩٨٧م. وبتحقيق محمود شاكر ـ الخانجى ١٩٨٤م.

٥١ ــ عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة تصحيح ونشر السيد رشيد رضا دار المنار ١٩٧٨م.

٥٢ ــ عبد العزيز عتيق (د): علم المعاني. دار النهضة العربية ــ بيروت ١٩٧٤م.

٥٣ ــ عبد العزيز عرفة (د) من بلاغة النظم العربي . عالم الكتب ــ بيروت ١٩٨٤م.

٥٤ ــ عبد المتعال الصعيدي: البلاغة العالية: المطبعة السلفية ١٣٥٠هـ

٥٥ ــ علي الجارم (ومصطفى أمين): البلاغة الواضحة ــ دار المعارف.

٥٦ ــ علي الحديدي (د): محمود سامي البارودي (شاعر النهضة) الأنجلو المصرية ١٩٩٠م.

٥٧ ــ العلوي (يحيى بن حمزة) الطراز.

٥٨ ــ عمر الدسوقي: النابغة الذبياني: نهضة مصر.

٥٩ ــ عمرو بن معد يكرب: ديوانه. تحقيق مطاع الطرابيشي: دمشق ١٩٧٤م.

٦٠ ــ عنترة العبسي: ديوانه: تحقيق محمد سعيد مولوي: المكتب الإسلامي، دمشق ١٩٦٤م.

٦١ ــ أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني. هيئة الكتاب ١٩٧٠م.

٦٢ ــ الفرزدق: ديوانه: تحقيق إسماعيل الصاوى. المكتبة التجارية بمصر.

٦٣ ــ ابن قتيبة : أدب الكاتب.

٦٤ ــ ابن قتيبة : الشعر الشعراء، تحقيق أحمد شاكر ط(٣) ١٩٧٧م.

٦٥ ــ قيس بن الخطيم: ديوانه: تحقيق د/ ناصر الدين الأسد ــ دار صادر ـ بيروت ١٩٦٧م.

٦٦ ــ كعب بن زهير: ديوانه : دار الفكر . بيروت ١٩٦٨م.

٦٧ ــ المتنبى : ديوانه: تحقيق مصطفى السقا وزميليه: دار المعرفة ـ بيروت.

٦٨ ــ مسلم بن الوليد ديوانه (صريع الغوانى) تحقيق د/ سامى الدهان، دار المعارف بمصر.

٦٩ ــ محمد أبو موسى (د) دلالات التركيب. مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٩م.

٧٠ ــ محمد بن على بن محمد الجرجانى: الإشارات والتنبيهات فى علوم البلاغة تحقيق د/ عبد القادر حسين ـ نهضة مصر ١٩٨٢م.

٧١ ــ ابن المعتز : ديوانه: تحقيق يونس أحمد السامرائى. بغداد ١٩٧٨م.

٧٢ ــ المغربى (أبو يعقوب): مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح.

٧٣ ــ المعجم الوجيز: مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ١٩٨٠م.

٧٤ ــ النابغة الذبياني: ديوانه: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف ط(٢) ١٩٨٥م.

٧٥ ــ أبو نواس: ديوانه: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي دار الكتاب العربي ـ لبنان ١٩٨٤.

٧٦ ــ أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين: تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي ـ دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

الفهرس

الفهرس

الفهرس

وع

ل الر

١ ـ

٢ ـ

ل الا

١ ـ

٢ ـ

كتب أخرى للمؤلف

أ- القصص:

- **الجـــرح:** مجموعة قصصية، طبعة (٢)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة، ١٩٩١.
- **الكلام:** مجموعة قصصية، طبعة (٢)، مكتبة الآداب- القاهرة، ١٩٩١.
- **أمـــواج الفردوس:** مجموعة قصصية، طبعة (١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥.

ب- الكتب:

- **فن القصة القصيرة عند نجيب محفوظ:** طبعة (٢) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٨.
- **قـيم الإبـداع الشـعري في النقد العربي القديم:** طبعة (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **تـذوق الفـن الشعري في الموروث النقدي والبلاغي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٨٩.
- **مقاييس الحكم الموجز في الموروث النقدي:** طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩١.
- **فاعلـية الـتعاقب فـي الشـعر العربي الحديث:** طبعة (١) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٥.
- **جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر:** طبعة (٢) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ١٩٩٩.
- **الصـنعة الفنـية في التراث النقدي:** طبعة (١) مركز الحضارة العربية - القاهرة ١٩٩٩.

- نظرية الإبداع الشعري عند النواجي: طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٠.
- الخطـاب النفسي في النقد العربي القديم: طبعة (٢) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠١.
- إحكـام الـنص الشـعري في التراث النقدي والبلاغي: طبعة (١) الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠١.
- تحليـل النص الأدبي: دراسات في الأجناس الأدبية (بالاشتراك مع د. عزة الغنام ود. الزهراء بدوي) طبعة الأنجلو المصرية - القاهرة ٢٠٠١.
- تجليات الإبداع الأدبي: طبعة (١) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠٢.
- أسـاليب علـم المعاني بين النظرية والتطبيق: طبعة (١) مكتبة الآداب - القاهرة ٢٠٠٣.
- الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق: طبعة (١) مكتبة الآداب- القاهرة ٢٠٠٣.
- الشـعر العربي في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي: طبعة (١) مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٣.
- البنـيات الكاشفة عند نجيب محفوظ: دراسات في النص القصصي من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٦، الأنجلو المصرية - القاهرة ٢٠٠٤.
- مـرايا التجلـي: رؤى نقدية كاشفة: طبعة (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.
- فـيض القلـم: مقـالات فـي الـثقافة والأدب: طبعة (١)، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة ٢٠٠٥.

رقم الإيداع - ١٧٥١٧ / ٢٠٠٣